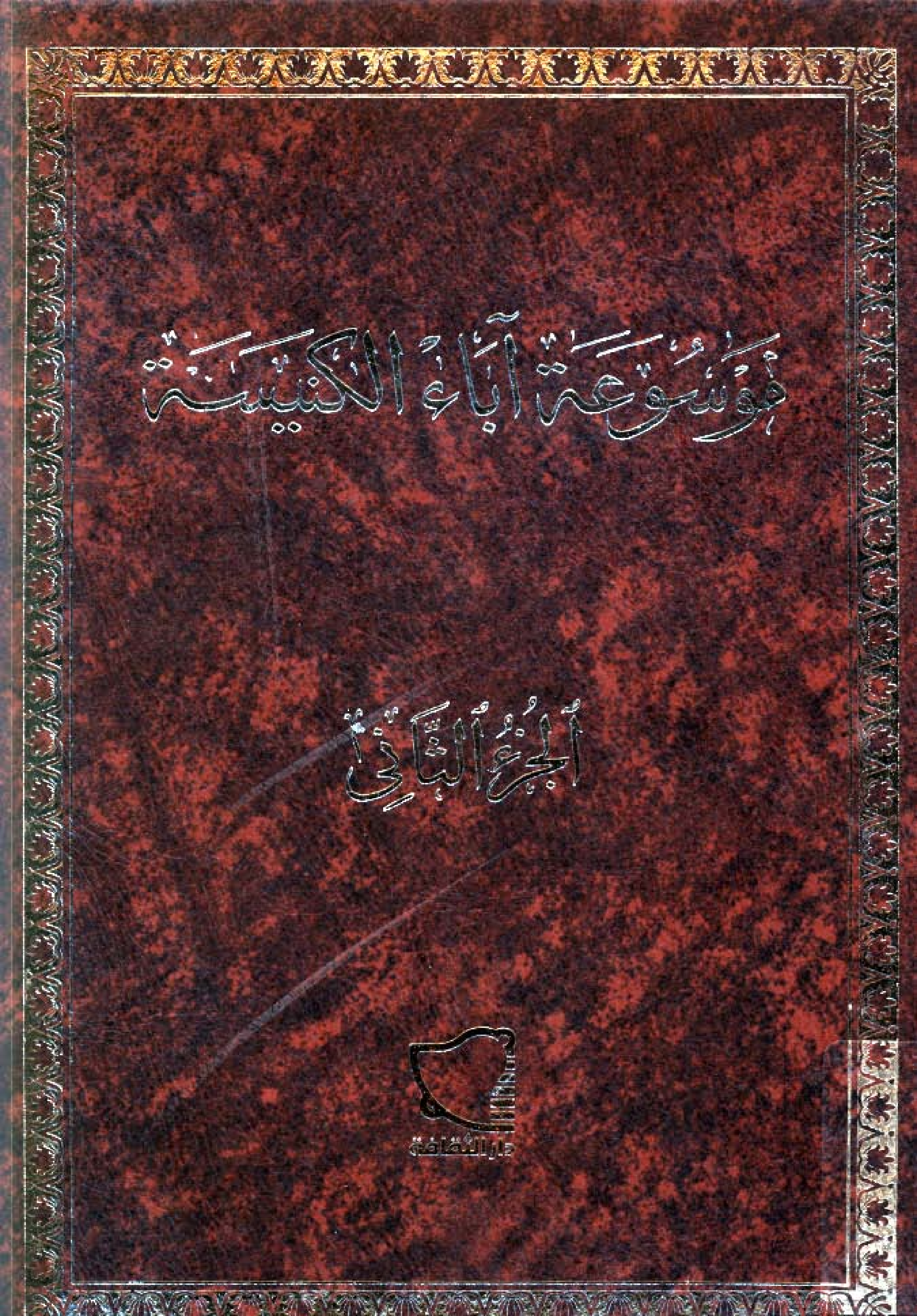


موسوعة آباء الكنيسة
الجزء الثاني
دار الثقافة

موسوعة آباء الكنيسة

الجزء الثاني

إعداد

عادل فرج عبد المسيح



اللجنة الاستشارية

مقدمة الدار

كتابات الآباء جزء أصيل من التراث الأدبي المسيحي، الذي يزخر بأفكار لاهوتية ثرية. والبحث في نشأة الفكر اللاهوتي أمر ضروري ولازم لمعرفة أصول الفكر المسيحي.

وهذه السلسلة من موسوعة تاريخ آباء الكنيسة تتبع ما أرسوه من دعائم الفكر اللاهوتي المسيحي من خلال إسهاماتهم الأدبية حتى القرن العاشر الميلادي.

ويسر دار الثقافة أن تقدم للقاريء الدراسات الجادة التي تسهم في تعميق الإدراك والفهم للمسيحية، والتي تدعو إلى مشاركة مجتمعنا قضاياه ومشاكله، كما كان الآباء مشاركين بآرائهم واجتهاداتهم في مجتمعاتهم.

دار الثقافة

مقدمة

يزداد الاهتمام بدراسة الأعمال الأدبية للآباء في الشرق كما في الغرب. فتعقد الندوات والمؤتمرات، وتنشر الأبحاث والكتابات، في جهود متجددة لكي تنهل من ينابيع الفكر المسيحي الأصيل.

وفي هذه الموسوعة، نقدم دراسة لآباء الكنيسة في إطار التاريخ الكنسي وما أحاط به من الظروف الثقافية والاجتماعية والسياسية، في محاولة جادة ورغبة صادقة للوقوف على ما كانت عليه أحوال الكنائس في المواقع الجغرافية المختلفة. وهذا من شأنه أن يوضح لنا كيف نشأ الفكر اللاهوتي المسيحي وتطور.. ثم تبلور.

وفي هذه الأجزاء، ما زال التركيز في دراساتنا، على تلك الفترة من التاريخ السابقة لمجمع نيقية في ٣٢٥م. وهذا الجزء خاص بكنيسة الإسكندرية، وكنيسة شمالي أفريقية.

وفي إطار تناولنا لكنيسة الإسكندرية، فإننا نقوم بدراسة مُركزة شاملة -في غير إسهاب، أو تطويل- بتأصيل فكر الحضارة والدين والأخلاق في مصر القديمة، والتمهيد للمسيحية.

ولأن المسيحية الأولى في مصر نشأت في الإسكندرية، لذلك أفردنا فصلاً لدراسة دور الإسكندرية في العالم القديم، حيث كان لمدرسة الإسكندرية في العصر اليوناني دور ثقافي عالمي عظيم.. كما نتعرض لنشأة ودور مدرسة الإسكندرية اللاهوتية.. ودور الآباء الذين تناوبوا على رئاستها مثل القديس بنتينوس والقديس كليمندس، والعلاَّمة أوريجانوس..

ثم نتقدم بعد ذلك لدراسة كيف نشأت كنيسة الإسكندرية وتطورت.. وكيف نشأت الحياة الرهبانية في مصر، ومنها انتقلت إلى سائر الكنائس.

وبعد دراسة موجزة عن دور المراكز الثقافية في وادي النيل، والمسيحية في بلاد النوبة.. نفرد جزءاً خاصاً لدراسة آباء كنيسة الإسكندرية، فنقدم نبذة عن نشأتهم.. وإيمانهم وتعليمهم.. وأعمالهم الأدبية التي قاموا بكتابتها.. سواء الباقية أو التي فقدت منها.. ونقدم ملخصاً لكل منها متى توفر ذلك.

وهكذا الحال مع كنيسة شمالي أفريقية.. الكنيسة ذات الجوار.. والأقرب لنا من الناحية الجغرافية.. التي قدمت في الأدب اللاتيني الأب ترتليانوس.. وغيره.. فنقدم دراسة عن أفريقية ثقافياً واجتماعياً وسياسياً.



وكيف عرفت المسيحية طريقها إلى شمالي أفريقية.. ثم كيف اختفت من هناك بعد ذلك. ثم نقدم دراسة عن آباء كنيسة شمالي أفريقية.. متبعين نفس النهج الذي سرنا عليه مع كنيسة الإسكندرية.

وأود أن أشير في هذه الدراسة التي نقدمها إلى أهمية القراءة المدققة لكتابات الآباء.. وفهم الخلفية التي كتبوا من خلالها.. والظروف التي كانت تحيط بالكنيسة آنذاك.. وطريقة تناولنا لأعمال الآباء.. وقراءة كتاباتهم أمر في غاية الأهمية.. فكيف نقرأ فكر الآباء.. وندرس تلك الوثائق الثرية التي تركوها لنا؟! وأود أن أشير إلى أهمية الدراسة الشاملة لفكر كل أب.. في إطاره التاريخي.. وفي إطار خلفية كل أب وموقفه الثقافي.. فلا نقوم بالاقتباس بجملة من هنا وجملة من هناك ونقول إنه رأي هذا الأب أو ذاك، بل لابد من القراءة الشاملة والمدققة هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى أود أن أوضح أن ثمة أفكارًا تناولها الآباء.. وكانت تعد رأيًا شخصيًا لكل منهم.. وفي ذلك نوع من الثراء.. فمثلاً بعض الآباء كانوا ضد استخدام الفلسفة في الدفاع عن المسيحية.. كالقديس إيريناوس، والقديس تاتيان، والقديس ترتليانوس.. بينما نجد أن بعضًا منهم مثل القديس كليمندس اعتبر أن الفلسفة عطية من الله، وأن استخدام الفلسفة أمر لازم لمواجهة هرطقة الغنوسية الزائفة.

والحقيقة التي نود أن نعرضها وتكون واضحة في ذهن الدارسين والباحثين من القراء أن الآباء لم يكن في نيتهم أن يكونوا فلاسفة أو كُتَّابًا.. بل كان جل همهم أن يكونوا كارزين وواعظين. وكانوا يتجاوبون مع القضايا والموضوعات التي كانت تشغل بال المؤمنين من المسيحيين في تلك الأوقات.

كذلك نجد أن الثقافة السائدة في كل كنيسة قد تركت آثارها واضحة على أساليب الآباء في تناولهم للتفاسير.. فبينما انتهجت كنيسة الإسكندرية المنهج المجازي أو الرمزي (كما يتضح من هذا الجزء الذي بين يديك).. فالعلاَّمة أوريجانوس -مثلاً- ذهب في رأيه إلى أن كل ما جاء بالكتاب المقدس له معى رمزي، لكن ليس كل ما جاء به له معنى حرفي.. بينما نجد أن آباء كنيسة أنطاكية بسورية (كما سيتضح من الجزء الثالث من هذه الموسوعة) يتبنون المنهج الحرفي فحسب في تفاسيرهم.

كذلك واجهت الكنيسة بكل حزم، كل انحراف خاطيء للمفاهيم الفكرية اللاهوتية، وكان ذلك من خلال المجامع المحلية والمسكونية. لذلك يجب الرجوع إلى المجامع وأعمالها لمعرفة رأي الكنيسة في شأن الموضوعات التي كانت محلاً للمناقشة وموضوعاً للبحث.

لقد تحمَّل الآباء -حقًا- عبء الريادة، بكل معاني الكلمة. سواء بما ابتكروه من مفردات لغوية جديدة

للتعبير عن الفكر اللاهوتي الجديد، أو من خلال إبداء آرائهم في العديد من القضايا والموضوعات التي عُرضت عليهم.

وفي الختام أود أن أشير إلى أن الجزء الأول قد احتوى على العديد من الموضوعات، لن نعود لنذكرها مرة أخرى لعدم التكرار، وذلك عند الحديث عن كل كنيسة ، لذلك قد يلزم الرجوع إلى بعض الأجزاء متى أُشير إلى ذلك.

وكما جاء في الجزء الأول، فإن ثمة مواد قد وضعت في خلفية مختلفة، ونذكِّر بأنها ليست جزءًا من السرد أو السياق. فضلاً عن تزويد المادة بالخرائط والصور، متى أمكن ذلك، بُغية المزيد من التوضيح.

وإذ أشكر إلهي الذي منحني هذه الفرصة، وأعانني على إنجاز هذا الجزء من الموسوعة. أقدم الشكر لكل من ساهم فيه بجهده، ليكون على النحو الذي بين أيدينا.

وغاية ما أرجو، أن يرسل القاريء إلينا بملاحظاته الإيجابية التي تثري هذا العمل، حتى يمكن تضمينها -متى لزم- في الطبعات التالية بإذن الله، لتصدر كما ينبغي أن تكون عليه..

ونحن في ثقة أنك سوف تجد في هذا العمل زادًا فكريًا، وثروةً علميةً تعكس مكانة الكنيسة عبر عصورها..

وإلى اللقاء مع الأجزاء التالية بإذن الله،،

عادل فرج عبد المسيح

adelfgeg@hotmail.com

المحتويات

صفحة

الباب الأول:

كنيسة الإسكندرية

أولاً: الخلفية التاريخية

الباب الأول　**الفصل الأول**

نشأة الحضارة والدين والأخلاق في مصر القديمة

مصـــــــر

أ- بزوغ فجر الحضارة

ب- الدين والعقيدة في مصر القديمة

جـ- مكانة الأخلاق في مصر القديمة

د- اختراع الكتابة وظهور اللغة القبطية

هـ- الدين في مصر بين الفرعونية والمسيحية

تمهيد

في الوقت الذي كانت تنعم فيه مصر القديمة بنور المعرفة، كان الظلام يحيط بالعالم. وبينما كانت الحضارة الراسخة تعلن عن نفسها فيما وصل إليه بُناة الأهرام من معرفة في مجالات الزراعة والهندسة والفلك والتحنيط.. وغيرها - ومازال كثير منها تغيب عنا أسراره- كان الجهل وظلام الفكر والتخبط في الحياة البدائية من بين أكثر ما يميز سائر الشعوب في ذلك الوقت.

وليس أدل على مقدار ما وصلت إليه مصر قديماً من تقدم ومن معرفة مما ذكره العهد الجديد عن موسى وما وصل إليه من حكمة قد تعلمها في مصر، وقد عبَّر الكتاب عن ذلك قائلاً: "فتهذب موسى بكل حكمة المصريين" (أعمال ٧:٢٢).

وفي الصفحات القادمة نستعرض كيف نشأت الحضارة والدين والعقيدة ومكانة الأخلاق في مصر القديمة، والأسباب التي أدت إلى التمهيد للمسيحية.. لنرصد -في اختصار- أبرز خصائص وإسهامات مصر لعلها توضح خصوصيتها وتفرد دورها في الفكر الإنساني بل وفي إسهاماتها اللاهوتية متمثلة في مدرسة الإسكندرية وآبائها.. وأثرها البالغ في الفكر اللاهوتي.

ويعبر القديس كليمندس، من آباء الإسكندرية، عن خصوصية مصر وتفردها في الفكر، إذ يذكر في كتابه المتنوعات أن لمصر فلسفتها الخاصة بها (المتنوعات ٦:٢:٣٥). وأن فلاسفة اليونان ليسوا بأقدم

من فلاسفة مصر (المرجع السابق: ١: ٧١:١٥). كما أن بعض فلاسفة اليونان: طاليس وفيثاغورث وأفلاطون قد تتلمذوا على يد المصريين. (القس أثناسيوس اسحق: مصر فكر الآباء ص ٣٧).

جمهورية مصر العربية

العاصمة: القاهرة

العلم: ثلاثة ألوان: الأحمر، الأبيض، والأسود ونسر ذهبي يتوسط اللون الأبيض.

السكان: بلغ تعداد السكان ٦٦ مليوناً و ٥٠ ألف نسمة في ٢٠٠٠ .

المساحة: مليون كيلو متر مربع، يعيش السكان في مساحة ٥٥ ألف كيلو متر مربع منها، وهي تمثل ٥,٥٪ من المساحة الكلية.

الموقع الجغرافي: تقع في الطرف الشمالي الشرقي من أفريقيا، إلى الشمال يقع البحر المتوسط، إلى الجنوب تقع السودان، إلى الشرق يقع قطاع غزة وإسرائيل والبحر الأحمر، وإلى الغرب تقع ليبيا.

حدود مصر: تقع بين خطي عرض ٢٢° حتى ٣١,٥°، ويمر بالقاهرة خط طول ٣٠° شرقاً.

الحدود البرية الجنوبية: ١٢٨٠ كم

الحدود البرية الغربية: ١٠٩٤ كم

الحدود البرية الشرقية: ٢١٠ كم

الحدود البحرية الشرقية: ١٤٥٠ كم

الحدود البحرية الشمالية: ٩٥٠ كم

مجموع الحدود البرية والبحرية: ٤٩٨٤ كم

النيل: يبلغ طول نهر النيل من حدود مصر الجنوبية وحتى البحر المتوسط نحو ١٥٣٨ كم

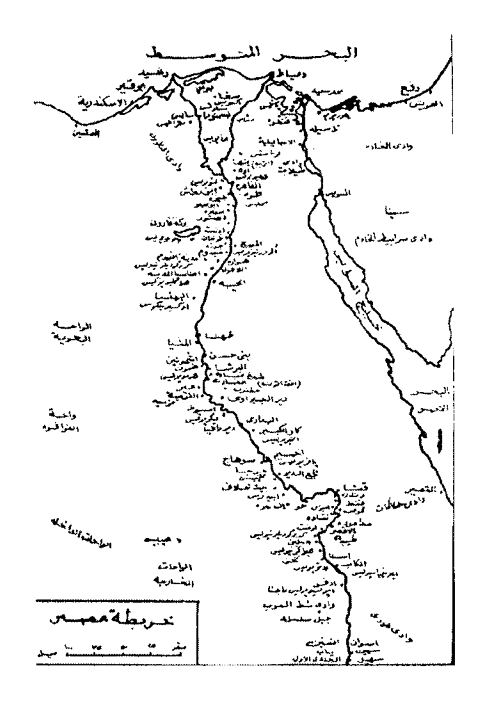
اللغة: اللغة العربية اللغة الرسمية، وتستخدم الإنجليزية على نطاق واسع في الدوائر التجارية.

- (راجع شخصية مصر: جمال حمدان)
- (شبكة الإنترنت: قناة المعلومات)

أ- بزوغ فجر الحضارة

للنيل سحره الخاص في نفوس المصريين.. وكيف لا يكون للنيل هذا السحر وإليه يُنسب فضل الحياة في هذه البقعة من الصحراء الجرداء القاحلة... "فنحن دولة الصحراء الأولى في العالم بمثل أننا دولة النهر الأولى.." (د. جمال حمدان: شخصية مصر). "فلولا النيل لكانت تلك الأراضي المزروعة التي يعيش عليها أكثر السكان صحراء مثل تلك التي على يمينها ويسارها" (د. أحمد فخري: مصر الفرعونية).

هذا النيل الذي يتدفق من الجنوب، والذي لم يكن يعرف القدماء مصدره، هو أطول أنهار العالم



إذ يبلغ طوله بأكمله نحو ٦٧٠٠ كيلومتر منها ١٥٣٠ كيلومتراً في الأراضي المصرية، ويبدأ عند خط عرض ٣٥ درجة جنوبي خط الاستواء ويتجه شمالاً على بعد ٣١,٥ درجة شمالي خط الاستواء.

وحوض النيل يبلغ ٢,٩٠٠,٠٠٠ كيلومتر مربع (المرجعان السابقان).

كان القدماء يبجلون النيل بل يقدسونه، "فكانوا يقدمون للنيل بعض اعتبارات كالعبادة ويسمونه "حعبي" أو "حابي" أي "الإله المقدس".. كما ذُكر في كتاب الموتى. "إن النيل مولود من "رع" أي الشمس، أكبر الآلهة عند قدماء المصريين" (أنطون زكري: النيل في عهد الفراعنة والعرب).

لقد أُطلق على مصر "كيمي".. أي الأرض السوداء" إشارة إلى الطمي الذي يغمر الأرض وقت الفيضانات، والذي يمنحها خصباً لا نظير له.

(سير ألن جاردنر: مصر الفراعنة: ترجمة د. نجيب ميخائيل إبراهيم).

النيل- الأنهار

ثمة محاولات كثيرة للوصول إلى معنى كلمة "النيل"، ولم يتفق المؤرخون والباحثون على معنى واحد لها.. إلا أن المعنى الذي يمكن ترجيحه هو أن كلمة "نيل" بالديموطيقية (ن-ال) وتعني النهر، حيث حرف "ن" أداة التعريف للجمع المذكر، و "ال" معناه النهر.. فاسم النيل عند المصريين القدماء يدعى "ار" أو "ال" الذي اشتق منه المعنى الديموطيقي بلفظ "ال"، ولكنهم استخدموا الكلمة الديموطيقية (ن-ال-و) أي الأنهار حيث حرف "و" علامة الجمع. ومن كلمة "نيلو" اشتقت الكلمة اليونانية "نيلوص" (Nilos) حيث حرف "ص" هو الحرف السادس عشر من الأبجدية اليونانية. (راجع أنطون زكري: النيل في عهد الفراعنة والعرب).

بحيرة حور:

أُطلق على النيل قديماً اسم شيحور، وهي كلمة مصرية قديمة مركبة من كلمتين: الأولى (شي) وتعني بحيرة، والثانية: (حور) وتعني المعبود وهو إله الإقليم الرابع عشر بالوجه البحري الذي كان

يطلق عليه هذا الاسم، وكان يطلق أيضاً على هذا الجزء من النهر، الواقع في ذلك الإقليم، ثم أطلق على النيل كله. فكلمة شيحور إذن تعني "بحيرة حور" وفي الترجمة السبعينية التي أُنجزت في الإسكندرية (راجع مادة الإسكندرية في موضعها من هذا المجلد). ترجم أحبار اليهود كلمة "شيحور" بكلمة "النيل" ويوضح هذا أن القدماء أدركوا أن كلمة شيحور هي نفس كلمة النيل (المرجع السابق).

حقاً إن للنيل فضل الحياة والحضارة التي بزغت في هذه البقعة من الأرض.. وحقاً ما يقوله عاشق مصر جمال حمدان: "إن مصر ستظل في التحليل الأخير هي النيل" (شخصية مصر). وإذ كان للنيل هذا الأثر العظيم فإن لطبيعة أرض مصر أيضاً أثرها العظيم في تاريخها، فتاريخ أي شعب يرتبط ارتباطاً كبيراً بطبيعة أرضه، ولهذا دعنا نلقي نظرة على طبيعة الأرض المصرية لنعرف مدى أثرها على حضارة تلك البلاد، إذ أن لطبيعة الأرض أثراً عظيماً على تطور حضارتها وهي كما يذكرها د. أحمد فخري تتكون من سبع مناطق جغرافية هي:

١- وادي النيل، بما فيه الدلتا والصعيد.

٢- محافظة الفيوم.

٣- منطقة قناة السويس.

٤- الصحراء الغربية.

٥- الصحراء الشرقية.

٦- شبه جزيرة سيناء.

٧- جزر البحر الأحمر.

(د. أحمد فخري: مصر الفرعونية ص ٣٢- مع تصرف في الأسلوب).

ويُشَبِّه سير ألن جاردنر مصر بنبات البردي الذي يمثل وادي النيل فيه الساق أما الدلتا فبمثابة الزهرة كما أن منخفض الفيوم هو البرعم. (سير ألن جاردنر: مصر الفراعنة ص ٤٣).



صورة لنبات البردي

النيل والشخصية المصرية

عاش إنسان ما قبل التاريخ معتمداً على ثمار الأشجار القليلة المتناثرة في الصحراء بفعل الأمطار، وعلى صيد الحيوانات والطيور، كما

اعتمد الإنسان الذي عاش بالقرب من النيل على صيد السمك. وهكذا كان الإنسان آنذاك رحالة يبحث عن غذائه الذي استلزم تنقله الدائم. إلا أن ملاحظته أن الأرض تنبت وتأتي بالثمار بعد موسم فيضان النيل في كل عام، جعلته يكتشف الزراعة،



صورة للإله حابي إله النيل

"فما كانت تفعله الطبيعة بالزراعة تلقائياً، أصبح الإنسان يفعله صناعياً. لقد علم النيل المصريين الزراعة والري (شخصية مصر)، وهكذا تحول الإنسان من جمع الغذاء إلى إنتاجه. ومن ثم بدأ ارتباطه بالأرض ليراعي زراعته، فبدأ يعرف طريقه إلى الاستقرار والعيش في جماعات وفي قرى صغيرة.. وهكذا بدأ المصري خُطاه نحو المدنية، وكان لذلك أثره في شخصية المصري كما يقول دكتور جمال حمدان.. "فالواقع أن النيل بما منح مصر من حياة مستقرة ومتجددة معاً، ومن غنى ومن وفرة مع ترف وجمال، وبالتالي من أمن وطمأنينة مع تفاؤل بالمستقبل، وثقة بالنفس ربما جنح بهم إلى قدر من غرور فأوحى إليهم أنهم أكرم عنصراً وأرقى معدناً ممن حولهم من أفريقيين وآسيويين ومن صحراويين ورعاة ومن أجانب وبرابرة ولكن دون أن تصل إلى حد الاستعلاء والعنصرية مع ذلك على الإطلاق" (شخصية مصر- مرجع سابق).

وهكذا تحفر طبيعة مصر ونيلها أثراً قوياً منذ العصور القديمة على شخصية الإنسان المصري...



تقويم عبري لمواسم الزراعة

ويلعب النيل دوراً كبيراً أيضاً في الربط بين تلك "المجتمعات" التي نشأت على جانبيه وبامتداده، ويقول في ذلك عالم الآثار جيمس هنري برستد: "لم يكن هنا سبيل لاتحاد أقسام القطر اللهم إلا نهر النيل الذي سهّل المواصلات والتعاون بالرغم من بُعد المسافة بين أقسامه، فنهر النيل هو السبب

الأعظم لتوطيد العلاقة بين سكان مصر وضمان سيادتهم ورفاهيتهم وعليه الاعتماد في انتقالهم وترويج تجارتهم" (برستد: تاريخ مصر: ترجمة د. حسن كمال).



منظر للحصاد من قبر مينا، به رجلان مع كل منهما مذراة يذريان حبوب القمح من طينة من نحو ١٤٠٠

الثورة الزراعية

"إن الري والزراعة عُرفت لأول مرة بمصر، وبالتالي الحساب والهندسة وأوجه القمر والشمس والنجوم.. إلخ" (شخصية مصر: مرجع سابق). كما عرفت مصر الزراعة المتطورة ولم تنقلها عن بلاد أخرى، وكما يقول د. جمال حمدان: "الذي لا شك فيه أن الزراعة، إن لم تكن قد ولدت بالفعل في تربة النيل وأحضانه وعُمدت لأول مرة بمياهه، فإن مصر كانت بأي مقياس من البلاد الرائدة السبّاقة إلى تأصيل الثورة الزراعية وإقامة أسس حضارة العصور القديمة التي فاجأت العالم بها، مكتملة أو شبه مكتملة مع بداية عصر الأسرات. لقد أعطت مصر العالم دولته الأولى بالقطع، وثورته الزراعية الأولى وثورته المدنية الأولى على وجه الاحتمال عدا سلسلة مطولة من الأولويات الأخرى على وجه اليقين، والسبق الحضاري إذن سمة أصيلة من سمات شخصية مصر التاريخية- من هنا جاءت تلك الكُنية الشهيرة عن المصريين اليوم "أم الدنيا" وإذا نحن قسمنا الأقاليم -كالدول- إلى موجبة وسالبة، فلقد كانت مصر دائماً إقليماً موجباً بقوة، وشخصية مشعة منذ البداية" (شخصة مصر جـ٢ ص ٤١٢).

النيل هبة مصر ومصر هبة المصريين

كما أن للدكتور جمال حمدان مقولة أخرى وهي أن "مصر هبة المصريين" مُركزًا على ما بذله المصري من جهد شاق في تغيير الوادي فيقول موضحًا ذلك:

الواقع أن المصريين الذين عاشوا في الوادي بذلوا جهداً كبيراً من أجل إعماره وجعله صالحًا للسكنى إذ وجدوه في صورته البدائية "إذ وجدوا بيئة بدائية لا تصلح للسكنى والاستغلال في شكل مستنقعات وبرك وأدغال وآجام ونبات وحيوانات برية، وكان عليهم أن يغيروا هذا كله بالجهد الشاق والعمل الجماعي المضني المتصل في تطهير النبات والحيوان وشق المصارف والترع، ومجابهة أخطار الفيضان أو الجفاف وضبط النهر، لقد كان على

المصري أن يكون حفَّاراً قبل أن يكون زارعاً، وكان عليه أن يحول اللاند سكيب (Land Scape) الطبيعي إلى لاند سكيب حضاري "بالدم والعرق" كما يعبر تشايلد وفي كلمتين: بغير الري، بغير الإنسان المصري، فإن مصر الوادي هي إما مستنقع هائل أو صحراء كاملة" (شخصية مصر ص ٤٤٩) مصر إذن هي هبة الإنسان المصري أي هبة المصريين.

"مصر أم الحضارة"

كذلك أدرك المصري قديماً أن السنة الشمسية تتكون من ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، وذلك في نحو سنة ٤٢٤١ ق.م. (برستد -مرجع سابق).

للإنسان المصري إذن دوره الواضح في تأسيس حضارة عريقة منذ أن وطأت قدماه أرض الوادي. وكذلك للنيل بنظامه وفيوضه التي تحمل معها الخصب، دوره الأكيد في نشأة المدنية.. ولمصر كل الحق في أن تكون "أم الحضارة" (شخصية مصر: مرجع سابق).

وفي الوقت الذي عاشت فيه مصر حضارتها التي أنشأتها في نحو الألف الرابع قبل الميلاد، كان العالم القديم يموج في ظلمة حالكة. فقد عرفت مصر "الحكم" و "الإدارة" قبل البلاد الأخرى.. وكما يذكر برستد في كتابه فقد نشأت في مصر مملكتان عظيمتان.. إحداهما بالوجه البحري.. والأخرى بالوجه القبلي حيث كانت تعرف مصر بأرض القطرين، وقد وحد مينا القطرين (أي الشمالي والجنوبي) في سنة ٣٤٠٠ ق.م. واعتبر المؤرخون أن عهد الملك مينا مؤسس الأسرة الأولى المصرية هو بداية عصر الأسر الملكية، ونهاية عصر ما قبل الأسر.. وكانت حكومة الملك مينا منظمة وعريقة وأن إدارة البلاد في فجر المملكة القديمة- وتقترب مدتها من أربعة قرون - كانت مقرونة بالكثير من الاحترام والهيبة نحو ملك البلاد من جميع أفراد الرعية. (برستد: تاريخ مصر).

تقسيم التاريخ إلى أسرات

لقد قسَّم المؤرخ المصري القديم مانيتو وعصور تاريخ مصر تقسيماً عرفياً مبتدئاً من العصر التاريخي وأطلق على هذه الأقسام الأسرات المالكة. ويذكر برستد أن مانيتو كان من سمنود، عاش في أيام بطليموس الأول الذي حكم مصر، وأنه وصف تاريخاً عن مصر باللغة اليونانية، لكن لم تصل إلينا منه سوى مقدمته التي نقلها يوليوس أفريكانوس، ويوسابيوس ولخصها يوسيفوس. وتاريخ مانيتو قائم على روايات عامية، وخرافات متداولة آنذاك خاصة بقدامى الملوك. وقد قسَّم مانيتو تاريخ مصر إلى ثلاثين أسرة ملكية.

ومع أن هذا التقسيم اصطلاحي، وأنه كثيراً ما حصل نزا ع بين ملوك الأسر اعتبرهم هذا المؤرخ أسرة واحدة، إلاَّ أن تقسيمه ساعد كثيراً على فهم تاريخ مصر القديمة. (برستد: تاريخ مصر).

ب- الدين والعقيدة في مصر القديمة



صورة عابد في مصر القديمة

ارتبط الإنسان منذ القدم بالطبيعة.. وكانت ثمة كثير من الظواهر والغوامض التي لم يستطع أن يعرف أسرارها أو يكتنه غوامضها أو يفك طلاسمها.. فبزوغ الشمس وغروبها.. الرياح.. الأمطار.. الفيضان.. النباتات في مراحل نموها المختلفة.. الحيوانات، واختلاف الليل والنهار.. فصول السنة.. هذه كلها وقف الإنسان عاجزاً حيالها.. ومن ثم اتخذ منها رموزاً للقوة وللخلق هكذا كان الدين مفسراً لتلك الرموز والأسرار التي يزخر بها الكون من حول الإنسان. "ولما كانت الزراعة الحرفة الرئيسية لسكان وادي النيل الخصيب ظهر هؤلاء القوم زراعيين ماهرين وتديَّنوا بديانة مملوءة بروح الزراعة". (برستد: مرجع سابق).

وقد عرف الفراعنة عبادة الشمس.. التي تستلزم قدراً من الثقافة العلمية والأدبية لا تتيسر للأديان البدائية. وكما سبق أن قلنا كان المصري القديم متقدماً في علوم الهندسة والفلك.. وسبَّاقاً في إدراك أن السنة الشمسية يمكن تقسيمها إلى ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً.. "وقد وصل الإنسان إلى عبادة الشمس حين قامت له دول وحضارات فتلاقت حوله جميع الطرق مجتمعة في طريق التوحيد الصحيح" (عباس محمود العقاد: في كتابه: الله).

تعددت الآلهة في ربوع مصر القديمة وانتشرت.. وعرفت مصر التشيع المقدس كما يقول برستد.. وشاهد هذا التشيع ممثلاً بشكل من

الأشكال في كل معبد من المعابد المصرية. ثم انتشرت فكرة التثليث -وسوف نعود لها مرة أخرى- بين المعبودات على توالي الزمن وأصبح لكل مكان بالقطر ثالوث ثانوي مقدس (راجع برستد: مرجع سابق). ثم عرفت مصر بعد ذلك التوحيد الذي دعا إليه الملك إخناتون (الأسرة الثامنة عشرة: ١٥٨٠: ١٣٥٠ ق.م.) الذي قام بثورة دينية عظيمة على عبادة الأصنام. (برستد: المرجع السابق).

وثمة رأيان فيما يتعلق بمرحلة الوحدانية.. فالرأي الأول: يرى أن الوحدانية التي دعا إليها إخناتون لم تكن إلا مرحلة وقتية ولم تستمر فيما بعد.. ويذكر صاحب "الأثر الجليل لقدماء وادي النيل" ما يؤكد الرأي الثاني وهو "أن المصريين كانوا أمة موحدة تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وهو قول المؤرخ (بورفير) وغيره. كذلك يذكر ما قاله هيرودوت المؤرخ: "أهل طيبة كانوا يعبدون الله وحده ويقولون هو الأول والآخر الحي الأبدي السرمدي". أما (چامبليك) فيقول: "إنه سمع من كهنة مصر أنفسهم أنهم يعبدون الله وحده فاطر السموات والأرض رب كل شيء وهو المالك لكل شيء الخالق لكل شيء الذي لم يُخلق ولم يتجزأ ولا تراه العيون، يعلم ما تكنه الضمائر وما تخفيه الصدور وهو الفاعل المختار لكل شيء وفي كل شيء"، إلى أن قال "أما ما نراه من كثرة المعبودات فجميعها رمز يرجع إليه وحده بمعنى أنها تدل على ذاته العلية وصفاته الأزلية، وهذا هو اعتقاد كهنة مصر كما هو مدون في كتبهم المقدسة. أما شامبليون فيچاك المؤرخ فيؤكد على "أن المصريين كانوا أمة موحدة لا تعبد إلا الله ولا تشرك به شيئاً غير أنهم أظهروا صفاته العلية إلى العيان مشخصة في بعض المحسوسات وأنهم لما غرقوا في باب التوحيد علموا أبدية الروح وأيقنوا بالحساب والعقاب.." (راجع حضرة أحمد أفندي نجيب: الأثر الجليل لقدماء وادي النيل).



أخناتون في أثناء العبادة

وما يمكننا أن ننتهي إليه هو تغلغل وتجذر الشعور الديني القوي عند المصري قديماً..

جـ- مكانة الأخلاق في مصر القديمة

لا شك أن لكل حضارة قيمًا وأخلاقًا من إفراز بيئتها، تعكس جوهرها. فلكل حضارة نسق من القيم يميزها عن كل حضارة سواها.

المحاكمة في الآخرة عند الفراعنة

كان ثمة اهتمام كبير بالضمير الأخلاقي في مصر القديمة، والسلوك طبقًا له، والتصرف بمقتضاه. "فكان شعارهم الأساسي الذي رفعوه طوال عصورهم هو التصرف وفقاً للعدالة والنظام" (د. مصطفى النشار: مجلة الجمعية الفلسفية العدد الأول).

ويظهر ذلك جليًا في المحاكمة التي يعقدها اثنان وأربعون إلهًا (على أساس إله يمثل كل إقليم من أقاليم مصر)، وعلى المتوفي أن يثبت أنه لم يرتكب في حياته إثمًا قط.. وتنعقد المحاكمة برئاسة أوزيريس–حيث ينتظر المتوفي أمام ميزان ضخم ويقف بجواره "تحوت" و "الملتهمة الكبرى" وهي حيوان خرافي، مكون من نصف أسد ونصف تمساح، ويمثل قلب المتوفي بإناء صغير يوضع على إحدى كفتي الميزان. أما الكفة الأخرى فيوضع عليها صورة الإلهة "ماعت" جالسة فوق سلة. فإذا مال ذراع الميزان من أحد جانبي اللسان، قضي على المتوفي وسلم إلى "الملتهمة الكبرى". أما إذا خرج منتصراً من عملية "وزن القلب" فيقف في حضرة "أوزيريس" الذي يستقبله ليضمه إلى الأبرار. (نيقولا جريمال: تاريخ مصر القديمة).

والمطلوب من المتوفي في تلك المحاكمة أن يثبت أنه قام بمهمته في الدنيا خير قيام. أي لا يكون قد أهمل في واجباته أو عرَّض المجتمع للمخاطر بأي شكل من الأشكال وذلك من خلال ما يعرف "بإعلان البراءة". وعلى هذا الأساس قامت أخلاق المجتمع:

"إني لم أكن جائراً على بشر.

إني لم أعامل الناس بالسوء.

إني لم أرتكب خطيئة في "مكان الحق".

إني لم أحاول معرفة ما لا ينبغي معرفته.

إني لم آت شراً.

إني لم أستهل يومي بالحصول على عمولة من جانب من يعملون لحسابي، ولم يصل اسمي إلى وظيفة رئيس عبيد.

إني لم أسب الإله.

إني لم أسلب إنساناً ممتلكاته.

إني لم أرتكب ما يمقته الآلهة.

إني لم أتسبب في ألم.

إني لم أترك شخصاً يتضور جوعاً.

إني لم أدفع شخصاً إلى البكاء.

إني لم أقتل.

إني لم آمر بالقتل.

إني لم أتسبب في تعاسة شخص.

إني لم أنتقص من تقدمات المعابد الغذائية.

إني لم أدنس خبز الآلهة.

إني لم أغتصب قرابين الأبرار.

إني لم أرتكب لواطاً.

إني لم أزْنِ في الأماكن المقدسة لإله مدينتي.

إني لم أقتطع من المكيال.

إني لم أغش في الأراضي.

إني لم أطفف الميزان.

إني لم أغش الموازين.

إني لم أغتصب اللبن من فم الرضيع.

إني لم أحرم الماشية من مرعاها.

إني لم أنصب الشباك لطيور الآلهة.

إني لم أصطد سمكاً من بحيراتهم.

إني لم أحبس الماء زمن الفيضان.

إني لم أضع سداً أمام المياه المتدفقة.

إني لم أطفيء ناراً متأججة.

إني لم أبطل الأيام المخصصة لتقدمات من لحم.

إني لم أبعد القطعان المخصصة لطعام الآلهة.

إني لم أعترض طريق الإله عند خروجه في موكبه.

(نيقولا جريمال -تاريخ مصر القديمة ص ١٩٣- ١٩٥).

لقد اشتهر بتاح حوتب بحكمه وتعاليمه الأخلاقية، وهو يعد أول كاتب أخلاقي في تلك العصور. وفي تقدير برستد أنه عاش في نحو عام ٢٧٠٠ ق.م. أو في نحو عام ٢٥٠٠ ق.م. في تقدير إرمان، ويتفق مع الأخير في الرأي جريمال الذي يرى أنه جاء مع حلول الأسرة الخامسة. وكان يعمل كبيراً للوزراء في عصر الملك أسيسي (من ملوك الأسرة الخامسة).

وترجع قصة هذه التعاليم، إلى أن الوزير شعر بتقدمه في العمر، فطلب من الملك أن يسمح له

بتعليم ابنه ليكون قادراً من بعده على حمل أعباء المسئوليات الحكومية.. وكان أن وافق الملك.. فظهر الكتاب الذي يحمل عنوان "مخطوط الحكمة" أو "الحكم والنصائح". وأصبح الكتاب في عهد الدولة القديمة وما بعده معيناً للحكم والتعليم، وجعلوا منه أساسًا لأصول التربية والسلوك (راجع د. مصطفى النشار: مرجع سابق).

احتوى مخطوط الكتاب على ثلاث وأربعين أو أربع وأربعين لوحة.. وتُعرف ببردية بريس Papyrus prisse. وفيها يقدم آراءه في المعرفة والفضيلة السياسية، والخطابة والجدل والأخلاق. ويقدم لابنه النصح بأن يكون متواضعًا وألاَّ يتعالى على الآخرين بسبب المعرفة فيقول: "لا تكن متكبراً بسبب معرفتك ولا تثق بأنك رجل عالم، فشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها وليس هناك عالم يسيطر على فنه تماماً. وأن الكلام الحسن أكثر احتفاءً من الحجر الأخضر الكريم. ومع ذلك تجده مع الإماء اللائي على أحجار الطواحين".

كما يقدم له نصيحة فيما يتعلق بمعاملته لزوجته.. وهي توضح التقدير الرفيع الذي كان المصري القديم يقدره للزوجة إذ قال: "إذا تزوجت امرأة فلا تعنفها بل دعها منشرحة الصدر أكثر من نساء بلدها، فإنها تستقيم كثيراً إذا كان الحبل لها ليِّنا. ولا تنفرها، بل قدم لها ما تستحسنه إذ بسرورها تدبر الأمور". (المرجع السابق).

ظهور اللغة القبطية

اخترع المصريون القدماء الكتابة والقراءة منذ خمسة آلاف سنة، وقد سجل بعد ذلك بنحو ألف سنة كُتَّاب الأسرة الخامسة أسماء ملوك الوجه البحري وبعض ملوك الوجه القبلي ممن يرجع تاريخهم إلى ما قبل عصر الأسر. ونسخوا أيضاً عدة نصوص دينية من كتاب الموتى. (برستد: مرجع سابق).



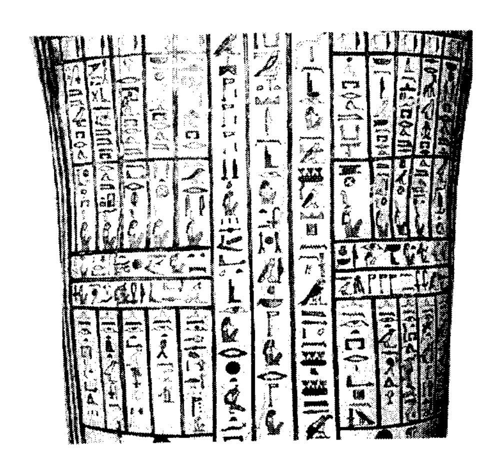
كاتب مصري يجلس القرفصاء

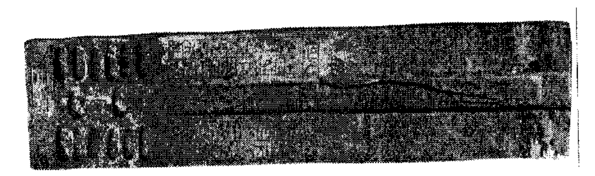
كان لاختراع الكتابة أثره في نشر العلوم والآداب في العالم القديم، حيث كانت الكتابة تتم على ورق البردي "ونحن نعرف أنه منذ الأسرة الرابعة.. وقد عرف المصريون التخصص في فروعه، فكان هناك أطباء متخصصون بالعيون وآخرون مختصون بالأمراض الباطنية. كما استطاع أطباء الأسنان أن يقوموا بإجراء بعض

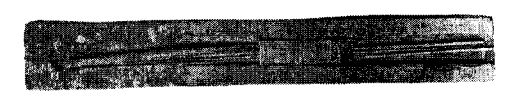
العمليات الدقيقة في الأسنان. وكان لاختراع المصريين لورق البردي واستخدامه في الكتابة أثر كبير في تقدم العلوم إذ حرص المصريون منذ الدولة القديمة على عمل نسخ من المؤلفات الهامة في مختلف العلوم والاحتفاظ بها، فضلاً عن استخدامه في رسائلهم وأعمالهم الإدارية" (راجع د. أحمد فخري: مصر الفرعونية).

ثمة مراحل مؤثرة في تاريخ الحضارة القديمة، ومنها ما يتصل بالكلام والكتابة. فاستخدام الأصوات الواضحة يسَّر الاتصال بين الناس وبعضهم البعض حيث تبادلوا الأفكار وعبَّروا عن الرغبات والاستفسارات. وكانت الكتابة التي قامت على الأساس نفسه بديلاً مرئياً للعلامات المسموعة، وهكذا وسَّعت الكتابة من نطاق اتصالات الإنسان في المكان والزمان. (سير ألن جاردنر: مصر الفراعنة).

كان ثمة اتصال مرئي استخدم فيه زخارف الأواني والأشياء الأخرى الجاري استعمالها والتي تتضح على نحو أفضل فيما استخدموه من صور الناس والحيوانات والمراكب. وقد بدأت الكتابة عندما أضيفت علامات مرئية أجبرت تمامًا على الترجمة إلى أصوات اللغة. ويرى سير ألن جاردنر أن ظهور الهيروغليفية -كما تسمى العلامات الصغيرة- يرجع إلى أن هناك الكثير مما أراد الناس أن ينقلوه كالأعداد وأسماء الأعلام والمظاهر العقلية، ولكن لم يكن ممكنًا إظهاره مرئيًا. (المرجع السابق).







كتابة هيروغليفية من عصر الأسرة الليبية (الأسرتين ٢٣،٢٢) في القرن الثامن قبل الميلاد

ظهرت ثلاثة أنواع مختلفة من الكتابة المصرية ليس قبل ظهور المسيحية بكثير. وهي الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية، وكان لكل منها استخداماتها حيث تبودل استخدامها في أغراض شتى. ويشير القديس كليمندس السكندري إلى

معنى كلمة هيروغليفية في كتابه: (Rec Trav 33:8) وهي تعني حرفياً النقوش المقدسة حيث استخدمت في العصور المتأخرة كلية -في غالب الأمر- في النقوش المحفورة على جدران المعابد. ومازلنا نطلقها على كل الكتابة المصرية التي تتكون من

هيروغليفية

هيراطيقية

ديموطيقية

الأنواع الثلاثة للكتابة في مصر القديمة
(ص ٣٤ مصر الفراعنة)

صور. أما الهيراطيقية فهي اختزال للخط الهيروغليفي، وهي قديمة قدم الهيروغليفية، وتطلق على أسلوب الكتابة الذي يمارسه الكتَّاب من الكهنة في كتبهم المقدسة. إلاَّ أن استخدام هذا الاصطلاح انسحب أيضاً على أنواع من الاختزالات في الكتابة ويغلب عليها التشبيك.. وكان اتجاه الكتابة عادة من اليمين إلى الشمال. أما النوع الثالث فهو الذي أطلق عليه هيرودوت ديموطيقي (أي شعبي) بينما يسميه القديس كليمندس "ابيستولوجرافي" (أي كتابة الخطابات) وهي التي تظهر على حجر رشيد وتسمى "انكوريال" (أي وطني)، وهي تطور للهيراطيقية وذلك نحو سنة ٧٠٠ ق. م. وبمقابل الميزات الكثيرة التي تقدمها، فإنها في الوقت ذاته تتطلب دراسة متخصصة متعمقة. وكانت هي الشائعة في الحياة اليومية في العصر البطلمي والعصور الرومانية، وكانت توصف بأنها غير دينية (سير ألن جاردنر: مصر الفراعنة).

وعندما أشرقت شمس المسيحية في مصر.. بدأت الديانة المصرية القديمة في الغروب والأفول.. وظهرت الحاجة ماسة إلى وسيط -كما يقول سير ألن جاردنر- أكثر سهولة لفهم ترجمة الكتاب المقدس، وكان هذا هو سبب ظهور اللغة القبطية كآخر مظهر للغة المصرية. وكانت تكتب بحروف يونانية إلى جانب بعض حروف قليلة من الديموطيقية. (المرجع السابق).

وقد ظهرت الكتابة القبطية باستخدام الأبجدية اليونانية، بعد دخول اليونانيين البطالمة إلى مصر بإضافة سبعة حروف من الديموطيقية لتمثيل الأصوات القبطية التي لا يوجد ما يمثلها في الحروف اليونانية.. والكتابة القبطية هي الوحيدة -بين صور الكتابة المصرية- التي تسجل الحروف المتحركة، فتعطينا فكرة دقيقة من طبيعة نطق الكلمات المصرية. وبالتالي فإنها توضح اللهجة

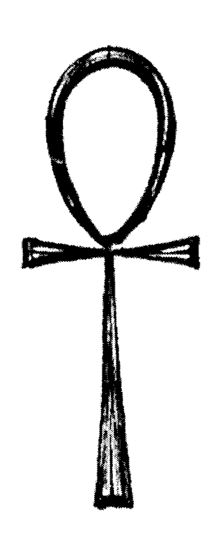
المكتوبة بها.. (تاريخ اللغة القبطية والتحدث بها: القس شنوده ماهر اسحق).

هـ- الأسباب التي أدت إلى سرعة قبول المسيحية

عُرف المصري قديماً بعقليته المتدينة بالطبيعة والتنشئة. فتبجيله العظيم للآلهة في الأساطير القديمة لا يباريه سوى تبجيل الله عند المسيحيين والمسلمين في العصور التالية. وكانت لديه رغبة في المعرفة الدينية قادته إلى الإعلان عن الكثير من الأمور ذات الدلالات الدينية الهامة. ويبدو ذلك واضحاً في الفترة الانتقالية بين معتقدات الديانة القديمة والمسيحية. إن تآلفه على الأفكار الرئيسية في الديانة القديمة قد أعدَّ ذهنه لقبوله عقيدة الآخر بدون صعوبة كبيرة أو ألم روحي (د. عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية).

وعلى سبيل المثال فمسألة الحياة بعد الموت، مسألة لها أهميتها في التعليم المسيحي، فقد كانت هي لُب وجوهر الفكر المصري قديمًا، وفي الحقيقة كانت عنصراً جوهرياً في تنمية الحضارة المصرية.

ولهذا السبب برع المصريون في الرسم وصناعة التماثيل. فتميزوا ببناء المقابر، الأهرامات، والمعابد باهتمام شديد وبنيت بقوة وصلابة لتواجه أهوال الزمن.



مفتاح الحياة لعنخ

لقد أدى انحطاط نوعية الأساطير القديمة في العصر المصري المتأخر بالإضافة إلى تزايد الخرافات والسحر والتنجيم إلى ضعف الديانة المصرية القديمة. وكان لليونانيين دور في الديانة المصرية القديمة. فقد قاموا بجهد من أجل توحيد الشرق بالغرب تحت حكمهم. فقد حاول البطالسة إعادة صياغة الديانة القديمة إلى نموذج مشترك يقبله كل من اليونانيين والمصريين. وكان ذلك من خلال مراحل طويلة ومعقدة للتوفيق بين كثير من العناصر الجوهرية لكل منهما. والمثال الذي نضربه على ذلك هو الإله الجديد سيرابيس وهو مركب من الإلهين أوزيريس وأبيس، وكانت العبادة تقام في المعابد التي تسمى سيرابيوم (Serapium)، واسمها

مستمد من اسم الإله سيرابيس. وفي نفس الوقت كان سيرابيس يتحد أو ينسب لآلهة اليونان زيوس وبلوتو. وبين محاولة جعل مصر هيلِّينستية واليونان شرقية، ضل العقل وارتبك فأين يجد الإيمان الحقيقي.

وقد اقترن بهذا الفوران الديني اليأس والفقر المدقع لمصر تحت حكم الرومان. حيث أصبحت مصر مخزن القمح الرئيسي لروما. كانت الحياة بلا هدف أو طعم. وكان المستقبل الهانيء والعزاء الروحي في العالم الآخر فحسب. وقد كانت وعود المسيحية في ذلك واسعة. وهكذا، كان مسرح التاريخ معداًّ للمسيحية، التي انتشرت بسرعة كبيرة، في أنحاء الدلتا. (د. عزيز سوريال: تاريخ المسيحية الشرقية).

الباب الأول

الفصل الثاني

دور الإسكندرية في العالم القديم

أ- تمهيد

ب- الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للإسكندرية

جـ- مدرسة الإسكندرية اليونانية

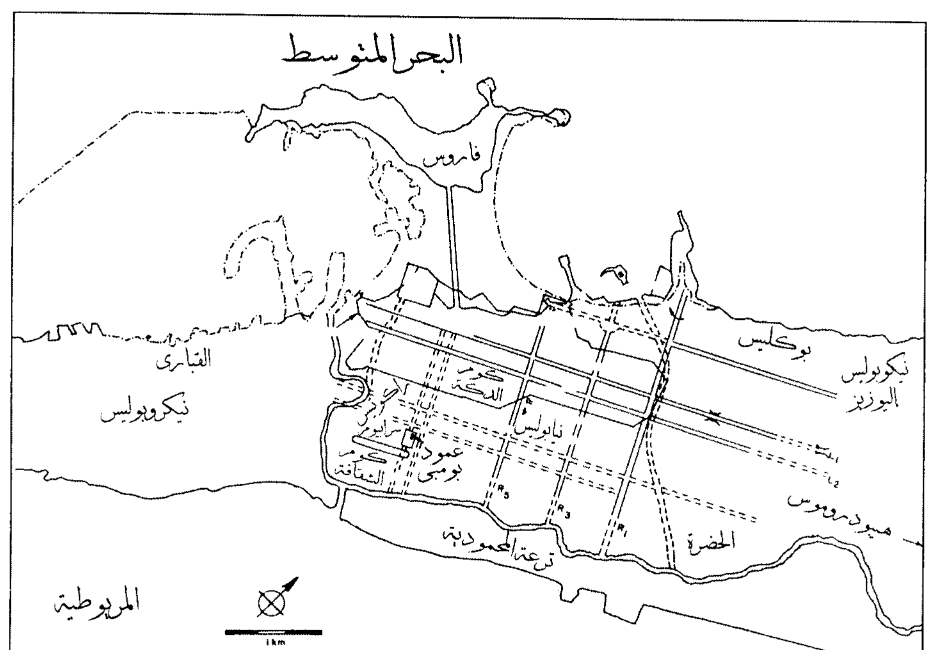
د- مدرسة الإسكندرية للاهوت

الإسكندرية

أ- تمهيد

كان للإسكندر الأكبر الفضل الأعظم في انتشار الحضارة اليونانية، على نحو مؤثر في البلاد التي قام بفتحها وتأسيسها بكيفية لم تحدث من قبل. وكان لانتشار اللغة اليونانية عظيم الأثر في نشر الإنجيل في تلك البلاد.

والإسكندرية التي تقع عند نهاية فرع نهر نيل الدلتا الغربي قد أسَّسها الإسكندر في سنة ٣٣١ ق.م. ويقال إنه استلهم موقع الإسكندرية من أبيات هوميروس هذه التي



خريطة لمدينة الإسكندرية في عصورها المتأخرة

وردت في "الإلياذة"، التي كان دائم الاطلاع عليها لاسيَّما قبل فتوحاته:

وسط البحار العظيمة التي تسبح مصر فيها قامت جزيرة فاروس، ذائعة الصيت.

وكان الإسكندر قد توقف عند جزيرة فاروس (Pharos) وهي المنطقة الممتدة حالياً من قايتباي إلى رأس التين وتقع غربي الدلتا، وأدرك ما لهذا الموقع من أهمية استراتيچية فقرر أن يبني المدينة التي تحمل اسمه في الموقع المقابل لجزيرة فاروس وهي قرية راقودة. وكان الإسكندر قد أسَّس ١٧ (سبع عشرة) وبعض المراجع تذكر ٧٠ (سبعين) مدينةً تحمل اسمه (ويرجح الرقم الأول)، ولم يتبق منها سوى إسكندرية -مصر. وقد عهد بتخطيط المدينة إلى المهندس المعماري المشهور دينوقراتيس الرودسي، الذي اشتهر ببناء هيكل ديانا (أرطاميس) المعروف. (عزيز سوريال عطية: تاريخ الكنيسة الشرقية، د. نجيب بلدي: تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها).

تميزت الإسكندرية بتخطيطها الجيد، فشوارعها المتوازية طولاً، والمتوازية عرضاً، تصبح في النهاية مثل رقعة الشطرنج، ويبلغ طولها ٤و٦ كيلو متراً وعرضها ٢-٣ كيلومتر. وكان ثمة شارعان رئيسيان وهما المعروفان الآن بشارع فؤاد وشارع النبي دانيال، ويقعان في قلب الحياة التجارية والثقافية والسياسية في المدينة حالياً. (موسوعة Lexicon).

وجد الإسكندر أن ربط جزيرة فاروس بالشاطيء عن طريق مد جسر -ويبلغ طوله نحو ألف وثلاثمائة متر- يؤدي إلى وجود ميناءين طبيعيين، وهما الميناء الشرقي (الميناء الكبير)، والميناء الغربي (ميناء يونوستوس) وهو الذي يعمل حالياً. وجزيرة فاروس دعيت كذلك، بعد بناء منارة الإسكندرية الشهيرة، في عهد بطليموس فيلادلفيوس في نحو عام ٢٧٠ ق.م.



الإسكندر الأكبر

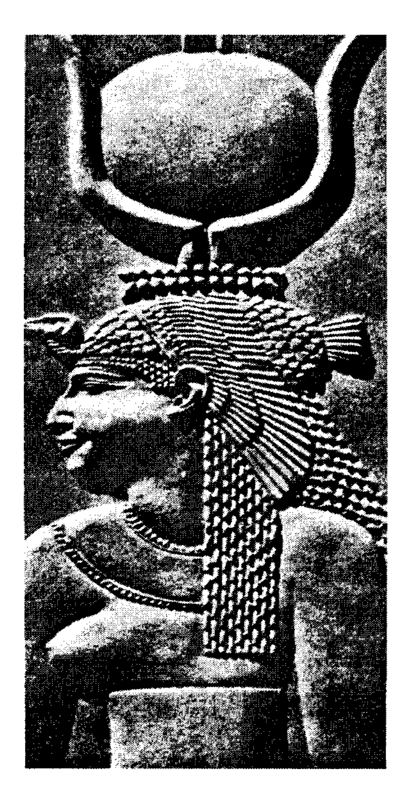
بعد أن أصدر الإسكندر أوامره بالبدء في بناء مدينة الإسكندرية التي تحمل اسمه، بعد اختيار موقعها، شدَّ رحاله في رحلة دينية، حيث ذهب لزيارة معبد آمون-رع في واحة سيوة. وبعدها مضى مباشرة في تنفيذ خططه

وفتوحاته: فذهب إلى فلسطين وسوريا، ثم استقر في بابل، حيث توفى هناك على أثر حمى شديدة ألمت به في سنة ٣٢٣ ق.م. قبل أن يبدأ بناء الإسكندرية. أما من بنى الإسكندرية فهو بطليموس الأول، أحد قادة جيشه.

سرعان ما حلَّت الإسكندرية محل "منف" عاصمةً لمصر ولإمبراطورية البطالسة. وهكذا احتلت الإسكندرية مكانةً بارزة في العالم اليوناني، وعالم شرق البحر المتوسط. فأصبحت الإسكندرية مركزًا من مراكز الثقافة اليونانية وجذبت كثيرين من الشعراء والعلماء وأساطين الفكر والفلسفة في ذلك الوقت.

وقد لعبت الإسكندرية دورًا اقتصاديًا وتجاريًا هامًا، فكانت البضائع تأتي من بلاد العرب. وبلاد الهند عن طريق البحر الأحمر، وكذلك المنتجات والبضائع من جنوبي مصر من خلال نهر النيل (والفرع الكانوبي الغربي) إلى بحيرة مريوط، ثم إلى الإسكندرية، وعن طريقها إلى دول البحر المتوسط.

بعد أن بلغت الإسكندرية شأوًا عظيماً وأصبحت مدينة ذات شهرة واسعة في تلك المنطقة، تخلت عن مكانتها هذه للامبراطورية الرومانية بانتصار أوكتافيوس (أوغسطس قيصر فيما بعد) على أنطونيوس وقتله في معركة أكتيوم وموت كليوباترا في سنة ٣٠ق.م. حيث أصبحت



كليوباترا

مصر تابعة للامبراطورية الرومانية، وأصبحت الإسكندرية عاصمةً لها، وقد ظلت الثقافة اليونانية هي الثقافة السائدة والتي تميز شخصيتها.

وأصبحت الإسكندرية في عصر روما في موقع متوسط بين الشرق والغرب، لا للتنقل التجاري فحسب، بل للتحول المعنوي الروحي، بين رغبات النفس العميقة بوجه عام. وتاريخ الإسكندر ذاته يدل على ذلك القلق، وقد حاولت مدارس الإسكندرية أن تقضي عليه أو تهدئه، قبل أفلاطون.

(راجع د. نجيب بلدي. تمهيد لتاريخ مدينة الإسكندرية وفلسفتها).

ب- الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للإسكندرية

كان للإسكندرية في عصر الرومان قوانينها الخاصة ومواطنتها الخاصة، التي ميزت المواطنين اليونانيين أو الهيلِّينيستيين لا عن المصريين الذين يعيشون فيها وفي القرى فحسب ولكن أيضاً عن اليهود الذين كانوا يقيمون فيها. وكانت النزاعات التي تحدث بين المواطنين السكندريين واليهود بسبب الموقف الدستوري لليهود وحقوقهم المدنية مصدراً للصراعات العنيفة التي وصلت إلى حد الحرب الأهلية في القرنين الأول والثاني (وبصفة خاصة –التمرد الذي قام به اليهود بين عامي ١١٥–١١٧م). وحيث كانت مكاناً لالتقاء الشعوب وملتقًى للبضائع. كان في الإسكندرية العديد من الجنسيات، فضلاً عن المهاجرين من اليونان ومناطق الشرق الأوسط. وبينهم استوطن كثيرون من اليهود في الإسكندرية منذ الفترة الهيلِّينستية*، وكانت ثمة تجمعات للمصريين تمركزوا في القرية القديمة راقودة، التي أصبحت القسم الهام في المدينة حول معبد السيرابيوم.

بالإضافة إلى أن التدفق المستمر للمصريين الأصليين من القرى، أثار قلق الحكومة الرومانية التي شعرت بأن أولئك الوافدين يشكلون تهديداً للشخصية اليونانية للإسكندرية، وهكذا طردتهم الحكومة الرومانية مؤقتًا.

لعبت الإسكندرية دوراً هامًا في استضافة العديدين من الأجانب الذين وجدوا فيها فرصةً كبيرةً للتجارة والصناعة، والعديد من الأنشطة. وفي تلك العاصمة الشرقية كانت تتردد العديد من اللغات الأجنبية، ولكن اليونانية كانت هي الغالبة في المعاملات الرسمية، كما في شئون الحياة اليومية، منذ عصر الإسكندر الأكبر، وحتى دخول العرب (وربما بعد ذلك) واختلط اليونانيون بالمصريين، واليهود بالعرب، وأناس من أفريقيا السمراء وأواسط آسيا، والهند، والصين، وقد أطلق الغرب العديد من الشائعات تدَّعي أن الإسكندرية مدينة اللهو والتمرد، وكان الملوك والأباطرة المتعصبون ضد المصريين يجدون في المسرح وحلبة السباق متنفساً عمًا في أعماقهم من غضب أو انفعال! وكان السكندريون مولعين بالموسيقى والسيرك. وتفجرت عديد من التوترات. والمذبحة التي قام بها الامبراطور كاراكالاً في الإسكندرية، وطرده للمصريين منها يوضحان

* (للمزيد من المعلومات عن المجتمع اليهودي في الإسكندرية يرجى العودة إلى الجزء الأول من الموسوعة بند (ب) **اليهودية والهيلِّينية** وبند **فيلو والثقافة اليهودية الهيلِّينستية** الصفحات ٣–٦ في الجزء الأول من الموسوعة. وفي هذا الجزء إلى الترجمة السبعينية بند جـ– مدرسة الإسكندرية اليونانية وبند أ– نشأة المسيحية: في الإسكندرية فقرة ٦).

مقدار الواقع المأساوي الذي واجهه المصريون آنذاك.

وظلت العداوة قائمة حتى عصر البيزنطيين، وقد حدثت مصادمات عنيفة بين المسيحيين والوثنيين (إثر هدم معبد السرابيوم في عام ٣٩١م، وقتل الفيلسوفة الوثنية هيباشيا في عام ٤١٥م). كما حدثت نزاعات بين المسيحيين من طوائف مختلفة (الأرثوذكس في مواجهتهم للأريوسيين وأتباع ميليتان، وبين المعتقدين بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة والمعتقدين بأن للسيد المسيح طبيعتين).

وقد شهدت الإسكندرية مقتل الكثيرين، وكذلك دمرت كثير من المباني العامة و الخاصة أثناء الشغب والحروب التي حدثت في القرنين الثاني والثالث. وعلى سبيل المثال نذكر أن الربع المسمى بروكيون في مدينة الإسكندرية قد ضربه اليهود في أثناء التمرد الذي قاموا به فيما بين عامي ١١٥- ١١٧م.

كان لزامًا على الإسكندرية أن تسهم بقدر كبير في إمداد روما بالغذاء خلال القرون الثلاثة الأولى في عهد المسيحية، وكذلك كان عليها أن تخضع للقسطنطينية عندما أصبحت المدينة التي يقع فيها كرسي الامبراطورية الرومانية الشرقية. وكانت تُحوَّل إليها المنتجات والضرائب. وإنه لمن المرجح أن الإسكندرية في ذلك الوقت ظلت هي المدينة الأكثر أهمية اقتصاديًا في عالم البحر المتوسط والذي لم يكن قد أصابه الانقسام بعد. (د. عزيز سوريال: مرجع سابق).

اجتمعت عناصر عديدة لخدمة عاصمة مصر. إذ توفرت قوة عمل كبيرة من مختلف التخصصات وعلى أعلى مستوى، وكذلك توفرت خدمات النقل، التي لها أهميتها البالغة في مدينة تجارية. وكانت تدار بمعرفة اتحاد من أصحاب السفن. وكذلك عرفت صناعات نسج الكتان، وورق البردي، والزجاج. أما صناعة العطور، والحُلِّي والعقاقير، فكانت من الصناعات التقليدية التي تعرف بها الإسكندرية. وكانت لا تزال منتشرة وعلى نطاق واسع في الحقبة البيزنطية.

واستمرت التجارة في ازدهارها مع دول حوض البحر المتوسط، ومع دول الشرق الأوسط والأقصى. وكان يتم نقل البضائع عن طريق الموانيء المصرية على البحر الأحمر لا سيما ميناء القُصير وتنقل عن طريق الصحراء الشرقية إلى مدينة "قفط" على النيل ثم بالسفن إلى البحر المتوسط. وكان لمدينة "قفط" دور هام في القرن الثالث إذ جذبت كثيرين من الأجانب، وكانوا لا يعملون بالتجارة فحسب، وإنما كانوا يقومون أيضًا بنشر معتقدات جديدة، وهي المعروفة "بالمانوية" (راجع الباب الخاص بالهرطقات في الجزء الأول من هذه الموسوعة).

اتساع نفوذ كنيسة الإسكندرية

كان للدور الهام الذي قامت به مصر في تدعيم القسطنطينية ودعم جيوشها، أثره الهام على العاصمة ومن ثم على كنيسة الإسكندرية، فقد مُنح بطريرك الإسكندرية حرية كبيرة فيما يتعلق بشئون الكنيسة والسياسة بشكل عام. وكان للكنيسة نفوذ على الجماعات المهنية في الإسكندرية. وإذ أصبحت الغالبية العظمى من سكان الإسكندرية من المسيحيين بحلول النصف الثاني من القرن الرابع، مما مكَّنها من مواجهة الهرطقات التي ظهرت آنذاك مثل الأريوسية. وفي القرون التالية، فإن الكنيسة- إلى جانب كونها المؤسسة السياسية والاجتماعية الأكثر نفوذًا أصبحت أيضاً مؤسسة اقتصادية قوية، تكدس الممتلكات وتجذب الثروات وتدير مشروعاتها بنفسها. (د. عزيز سوريال- مرجع سابق).

كادت أن تحدث مشكلة بسبب عدم قدرة عامة المصريين في القرى على تسديد الضرائب المفروضة عليهم، في أواخر الحكم الروماني. فهرب كثيرون منهم إلى الإسكندرية، هذا بالإضافة إلى أن كثيرين من البحَّارة والعاملين في أحواض السفن كانوا لا يعملون في أوقات الشتاء حيث تتوقف الملاحة في البحر المتوسط. ومن هنا نشأ عداء شديد بين الجموع الفقيرة التي بلا عمل، والأعضاء الأثرياء في مجلس مدينة الإسكندرية، الذين كانوا يديرون الإدارة المحلية. وكان من شأن هذا أن يفجر موجات من الصراع العنيف تعبيراً عن الغضب والإحباط، ولا سيما وأن الصراع الديني كان يغذي تلك التوترات الاجتماعية- الاقتصادية، مثلما حدث في القرن الرابع، حيث كان الوثنيون لا يزالون بأعداد كبيرة.

يذكر التاريخ تلك الممارسات الرهيبة التي مارسها الوثنيون في الإسكندرية ضد المسيحيين. فيذكر الكاتب أميانوس مارسيلينوس (Ammianus Marcelinus) الحال الذي كانت عليه مصر بعد موت قسطنطيوس أو (قنسطانطيوس) الثاني في سنة ٣٦٢م. فيذكر عدداً من الحوادث التي تم فيها تنفيذ حكم الإعدام بدون محاكمة، حيث قامت جموع الوثنيين بقتل جورجيوس الأسقف الأريوسي لأنه استنكر فعلاً قام به أحد مواطني قسطنطيوس، ولأنه أبدى أيضاً ملاحظات تحمل معنى الإهانة لمعبد چينيوس (معبد أجاثوديمون، أو ربما معبد السيرابيوم). وكذلك أُعدم دراكونتيوس، لأنه هدم مذبحاً للأوثان في دار سك العملة بالإسكندرية، وأُعدم ديودروس، الذي كان يشرف على بناء إحدى الكنائس، ولكنه قام بقص خصلات شعر الأولاد "وكان يعتقد أن لهذا علاقة أيضاً بعبادة الأوثان" (كما ذكر أميانوس). ثم بعد أن قامت الجموع بإعدام جورجيوس ودراكونتيوس وديودورس، قام الغوغاء من الوثنيين بحرق جثثهم وإلقاء الرماد في البحر، حتى يحولوا -بحسب ما

يقوله أميانوس- دون جمع الجثث وإقامة نُصُب تذكارية، كتلك التي أقيمت للشهداء في الماضي. وقد عَبَّر الامبراطور يوليانوس عن استيائه البالغ من القانون الشعبي الذي يقضي بالإعدام دون محاكمة قانونية، برغم أنه كان غير متعاطف على الإطلاق مع جورجيوس، إلا أنه تراجع عن معاقبة مرتكبي تلك الجرائم. (موسوعة الكنيسة الأولى: مرجع سابق).

وفي عصر روماني لاحق، كانت الإسكندرية لا تزال تتمتع بشهرتها الثقافية، وكانت مركزًا للعلم. وأكد أميانوس في وصفه للإسكندرية في القرن الرابع على أهمية الفنون والرياضيات، والموسيقى، والطب. وفي النصف الثاني من القرن الرابع كان المتحف لا يزال موجوداً، أما المكتبة الشهيرة فقد سبق لها أن عانت من عمليات تخريب متتالية. ويبدو أنها لم تسترجع على الإطلاق أهميتها السابقة. ومع ذلك فقد كان التعليم والبحث والنشاط الأدبي لا تزال مزدهرة في أواخر العصر الروماني.

ويوجد وصف جيد لمدينة الإسكندرية للجغرافي والمؤرخ اليوناني سترابون (سترابو) Strabo، وقد زار مصر في سنتي ٢٥-٢٤ ق.م. وكان بصحبة إيليوس جالوس (Aelius Gallus) حاكم مصر آنذاك. ولكن كثيراً من الملامح التي وصف بها سترابو الإسكندرية، قد اختفت في عصر دقلديانوس (٢٨٤- ٣٠٥م). وذلك نتيجة لمرور الزمن، وللمباني الجديدة التي تم إنشاؤها. وكذلك نتيجة لما اعتراها من هدم بفعل الكوارث الطبيعية والحروب، ولاسيما في القرن الثالث. (د. عزيز سوريال- الموسوعة القبطية).

وكثير من آثار تلك الفترة يعرضها المتحف اليوناني- الروماني بالإسكندرية (حاليًا). وبعد الفتح العربي في نحو سنة ٦٤٢م أخذ الوهن يدب في أوصالها، وبدأت المدينة تتهدم. وبعد أن أصبحت الفسطاط- القاهرة عاصمة لمصر بدلاً من الإسكندرية في نحو سنة ٩٦٩م ضعفت قيمتها. وقد تهدمت منارتها الشهيرة في سنة ١٣٢٤م بفعل زلزال قوي ضرب الجزيرة. أما المنارة الجديدة فتقع في رأس التين، وتشرف على الميناء الغربي. وباكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في نحو عام ١٥٠٠م تكون قد اكتملت عناصر ضعف المدينة. وقد عادت للمدينة مكانتها مرة أخرى نظراً لأهميتها التجارية، في القرن التاسع عشر.

وقد أدَّى بناء المباني الحديثة في القرن التاسع عشر إلى تهدم جانب من المدينة القديمة، واختفاء أجزاء منها، بينما يقع جانب منها تحت مياه البحر المتوسط. ولم يتبق من الآثار القديمة بالمدينة سوى عمود بومباي (عمود السواري والذي أنشيء في عهد دقلديانوس نحو سنة ٢٩٩م).

أهم معالم الإسكندرية قديماً

١- معبد سيرابيس

٢- معبد بوسيدون (إله البحر)

٣- ضريح الإسكندر الأكبر والبطالسة (غير معروف)

٤- المتحف (الموسيون أو الموسايون)

٥- المسرح

٦- سوق تجاري

٧- مكتبة الإسكندرية (أنشأها بطليموس الأول)

(موسوعة Lexicon)

جـ مدرسة الإسكندرية اليونانية

سبق القول إن بطليموس الأول هو الذي بنى الإسكندرية وفق الخطة التي أعدها الإسكندر الأكبر، الذي توفى قبل البدء في بنائها. وبناء المدن يتبعه إنشاء المدارس والجامعات، وهكذا أمر بطليموس الأول بإنشاء المتحف (Mousion أو Mousaion) أي معبد ربات المعرفة أو الفنون والعلوم (Mousai). وكلمة "متحف" هنا تعني "مدرسة" أو "معهد للعلوم" أو "أكاديمية" وأحياناً "جامعة"- وقد ألحق به معبد لتلك الربات، على غرار ما كان متبعاً في المدارس الفلسفية في اليونان. (د. نجيب بلدي: تمهيد لمدرسة الإسكندرية).

ربات الفنون التسع

وهن بنات الإله زيوس Zeus كبير آلهة اليونان والإلهة منيموزين Mnemosyne (إلهة الذاكرة أو الذكاء)، راعيات العلوم والفنون وهن: كليو Clio ربة التاريخ، وأورانيا Urania ربة الفلك، وتربسيخوري Terpsichore ربة الرقص، ويوتيربي Euterpe ربة الموسيقى، وميلبومين Melpomene ربة التراجيديا، وإيراتو Erato ربة شعر البكائيات والمراثي، وبوليمنيا Polyhymina ربة الأناشيد، وتاليا Thalia ربة الكوميديا، وكاليوبي Calliope ربة شعر الملاحم، أما الزعيم فهو أبوللو Apollo إله الغناء. (د. ثروت عكاشة- المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية، د. نبيل راغب- عصر الإسكندرية الذهبي).

أقام بطليموس إلى جوار "المتحف" مبنى آخر للمكتبة التي احتوت -في وقت لاحق- على ما لا يقل عن مائتي ألف من اللفائف، مما استدعى أن يقيم مكتبة أخرى هي مكتبة "السرابيون" والتي احتوت على لفائف قيِّمة ونادرة، وضمت ما لا يقل عن خمسين ألفاً منها. وعندما بلغت المدرسة أوج ازدهارها كانت تحتوي على نصف مليون من اللفائف. وأقام على المكتبتين مشرفين من رجال العلم البارزين في ذلك الوقت، وكان القائم على المكتبة أحد الكهنة- يقول سترابون الجغرافي والمؤرخ في نص شهير:

"المتحف جزء من القصور الملكية، وله ممر عمومي، ورواق فيه مقاعد، ودار متسعة بها مطعم

لعلماء المعهد، يعيش هؤلاء حياة مشتركة.. ويشرف على أمورهم وأمور المتحف كاهن يُعيِّنه الملك". (د. نجيب بلدي- مرجع سابق).

الترجمة السبعينية

وفي الإسكندرية تمت ترجمة العهد القديم من العبرية إلى اليونانية، وذلك بناء على طلب بطليموس الثاني فلادلفيوس (٢٨٥- ٢٤٧ق.م.) حسب التقليد المعروف، قام بالترجمة اثنان وسبعون من الأحبار (الشيوخ). وجاءوا لإتمام ذلك العمل بصفة خاصة في الإسكندرية.

غلب الطابع العلمي على الدراسات التي قامت في "المتحف" حيث كان مهداً لعلماء الفلك والعلوم الطبيعية والهندسة والطب والتشريح، وهكذا بدأت الدراسة علمية. واختصت المكتبة بالدراسات الإنسانية: "فنون اللغة والأدب والخطابة والنقد والشعر والفن والدين والتاريخ والجغرافيا، والفلسفة "إلاَّ أن الفلسفة دخلت "المتحف" -المكتبة الملحقة به- في وقت لا يمكن تحديده بالضبط. "وإنَّا نعرف على وجه الدقة أن الفلسفة في آخر القرن الميلادي الثالث كانت ممثلة بمدارسها الأربع: "الأفلاطونية والمشائية والرواقية والأبيقورية". "ويطلق عادةً على مدرسة الإسكندرية مدرسة الأفلاطونية الحديثة". (راجع د. نجيب بلدي: مرجع سابق).

تفوقت "مدرسة" الإسكندرية على نظائرها في اليونان مثل أكاديمية أرسطو أو أكاديمية أفلاطون، وكان من مظاهر ذلك انتقال العلماء من مختلف المجالات لاستكمال أبحاثهم ودراساتهم في مدرسة الإسكندرية.

د- مدرسة الإسكندرية للاهوت

بعد معرفتنا للحالة الثقافية والسياسية والاجتماعية التي كانت عليها مدينة الإسكندرية في العصر الأول للمسيحية، وبعد دراسة مدرسة الإسكندرية الوثنية والتي كان يغلب عليها الطابع الثقافي اليوناني.. ننتقل الآن لدراسة مدرسة الإسكندرية للاهوت..

بدخول المسيحية إلى مدينة الإسكندرية في أثناء الحكم الروماني.. احتكت احتكاكاً مباشراً بالثقافة اليونانية متمثلة في أعظم مدارسها: مدرسة الإسكندرية اليونانية.. ونتيجة لذلك نشأ الاهتمام بالمشاكل ذات الطبيعة الخالصة في ذاتها مما أدى إلى تأسيس مدرسة لاهوتية (كواستين- الجزء الأول).

ويرى ف. كوكشيني (F. Cocchini) أنه منذ أن انتشرت الكرازة الأولى بالمسيحية، كانت مهمة المجتمعات المسيحية إعداد المؤمنين الجدد بالتعليم الذي لا غنى عنه، والذي من شأنه في ذات الوقت أن يعمِّق ويوسِّع العناصر اللازمة لإعلان الكرازة. وهذا النوع من التعليم كان شفوياً، إذ لم يكن التعليم سوى صدًى للكلمة التي نطق بها الله..

وتوجد نماذج للتعليم الشفوي لا سيما في سفر أعمال الرسل، ورسائل بولس الرسول (موسوعة الكنيسة الأولى -الجزء الأول). أما كواستين فقد أورد الأسباب التي أدت إلى نشأة المدارس اللاهوتية إلى أنه كلما انتشرت المسيحية في العالم في ذلك الوقت، زاد الاحتياج إلى تفسير لتلك العقيدة الجديدة. وكلما زادت أعداد المؤمنين من المثقفين كان من الضروري تعليم أولئك المبتدئين عن البيئة الجديدة وتدريب معلمين لهذا الغرض، وهكذا نشأت مدارس الفكر اللاهوتي والعلوم المقدسة، وقد ظهرت أولاً في الشرق، حيث بدأت المسيحية وانتشرت، وكان أكثرها شهرة في الإسكندرية بمصر. (كواستن- مرجع سابق).

ويرى "شاف" أن نشأة تلك المدرسة كانت بغرض عملي وهو إعداد راغبي العماد فحسب، من اليهود والوثنيين على كل المستويات. وقد تحولت إلى كلية لاهوتية بفعل البيئة المحيطة، حيث فكر فيلو اللاهوتي، وبدعة الغنوسية، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة- فلسفة مدرسة الإسكندرية- (شاف- الجزء الثاني). وقد تفوقت في المباحثات الميتافيزيقية للإيمان، والميل نحو فلسفة أفلاطون، والميل للتفسير المجازي للكتاب المقدس. (كواستن- مرجع سابق).

كان التعليم الشفوي قائمًا في الأساس على الإعلان الخاص بشخص السيد المسيح وحياته وارتبط ذلك بالعهد القديم- ونماذج ذلك كما سبق القول ترد واضحة في سفر أعمال الرسل ورسائل بولس الرسول. فهذا هو الأساس الذي قامت عليه الحياة المسيحية والليتورچيات والأخلاق وكل ما يتعلق بالمجتمع.. (ف. كوكشيني- موسوعة الكنيسة الأولى جـ١).

لقد استخدم الفلاسفة اليونانيون -لمدة طويلة- المنهج المجازي في تفسيرهم للأساطير التي نسجوها حول الآلهة، كما هي عليه في الأوديسة والإلياذة.. وقد وظَّف فيلو السكندري المجاز في تفسيره للكتاب المقدس. فاعتبر أن المعنى الحرفي للكتاب المقدس هو بمثابة الظل من الجسم. فالمعاني العميقة والمجازية تمثل الحقيقة. وقد تبنى مفكرو مدرسة الإسكندرية للاهوت هذا المنهج لاقتناعهم بأن التفسير الحرفي في أحوال عديدة ليس هو ما يتفق مع فكر الله. فبينما استخدمه كليمندس على نطاق واسع، فإن أوريجانوس جعل منه منهجًا. وبدون ذلك لم يكن للاهوتيين أو لمفسري الكتاب المقدس أي مساهمة لها دلالة. وقد ساهم المنهج الرمزي في حل المشاكل الهامة التي واجهت الكنيسة الأولى. فاستخدام الرمز في تفسير العهدين سبق أن أشار إليه بولس الرسول: "فإنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان واحد من الجارية والآخر من الحرة. لكن الذي من الجارية وُلِد حسب الجسد وأما الذي من الحرة فبالموعد. وكل ذلك رمز لأن هاتين هما العهدان أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذي هو هاجر. لأن

هاجر جبل سيناء في العربية، ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة.. (غل ٤:٢٤ و٢٥).

وكذلك يسوق مثالاً آخر، "فإنه مكتوب في ناموس موسى لا تكم ثوراً دارساً. ألعل الله تهمه الثيران؟ أم يقول مطلقًا من أجلنا؟ إنه من أجلنا مكتوب". (١كو ٩:٩).

وقد أصبح التعليم اللاهوتي في عهد إيريناوس وترتليانوس أكثر منهجية، فقاما بشرح مراحل تاريخ الخلاص في شكل تعليمي، وقد توسعا في استخدام الرموز في تفسير عمل السيد المسيح وارتباطه بحقائق العهد القديم.

ويتكلم هيبوليتس عن تعليم يقوم به رجل متعلم لطالبي العماد لمدة ثلاث سنين. ويخبرنا يوسابيوس المؤرخ القيصري عن مدرسة الإسكندرية فيقول: "عُهِدَ إلى بنتينوس -وهو شخص بارز جداً بسبب علمه- إدارة مدرسة المؤمنين في الإسكندرية. إذ كانت قد أُنشئت بها منذ الأزمنة القديمة مدرسة للتعاليم المقدسة، ولازالت حتى يومنا هذا. وكان يديرها -كما وصل إلى علمنا- رجال في غاية المقدرة والغيرة نحو الإلهيات. وقيل إنه برز من بينهم في ذلك الوقت بنتينوس، لأنه تهذب بفلسفة الرواقيين (راجع القمص مرقس داود : مترجم- تاريخ الكنيسة: ٥:١٠:١).

لم يعين للمدرسة في البداية سوى معلم واحد ثم بعد ذلك معلمين أو أكثر، ولكن بدون راتب ثابت، حيث كان دخل الأستاذ يتوقف على المستوى الاجتماعي لطلاب العلم وما يدفعوه. ولم تكن ثمة مبانٍ خاصة للتدريس، فكان المدرسون يقومون بإلقاء الدروس في مساكنهم، على غرار ما كان يفعله الفلاسفة القدماء. (راجع شاف- مرجع سابق).

كان القائمون على مدرسة الإسكندرية للاهوت مسئولين عن صياغة المناهج الأولى للاهوت المسيحي وبعض التفاسير الهامة. إلاَّ أنه من الخطأ أن نقصر منهجها على دراسة الفكر اللاهوتي فحسب، إذ كانت بمثابة معهد أو كلية لتدريس فروع المعرفة المختلفة كالإنسانيات واللغات والموسيقى وعلوم الفلك والفيزياء والكيمياء والطب والرياضيات والجغرافيا والتاريخ، بالرغم من أن دورها الرئيسي في عصر الإيمان كان الدين. وكان أن تطور المنهج بعد المناظرات التي جرت بين علماء المدرستين، اللاهوتية والوثنية، بإدخال العلوم الطبيعية لتُدرس بها إلى جانب العلوم الدينية. (عزيز سوريال عطية: تاريخ الكنيسة الشرقية، الراهب القمص أنطونيوس الأنطوني: وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها).

أما عن مؤسس مدرسة الإسكندرية.. فقد ذهب البعض في الرأي إلى أن مؤسسها هو القديس مرقس نفسه. فعندما جاء ليكرز في الإسكندرية.. وجد أن الثقافة الوثنية هي السائدة بأفكارها، فأنشأ المدرسة لتثبيت المؤمنين وللرد على أفكار الوثنيين، والمعروف أن القديس مرقس كان مُلمًا باللغات العبرية واليونانية واللاتينية، فأقام العلاَّمة

يسطس أول مدير لها، (وقد صار فيما بعد البطريرك السادس). والمعروف أن مدير المدرسة كان يعد الرجل الثاني بعد البطريرك (الراهب القمص أنطونيوس الأنطوني: مرجع سابق)، وهذا ما يدل على أهمية المدرسة والدور الذي كانت تقوم به.

وثمة رأي آخر يتبناه دكتور عزيز سوريال عطية فيما يتعلق بمؤسس مدرسة الإسكندرية للاهوت فيقول: "إن معرفتنا بوجودها يرجع في الأساس إلى معرفتنا بعلمائها.. الذين كانوا قائمين عليها.. ولابد أن تاريخها يرتبط بهم، فلا يوجد من الأسباب ما يدعونا لأن نعتقد أن نشأتها تسبقهم بوقت طويل. وأن الرأي القائل بأن القديس مرقس هو مؤسسها إنما هو ضرب من الأساطير. وأقدم مصدر معروف يتحدث عن بنتينوس الذي توفى نحو سنة ١٩٠م كمؤسس لها. ومنذ هذا الوقت وتعتبر مُناظِرة "للمتحف" الوثني. إلى أن بدأ الأخير يضعف شيئاً فشيئاً ليختفي عن الوجود إبان مقتل هيباشيا Hypatia الفيلسوفة الوثنية، رجماً بالحجارة، بعد عودتها من محاضرة ألقتها في "المتحف". وكان ذلك في نحو عام ٤١٥م. (تاريخ الكنيسة الشرقية: مرجع سابق).

وقد عُرف معظم قادة الفكر المسيحي في الإسكندرية في ذلك الوقت بارتباطهم بمدرسة الإسكندرية للاهوت سواء في مقاعد طالبي العلم والمعرفة، أو في ثياب المعلمين. ويلخص تاريخ المدرسة.. سيرة أولئك العلماء الذين أُنيطوا بمسئولية إدارتها. وسوف ندرس حياتهم فيما بعد بشيء من التفصيل. وفي هذا المقام نود أن نُشير إلى أن أثيناغوراس الفيلسوف المسيحي يعتبره بعض المؤرخين من كُتَّاب مدرسة الإسكندرية، بينما يدرجه البعض الآخر -ضمن قائمة "الكُتَّاب اليونانيين المدافعين"، وقد فضلنا اتِّباع الرأي الأخير.

في أواخر القرن الرابع الميلادي تدهورت مدرسة الإسكندرية للاهوت تدهوراً شديداً، متأثرة بحالة كنيسة الإسكندرية في ذلك الوقت وما كانت عليه من خلاف وشقاق، وانتهى الأمر باندثار مدرستها الشهيرة. وكما سبق أن ذكرنا في معرض دراستنا لمدرسة الإسكندرية اليونانية أن أهمية مدينة الإسكندرية ذاتها قد تراجعت، فيما بعد ولم تستعد المدينة أهميتها المفقودة إلاَّ بعد الاهتمام الأوروبي بموقع الإسكندرية وأهميته البالغة في التجارة في القرن التاسع عشر.

لقد أثمرت مدرسة الإسكندرية للاهوت فكرًا لاهوتيًا متميزًا، تمثل في أعمال كل من كليمندس وأوريجانوس. وكان للفيلسوف اليهودي السكندري فيلو أثره في الفكر السكندري، بتفسير العهد القديم في ضوء الفلسفة اليونانية (انظر الجزء الأول من هذه الموسوعة ص ٥ وما بعدها). وكذلك كان للفكر اللاهوتي السكندري أثره في دحض الهرطقة الغنوسية، والتي وصلت إلى ذروة تعاليمها في الإسكندرية. وكان الفكر اللاهوتي للإسكندرية

يطمح إلى المصالحة بين المسيحية والفلسفة. ولكن كانت تسعى إلى ذلك مستندة إلى الأساس الكتابي وتعاليم الكنيسة. (فيليب شاف- مرجع سابق).

جاء كليمندس إلى الإيمان المسيحي بثقافة فلسفية يونانية. بينما كان أوريجانوس، على عكس ذلك، حيث قاده الإيمان إلى التأمل والتفكير. كان كليمندس مفكرًا حصيفًا، وكان أوريجانوس مفكرًا منهجيًا. اقتفى الأول آثار الأفلاطونية، واقتبس الآخر من مناهج فكرية عديدة. وكما فعل قبلهما فيلو -في نفس المدينة، بفترة طويلة حيث مزج اليهودية بالثقافة اليونانية، كذلك كان الحال معهما إذ نقلا الثقافة اليونانية إلى المسيحية. وهذا في الواقع ما فعله المدافعون في القرن الثاني الميلادي، مثل يوستين (يوستينوس) الفيلسوف. إلا أن السكندريين كانوا أكثر علمًا، وقد استخدموا الفلسفة اليونانية بحرية أكبر. فلم يروا أنها خطأً بيِّنًا، ولكن كانت إحدى وجهات النظر أنها عطية من الله. وقد شبهوها بالناموس في المجالين الأخلاقي والديني. وشبهها كليمندس بشجرة الزيتون البرية، وقال إن الفلسفة يمكن أن تتسامى بالإيمان (رو ١١:٢٤). وشبهها أوريجانوس (في قصاصة من الرسالة إلى غريغوريوس العجائبي) بالذهب، الذي أخذه بني إسرائيل من مصر، والذي استخدموا بعضه في صناعة أدوات خيمة الشهادة. ثم بعد ذلك عندما صنعوا منه العجل الذهبي.

الأديرة والكنائس في الإسكندرية

لم يكن هناك سوى عدد قليل جداً من الأديرة داخل أسوار الإسكندرية الرومانية في آخر عهدها. إلاَّ أنها كانت عديدة وكثيرة في الأماكن الملاصقة للمدينة. ومن أكثرها أهمية الدير القائم في هيناتون (Enaton) غربي الإسكندرية. وقد بنيت كثير من الكنائس على أطلال المعابد الوثنية، أو داخل مبانيها القائمة. وكان يوجد بالإسكندرية سبع كنائس أو أكثر قبل انتصار قسطنطين في سنة ٣٢٤م. ولم يعرف عنه أنه قام ببناء كنائس في الإسكندرية، إذ لم تكن الإسكندرية عاصمة أو مقرًا لإقامة الامبراطور مثل القسطنطينية. إلاَّ أن خليفته قسطنطيوس الثاني (٣٣٧- ٣٦١م)، صرَّح ببناء كنيسة من أجل الأسقف جورجيوس الأسقف الأريوسي. وأول من اهتم بتعزيز بناء كنيسة الإسكندرية هو البطريرك ثاؤفيلس (٣٨٥-٤١٢م). فأقام مقابر للشهداء وكنيسة على أطلال معبد السيرابيوم الذي هدم في سنة ٣٩١م. وثمة كنيسة أخرى بنيت في موقع السيرابيوم أيضاً، وتحمل اسم الامبراطور ثيودوسيوس. وعلى جزيرة فاروس، كرس ثاؤفيلس كنيسة باسم روفائيل رئيس الملائكة كحام للملاحة بدلاً من إيزيس فاريا (Isis Pharia). والكنيسة الرئيسية في باكر عهد المسيحية بالإسكندرية تقع في الجانب الغربي من المدينة، وتحمل اسم الأسقف ثيوناس (٢٨٢-٣٠٠م). (الموسوعة القبطية: مرجع سابق).

الباب الأول

الفصل الثالث

نشأة المسيحية الأولى في مصر

أ- نشأة المسيحية في الإسكندرية

ب- تأسيس كنيسة الإسكندرية

جـ- ملامح الحياة الرهبانية في العصور الأولى في مصر

د- أدوار هامة لمراكز ثقافية على طول وادي النيل

هـ- المسيحية في بلاد النوبة

تمهيد

فيما يلي نستعرض العديد من الآراء لباحثين في تاريخ المسيحية الأولى في مصر.. ليتسنى لنا من خلال هذه الآراء أن نرسم ملامح المسيحية الأولى على ما كانت عليه.. ويمكننا أن نشبه ذلك بالماكيت (الرسم الأوَّلي) الذي يقوم المعماريون بوضعه (في الحاضر) بغرض تنفيذه (في المستقبل) وإن كان الأمر يختلف مائة وثمانين درجة، فنحن نفعل العكس تماماً.. إذ نحاول (في الحاضر) أن نضع ذلك الماكيت لواقع كان قائماً (في الماضي) من خلال قراءة أوراق تاريخ الكنيسة في مصر في بداية عهدها قراءة مدققة، لندرس كيف نمت وتطورت أفكارها اللاهوتية وتميزت عن سائر الكنائس المعاصرة لها.. وسوف نستعرض ألواناً من الأفكار التي تلقي الضوء على واقع نحاول أن نستجلي حقيقته في ضوء ما هو متاح لنا من معلومات. ففي إطار الاتجاهات العديدة لقراءة التاريخ.. نستعرض -باختصار- الاتجاهات الرئيسية منها. ومن خلال استعراض المستندات التي ترجع إلى القرون الأولى لنتعرف على المسيحية، نجد الكتابات الأبوكريفية التي ضمنتها الدراسة لكي يظهر لنا قوة تواجد الهرطقات المختلفة وأبرزها الغنوسية والتي أفردنا لها دراسة خاصة بها (للمزيد من المعرفة عنها يرجى الرجوع إلى الباب السادس من الجزء الأول من هذه الموسوعة).

أ) نشأة المسيحية في الإسكندرية

نستعرض فيما يلي آراء الباحثين عن نشأة المسيحية في مصر. يرى م. نالديني (M. Naldini) أنه لا تتوفر سوى معلومات ضئيلة عن نشأة المسيحية في مصر، وإن كانت بعض الدلائل تشير إلى أن المسيحية في بدايتها قد عرفت طريقها إلى مصر من خلال الإسكندرية والدلتا. (موسوعة تاريخ الكنيسة الأولى). ونفس هذا الرأي يقول به ولستون ووكر (Williston Walker) إذ يقول: "إننا لا نعرف سوى القليل عن نشأة المسيحية في الإسكندرية، على أنه لابد أن (الحركة) ظهرت هناك في وقت مبكر نسبياً، حيث أن الوقت الذي سمعنا فيه عنها للمرة الأولى كان نحو نهاية القرن الثاني، حيث يبدو أنها كانت قد ترسخت تمامًا. على أن الدليل الذي يمكن تقديمه يفترض أنه منذ البداية قد عُرفت المسيحية في الإسكندرية بين الغنوسيين العقلانيين والمتعلمين، كما عُرفت أيضاً بين البسطاء من المؤمنين المسيحيين الذين لم يكونوا يؤمنون بالديانة المصرية القديمة، والفلسفة التي كان يبدو أنه فيها تتمثل الغنوسية" (ولستون ووكر: تاريخ الكنيسة المسيحية).

يقول م. نالديني: "إننا لا نعرف السبب في صمت كل من كليمندس السكندري وأوريجانوس عن أن القديس مرقس هو المؤسس للمسيحية في مصر". غير أنه يقول: "إن ثمة بعض الافتراضات التي يمكن أن تبرهن بطريق غير مباشر على صحة ذلك". إلاَّ أنه يرد السبب في قلة المستندات وندرتها في هذه المنطقة، إلى ظروف المُناخ، بسبب طبيعة أرض الدلتا الرطبة التي لا تحفظ المستندات. (مرجع سابق).

أما "س. ولفريد جريجز" (C. Wilfred Griggs) فيطرح جانبًا حقيقة صعوبة البحث في هذا الموضوع لعدم وجود أدلة تاريخية فيقول: "إنه ليس من السهل بحث مسألة كيف عرفت المسيحية طريقها إلى مصر وذلك إذا حاولنا البحث في المخطوطات القديمة. والمشكلة ليست في نقص المواد، ذلك أن ثمة الآلاف من المخطوطات والشذرات اكتشفت خلال القرن الماضي. ومن بين المخطوطات المكتشفة، كان الكثير منها ينتمي إلى المسيحية المباشرة في مصر. إلاَّ أنه بالرغم من ذلك لم تكتشف بعد أي مخطوطة يمكنها أن تحدد الوقت الذي تأسست فيه المسيحية في مصر. أو تؤرخ للتطور الديني على طول نهر النيل (ولفريد جريجز: المسيحية الأولى في مصر).

أما "نالديني" فيرى أنه مادامت توجد بعض المخطوطات التي يرجع تاريخها إلى القرنين الأول والثاني، فهذا يعني وجود المسيحية في مصر منذ وقت مبكر.. ويقول: "إنه يعزز من اقتناء المسيحيين لتلك المخطوطات في الإسكندرية، مجيء القديس مرقس إليها، ومفتاح حل تلك الأحجية هو أن هذه المخطوطات تحتوي على الكثير من عناصر من الزهد والنسك كما في إنجيل المصريين"

(الأبوكريفي) (مرجع سابق).

أما عن الإشارات التي وردت في العهد الجديد عن دخول المسيحية إلى مصر، فلا يمكن الربط بين أقدم إشارة تاريخية وردت في إنجيل البشير متى عن مجيء الرب يسوع إلى مصر.. واعتباره تاريخًا للمسيحية في مصر.. ومع ذلك حدثت مثل تلك المحاولات.. إذ ذكرت قصص عديدة عن طفل يجري المعجزات، وتضمنتها أناجيل الطفولة (من الأعمال الأبوكريفية). وقد صُوِّر يسوع في "إنجيل الطفولة" - على سبيل المثال- وهو يصنع المعجزات حتى إبَّان فترة الهروب إلى مصر، أي وهو بعد صبي. أما "إنجيل متى المنحول" فيضم لا قصص معجزات قام بها الصبي فحسب، بل قصة تجديد مدينة بأكملها (مدينة سوتيني وتقع بمنطقة الأشمونين حاليًا بمصر الوسطى). واعتنقت هذه المدينة المسيحية نتيجة معجزة حدثت في معبد مصري.

أما الإشارة الثانية إلى مصر في العهد الجديد فتأتي في سفر الأعمال الأصحاح الثاني، حيث يذكر الكاتب حادثة حلول الروح القدس وتكلم تلاميذ السيد المسيح بألسنة أخرى. ويشير إلى رجال من كل أمة كانوا قد تجمعوا في أورشليم للاحتفال بعيد الفصح وقد ظلوا هناك حتى يوم الخمسين. ونشير هنا إلى نقطتين، الأولى: أن من بين الحاضرين "كان يهود رجال أتقياء من كل أمة تحت السماء ساكنين في أورشليم (أعمال ٢:٥).

وأن من بين الجمهور **"رجال من مصر"** (العدد ١٠). ويذكر "ولفريد" نقلاً عن "بروس" أن اليهود عاشوا في مصر منذ عصر پسماتيك الثاني أي منذ نحو سنة ٥٩٠ ق.م.، وكانوا يزدادون من وقت لآخر. ويؤكد كل من فيلو ويوسيفوس حقيقة وجود الأعداد الكبيرة لليهود في مصرفي ذلك الوقت. وعلى ذلك فإن كثيرين من يهود الشتات كانوا يعيشون في مصر. ولابد أنهم كانوا في أورشليم من أجل الفصح. وعلى ذلك فإن بعض هؤلاء اليهود عادوا إلى أوطانهم وهم يحملون الإيمان المسيحي في قلوبهم.

"ثم أقبل إلى أفسس يهودي اسمه **أبلّوس إسكندري الجنس** رجل فصيح مقتدر في الكتب. كان هذا خبيرًا في طريق الرب وكان وهو حار بالروح يتكلم ويعلم بتدقيق ما يختص بالرب، عارفًا معمودية يوحنا فقط" (أعمال ١٨:٢٥). وقد أضافت مخطوطة بيزا (Bezae) الغربية ثنائية اللغة (D) إلى هذا النص عبارة "وكان قد تعلم في موطنه". ومن هذا النص وتلك الإضافة، يسود اتفاق عام على أن المسيحية لابد وأنها دخلت مصر في نحو سنة ٥٠م. وهذا النص يشير إلى أن أبلوس كان تعليمه صحيحاً، غير أنه لم يكن كافيًا. إذ يُذكر أن بولس أعاد معمودية البعض ممن كان سبق أن علَّمهم أبلوس، لأنهم لم يكونوا قد تعلموا على النحو الصحيح (أعمال ١٩:١-٧).

ونستخلص مما سبق أن المسيحية وصلت إلى

مصر (الإسكندرية على الأقل) في تاريخ مبكر جداً، غير أنه لا يمكن أن يستشف من النصوص المذكورة بعاليه أية تفصيلات عن مدى انتشارها وطبيعتها ومؤسسها.

أما الفقرة الأخرى الوحيدة من العهد الجديد والتي أدركها البعض على أنها إشارة مباشرة تربط المسيحية بمصر، فهي ما ذكر في الرسالة الأولى للقديس بطرس: "تسلم عليكم التي في بابل المختارة معكم ومرقس ابني" (بطرس الأولى ١٣:٥).

وبالنظر إلى أن هناك قلعةً أو حصناً بمصر على مقربة من القاهرة الحديثة، تسمى بابليون، فإن القليلين من المفسرين في العصر الحديث يعتقدون أن بطرس الرسول كان يكتب من هناك، والعلاقة بين القديسين بطرس ومرقس –مؤسس المسيحية في مصر بحسب التقليد– تعد عاملاً رئيسياً في قبول الموقع المصري.

غير أنه توجد معارضة للرأي القائل بأن بابليون –مصر هي ما أشير إليه في رسالة الرسول بطرس الأولى. فثمة رد يقول بأن كنيسة الإسكندرية لم تُدعَ بهذا الاسم. بالإضافة إلى أن بابليون كانت منطقة صغيرة للغاية، الأمر الذي يبدو معه أنه من غير المحتمل أن يكون الرسول بطرس قد جعل مركزه الرئيسي هناك دون أن تترك هذه الحقيقة أي أثر في التقليد المبكر. هذا بالإضافة إلى ما يقوله ولفرد (Wilfred) نقلاً عن بيل (Bell):

"إنه لأمر مشكوك فيه –بالنسبة لتاريخ مبكر كهذا– أن تكون هي بابل فلم تكن أكثر من مركز عسكري. وإذا كنا نأخذ كلمة "المختارة (مؤنث) معكم على أنها تُشير إلى الكنيسة، أم إلى زوجة القديس بطرس، فإنه لا يتوقع وجود أي منهما في معسكر حربي". (ولفريد– مرجع سابق). ومعظم المفسرين يفضلون أخذ كلمة "بابل" على أنها رمز للشر، وأنها اسم مستعار شائع يطلق على روما في الكتابات اليهودية والمسيحية والأبوكريفية التي تعود إلى القرن الأول الميلادي.

أما الأب متى المسكين فيذكر أن في بابليون (مصر القديمة) كانت تقيم أكبر جالية يهودية في الشرق. ودعت موطن غربتها باسم "بابليون" (أي بابل العراق)، حيث تغربوا غربتهم الأولى هناك. (راجع الأب متى المسكين: لمحة سريعة عن: دير القديس أنبا مقار والرهبنة في مصر).

نعود مرة أخرى للاكتشافات الحديثة التي تلقي الضوء على تاريخ المسيحية في مصر حيث اكتُشف العديد من المستندات التي تؤكد وجود المسيحية في مصر في عهد مبكر، فقد اكتُشفت كثير من المخطوطات المسيحية الكتابية وغير الكتابية (الأبوكريفية) في مواقع كثيرة على طول وادي نهر النيل وتشمل نصوصاً للعهدين القديم والجديد. ومخطوطات تكشف عن الغنوسية والمصادر الخاصة بها والتي ترجع إلى القرنين

الأولين. ويؤكد س. هـ. روبرتس (C.H. Roberts) أن الكميات الكبيرة من البرديات تشير إلى أن القراءة والكتابة في القرن الأول الميلادي كانت منتشرة بين جميع طبقات المجتمع في العالم الإغريقي.. وفي أوساط المسيحيين المتعلمين في أرجاء مصر..

تستحق البرديات المكتشفة أن نفرد لها دراسة مستقلة، إلاَّ أننا نذكر هنا بعض البرديات التي تلقي الضوء على دخول المسيحية إلى مصر في وقت مبكر: المخطوطة التي اكتشفت في سنة ١٩٢٠م في البهنسا أو في الفيوم والتي تحتوي على شذرات من إنجيل يوحنا (يو ١٨:٣١-٣٣، يو ١٨:٣٧-٣٨) والمعروفة ببردية رايلاندز (Rylands) وترجع أهميتها إلى أنه بالدراسة المدققة وجد روبرتس، أنها يمكن أن ترجع إلى الربع الأول من القرن الثاني، بل وربما يرجع تاريخها إلى ختام القرن الأول الميلادي. وإذا كان إنجيل يوحنا -كما هو معروف- قد كتب في أفسس أو على مقربة منها، فإن هذه البردية تعتبر دليلاً دامغًا على أن المسيحية دخلت إلى مصر في تاريخ مبكر (على الأقل في الجزء الأخير من القرن الأول. وكذلك توجد مخطوطات أخرى معروفة مثل مخطوطات بودمر (Bodmer) ومخطوطات تشستر بيتي (Chester Beetty)، وترجع نسبتها إلى منطقة مصر الوسطى (ما بين الفيوم إلى أخميم). وبرديات البهنسا وهي تضم نصوصًا كتابية مسيحية يرجع تاريخها إلى القرن الثاني الميلادي وما بعد ذلك.

والدراسة التي قام بها روبرتس لقائمة من الشذرات باليونانية الخاصة بالكتاب المقدس وتحتوي على ما لا يقل عن ١١٦ شذرة أو جزازة، وترجع ثمانية نصوص منها إلى القرن الثاني، وبعضها يرجع إلى القرنين الثالث والرابع إلى جانب نصوص كتابية أخرى يرجع تاريخها إلى القرن الثاني الميلادي. وأهمية هذه النتائج هي أنها تؤكد وجود المسيحية في مصر في وقت مبكر، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، تؤكد أن المسيحية لم تقتصر جغرافيًا على مدينة الإسكندرية، وإنما انتشرت على طول وادي نهر النيل.

وقد نشرت بردية في عام ١٩٣٥ لنص مسيحي هام لا يتعدى تاريخه منتصف القرن الثاني الميلادي. وهي شذرات "لإنجيل أبوكريفي غير معروف" (بردية إجرتون ٢) (P. Egerton 2). والشذرات الثلاث المتبقية من هذه المخطوطة تبين الصلة القوية بينها والأناجيل القانونية الأربعة، ولاسيما إنجيل يوحنا. والنص ليس مجموعة من أقوال السيد المسيح بل يتضمن أجزاءً عن أربع فترات في حياة السيد المسيح. وأول هذه الأجزاء يميل إلى أسلوب إنجيل يوحنا. ويتناول المواجهة بين يسوع والناموسيين. والفقرة التالية توضح مدى الشبه الشديد بين "الإنجيل غير المعروف" وإنجيل يوحنا القانوني:

"فتشوا الكتب التي تظنون أن لكم فيها حياة، هي تشهد لي. لا تظنوا أني أتيت لأشكوكم أمام أبي، يوجد من يشكوكم وهو موسى الذي وضعتم فيه رجاءكم"، وحين قالوا، "نحن نعلم جيداً أن موسى كلَّم الله، ولكننا لا نعلم من أين أتيت"، أجابهم يسوع، "الآن ثبت عدم إيمانكم".. (شذرة من الإنجيل غير المعروف).

"فتشوا الكتب لأنكم تظنون أنَّ لكم فيها حياة أبدية، وهي التي تشهد لي". (يوحنا ٥:٣٩). "لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب. يوجد الذي يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم" (يو ٥:٤٥). "نحن نعلم أن موسى كلَّمه الله. وأما هذا فما نعلم من أين هو". (يو ٩: ٢٩). (الإنجيل القانوني).

وهذه الفقرات دليل أكيد على أن كاتب "الإنجيل غير المعروف" قد اطَّلع على إنجيل يوحنا القانوني. بل يبدو أنه أخذ عنه عدة فقرات، ثم صاغ منها قصة جديدة مترابطة ومماثلة، ولم يأخذ النص كما هو. ويُعتقد أن "الإنجيل غير المعروف" أقرب إلى التقليد الكتابي منه إلى الكتابات الأبوكريفية التي يغلب أنها كتبت في القرنين الثاني والثالث -وغير معروف على وجه اليقين مصدر بردية (إجرتون ٢) إلاَّ أنه يمكن استنتاج ذلك، حيث أن عدداً كبيراً من البرديات قد تم الحصول عليه من البهنسا، فيرجح أنه قد تم الحصول عليها من هذا المكان.

اكتشف "جرينفل" (Grenfell) وهنت (Hunt) في الحفريات التي قاما بها في سنة ١٨٩٧م في البهنسا مجموعة كبيرة من البرديات اليونانية التي يرجع تاريخها إلى العصر الأول حتى القرن السابع الميلادي، ومن بينها صفحة من كتاب "أقوال يسوع". وفي سنة ١٩٠٣م عادا لإجراء المزيد من الحفريات فوجدا شذرة أخرى من كتاب "أقوال يسوع" وكانت هذه الصفحة عبارة عن خلفية لقائمة تحمل إحصائيات لقطع مختلفة من الأرض، ويرجع تاريخ كتابتها إلى نهاية القرن الثاني أو بداية القرن الثالث الميلادي. ووجدت ثماني شذرات من لفائف البردي في البهنسا، ونشرت في سنة ١٩٠٤م. ووصفت بأنها تكملة لأقوال يسوع، ويرجع تاريخها إلى القرنين الثاني أو الثالث. وهي تتشابه كثيراً مع الأناجيل الثلاثة الأولى.

ومنذ أُكتُشف "إنجيل توما" القبطي في مخطوطات نجع حمادي في نحو سنة ١٩٤٥م، وثمة استنتاج أن الشذرات التي اكتشفت في البهنسا كانت تمثل أصلاً يونانياً للترجمة القبطية الأخيرة "لإنجيل توما" (الأبوكريفي). ولكن يرى شنيملخر (Schneemelcher) أنه نظراً لأن البرديات الثلاث لم تؤخذ من نفس الكتاب، فإنه يجب أن نأخذ تجانسها بشيء من التحفظ قبل اكتشاف النص القبطي. وبعد دراسة قام بها اكتشف أن أقوال يسوع في بردية (البهنسا ١) ليست هي الأصل اليوناني للنسخة القبطية. كما أن الإنجيل

القبطي يمثل ترتيباً جديداً للأقوال، أو لعل النصين كليهما مُستمدان من مصدر مشترك أو متشابه. وعلى أي حال، فإن تاريخ نص البهنسا يرجع للقرن الثاني، والقرنين الثاني أو الثالث بالنسبة للترجمة القبطية. أما الأقوال الأخرى لبردية (البهنسا ١) فتتشابه مع كل من "الأناجيل الثلاثة الأولى" و "إنجيل توما"، وهنا أيضاً يوحي الأمر بمصدر مشترك أو متشابه بالنسبة لها معًا. والصلة بين مخطوطة (البهنسا١) والنصوص التي ذكرت (إنجيل توما والأناجيل المتشابهة) تشبه الصلة بين شذرات إنجيل بردية إجرتون وأناجيل العهد الجديد التي ذكرت آنفاً. والنصوص التي ذكرت في كل مثال تاريخها كان سابقًا لما كان متوقعًا، إذا ما كانت المصادر التي ذكرت قد نُقلت إلى مصر، وهناك أعيدت صياغتها بصفة جذرية إلى شكل جديد.

أما بردية (البهنسا ٦٥٤) فتتشابه مع نص "إنجيل توما" إلى حد بعيد، بأكثر مما عليه الحال بالنسبة لبردية (البهنسا ١)، غير أن النص اليوناني متقطع كثيراً. ومن الواضح أن كلا النصين يهدفان إلى تقديم خدمة يسوع الحي (أي بعد القيامة). ويرى ولِفرد أن هذا الموضوع شائع في كثير من النصوص المسيحية التي وجدت في مصر.

أما بردية (البهنسا ٦٥٥) فإنه نظراً لتمزقها الشديد فإنه من المستحيل القيام بتحليل مماثل، إلا أن نص الشذرة رقم ٢، يبين بعض الصلات بإنجيل توما.

نسب "بل" (Bell) بردية (البهنسا ٤٠٥) إلى تاريخ قريب من سنة ٢٠٠م.، ويرد كل من "جرينفل" و "هنت" تاريخها إلى الجزء الأخير من القرن الثاني. وليس بعد النصف الأول من القرن الثالث. وهي جزء من النص اليوناني لكتاب إيريناوس "ضد الهرطقات".

ويذكر "روبرتس" ملاحظة جديرة بالذكر عن أهمية هذا النص فيقول: "كتب إيريناوس عمله في سنة ١٨٠م في مدينة ليون، وعلينا من هذه الشذرة أن نتعرف لا على أول شذرة من مخطوطة مسيحية أدبية معاصرة فحسب، بل نجد فيها دليلاً أيضاً على الانتشار الفوري لهذه الهجمة القوية على الغنوسية (ارجع إلى الباب السادس من الجزء الأول) بين الكنائس المصرية، ومع ذلك فهي تمثل شاهداً آخر على العلاقة الوثيقة القائمة بين كنيسة الإسكندرية والغرب". (المرجع السابق).

نخلص مما سبق إلى أن المخطوطات التي وجدت في مواضع عديدة من مصر تبرهن على أن المسيحية قد وصلت إلى الإسكندرية مع منتصف القرن الأول أو بعد ذلك بقليل.. وأن بعض تلك اللفائف أو البرديات توضح أيضاً الوجود القوي للغنوسية، كما تبين الردود القوية عليها ومواجهتها.. غير أن هذه الوثائق لم تذكر شيئاً عن

مؤسس المسيحية في مصر.. أو كيف عرفت المسيحية طريقها إلى مصر منذ ذلك العهد المبكر من تاريخ المسيحية.

ب- تأسيس كنيسة الإسكندرية

أما التقليد المعروف بأن مرقس البشير هو مؤسس المسيحية المصرية فقد كان يوسابيوس هو أول من سجل ذلك:

"ويقولون إن مرقس هذا كان أول من أُرسل إلى مصر، وأنه نادى بالإنجيل الذي كتبه، وأسَّس الكنائس في الإسكندرية أولاً". (يوسابيوس- تاريخ الكنيسة ٢: ١٦: ١).

إلاَّ أن يوسابيوس لم يقدم أي دليل من المصادر المبكرة لإثبات هذا التقليد الذي استمر منذ أيام يوسابيوس وحتى أيامنا هذه. غير أن عبارة "يقولون" إذا كان استخدامها هنا في إطار شخصي، فلابد أنها تشير إلى كليمندس وباپياس، اللذين ذُكرا باعتبارهما مصدر المعلومات الواردة في العبارة السابقة.. ولكن في سنة ١٩٥٨م اكتشف خطاب مفقود كان مرسلاً من كليمندس السكندري إلى تيودور ذكر فيه كليمندس أن مرقس البشير سافر من روما إلى الإسكندرية بعد موت بطرس الرسول. كما ذكر أيضاً في الرسالة أن مرقس كتب في الإسكندرية إنجيلاً أكثر روحانية في تعليم المؤمنين والسماح لهم بالاشتراك في الأسرار المقدسة. ويدعم كليمندس الافتراض القائل بوجود مجتمع للمسيحية في الإسكندرية، لم يعرف مثله في العالم. وقيمة هذا الدليل الذي يرجع إلى أصول مسيحية مبكرة في مصر يعتمد على درجة قبول الرسالة باعتبار أن كليمندس هو فعلاً كاتبها. والغالبية العظمى ممن كتبوا في هذا الموضوع يعتقدون أن خطاب كليمندس حقيقي. (المرجع السابق).

يذكر البابا شنودة الثالث أن القديس مرقس ذهب يبشر بالإيمان أولاً في مسقط رأسه أي في الخمس المدن الغربية وكان ذلك نحو سنة ٥٨م. ثم بعد ذلك جاء إلى مصر في سنة ٦١م. ثم عاد مرة أخرى إلى الخمس المدن الغربية ليفتقد المؤمنين فيها، فوصل إليها في سنة ٦٣م أو سنة ٦٥م (يرجح الأخير). حيث قضى هناك سنتين يكرز باسم المسيح. ونظم الكنيسة هناك وأقام أساقفة وقسوساً وشمامسة. ثم ودع أهلها الوداع الأخير وذهب ليكمل عمله المسكوني مع بولس الرسول. ثم عاد إلى مصر بعد استشهاد بولس الرسول (راجع الباب شنودة الثالث: مرقس الرسول).

ويذكر دكتور عزيز سوريال افتخار الأقباط بأن كنيستهم الوطنية أسسها القديس مرقس، أحد البشيرين الأربعة وكاتب الإنجيل القانوني الذي استخدمه كل من القديس متى والقديس لوقا وربما القديس يوحنا. ويعتبره الأقباط هو البطريرك الأول المؤسس لكنيستهم. ويعد القديس مرقس الأول في عداد الشهداء في مصر. (د. عزيز سوريال مرجع

سابق).

وكتاب سيَر الآباء البطاركة لساويرس بن المقفع (القرن العاشر) أسقف الأشمونين بمصر الوسطى، كتبه بالعربية من مصادر قبطية قديمة. يبدأ بسرد موسع عن سيرة حياة الإنجيلي وأول بطريرك. (البابا شنودة الثالث، ودكتور عزيز سوريال:- مرجعان سابقان).

نشأة القديس مرقس

كان القديس مرقس ينتمي إلى عائلة يهودية، فكل من والديه كانا يهوديين، فأبوه أرسطوبولس هو ابن عم أو ابن عمة زوجة بطرس الرسول. وأمه مريم، كانت إحدى المريمات اللائي تبعن يسوع. وكانت إحدى المريمات اللائي ذهبن إلى القبر. وكانت موسرة، لذلك أحسنت تثقيفه فتعلم اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية وأتقنها وبرع فيها. وولد في القيروان، وفي الخمس مدن الغربية. وفي أعقاب هجوم قبائل البربر على بلادهم قرر والداه الرحيل إلى أورشليم. وكانت عائلته شديدة التدين. وقد عرف المسيحية عن طريق القديس برنابا. والقديس مرقس هو "ابن أخت برنابا" (كو ٤:١٠) أو "ابن عم برنابا" حسب الترجمات اليونانية واللاتينية والعبرية. كما أنه عرف كلاً من القديسين بطرس وبولس جيداً. بل وفوق كل ذلك، رافق يسوع، حيث تردد على بيته أكثر من مرة، وصار مرقس أحد تلاميذ الرب السبعين.

القديس مرقس: أحد السبعين رسولاً

يرى بعض الباحثين أنه لا يوجد أي دليل على أن القديس مرقس كان أحد السبعين رسولاً لأنه لم يَرد في كتابات الآباء الأولين ما يؤكد ذلك (أضواء على الإصلاح الإنجيلي: د.ق. فايز فارس).. بينما يقول البابا شنوده الثالث في كتابه عن القديس مرقس إن جميع مؤرخي الأقباط في كافة عصورهم أجمعوا على أن مارمرقس الرسول كان من السبعين رسولاً، لا فقط كُتَّاب العصر الحاضر، بل مؤرخو العصور الوسطى أيضاً. مثل ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين (القرن العاشر) في كتابه تاريخ البطاركة. وقد وضعه ابن كِبر في قائمتين بأسماء السبعين رسولاً إحداهما نقلاً عن الأصل القبطي، والثاني نقلاً عن اليوناني وذلك في كتاب مصباح الظلمة. وكذلك كل من ابن الصليبي أسقف أمد (١١٤٩م) والقديس أبيفانيوس أسقف قبرص في كتابه ضد الهرطقات (٥١:٥). وذكرها قبله العلامة أوريجانوس في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث في كتابه عن الإيمان بالله فقال إن مرقس كان من تلاميذ الرب السبعين الذي شرفهم بالرسالة (البابا شنودة الثالث: مرجع سابق).

وحتى بعد صعود السيد، اجتمع التلاميذ في بيت أم يوحنا الملقب مرقس (أعمال ١٢:١٢). وهناك حلَّ الروح القدس عليهم. وحيث أصبح فيما بعد أول كنيسة مسيحية في التاريخ. (راجع البابا شنودة الثالث: مرقس الرسول ود. عزيز سوريال: تاريخ الكنيسة

الشرقية).

ويذكر يوسابيوس المؤرخ القيصري نقلاً عن بابياس (٦-١٣٠م) أسقف هيرابوليس من أعمال آسيا الصغرى أن القديس مرقس قام بالترجمة للقديس بطرس، الصياد البسيط، وذلك عندما كانا معًا في روما. وهذا لا يعني أنه سجل له وحده ذكرياته عن يسوع، وإنما من المتوقع أن كل التلاميذ ساهموا بقدر من التفاصيل عن طريق المعلومات الشفوية التي تناقلوها فيما بينهم من أقوال السيد المسيح وأعماله. فالإنجيل يحتوي على مصادر للشهادة عن طريق شهادة كل من بطرس وبولس، وأن القديس مرقس كتب الإنجيل باللاتينية أو باليونانية، وربما بكلتيهما. ويؤكد القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) أن القديس مرقس كتب الإنجيل في مصر باليونانية. وهناك فكرة تقول بأن الإنجيل كتب بعد استشهاد الرسولين بطرس وبولس، غير أن هذا الأمر موضع جدل، إذ قيل إن الإنجيل ظهر بعد اثنى عشر عامًا من الصلب، أي في عام ٤٥م. وأن استشهاد الرسولين حدث خلال حكم نيرون (٥٤- ٦٨م) ويحتمل أنه حدث عام ٦٤م. وأيًا كانت الحقيقة، فمن المؤكد أن القديس مرقس حمل معه الإنجيل إلى الإسكندرية. وبرغم أن النسخة اليونانية كان من المكن أن تفي بالغرض، الذي كتب الإنجيل من أجله، في مدينة الإسكندرية، فإنه من المحتمل أنه قد ظهرت نسخة أخرى باللغة المصرية القديمة وذلك لتفي بالغرض الذي من أجله كتب الإنجيل لنفع من آمنوا من أهل المدينة ممن لم يكونوا على دراية باليونانية. (د. عزيز سوريال عطية مرجع سابق).

لم يكن القديس مرقس يعرف التعب أو الكلل. فقد صاحب بولس وبرنابا إلى أنطاكية، ثم عاد إلى أورشليم، وسافر بعد ذلك إلى قبرص في صحبة برنابا. وكان رفيقًا لبطرس في روما، وقال الرسول بطرس عنه "مرقس ابني" (بطرس الأولى ٥:١٣). كان مجال عمل بطرس في أفريقيا. فأولاً: عبر البحر المتوسط إلى كيرانايكا (القيروان حاليًا) ومنها إلى بنتابوليس (الخمس المدن الغربية- بليبيا حاليًا). حيث كان يقيم بها والداه في سالف الأيام. وكانت هذه المدينة يحتلها اليونانيون وبعض اليهود. وبعد أن أجرى بعض المعجزات وبذر بذار الإيمان، ذهب إلى الإسكندرية عن طريق الواحات وبابليون، أو القاهرة القديمة. كانت الإسكندرية في الشرق تناظر روما، كلاهما لها أهميتها ولكونها معقل الوثنية. ولذلك كان على المسيحية أن تكسبهما. كان الأمر يستحق ذلك إلا أنه لم يكن يخلو من المخاطرة.

تاريخ مجيء القديس مرقس إلى الإسكندرية

دعنا الآن نناقش مسألة التواريخ. يذكر كتاب تاريخ البطاركة بوضوح أن الإعلان لبطرس ومرقس أنهما يجب أن يذهبا إلى روما والإسكندرية كان بعد خمسة عشر عامًا من صعود

السيد المسيح، أي نحو سنة ٤٨م. وثمة آراء أخرى ترى أن البشير مرقس جاء إلى الإسكندرية في إحدى السنوات التالية (٥٥م أو ٥٨م أو ٦١م) (د. عزيز سوريال عطية: مرجع سابق). ويذكر الأب متى المسكين أن مرقس الرسول جاء إلى الإسكندرية ليؤسس أول كنيسة بها في سنة ٤٣م. (الأب متى المسكين: دير القديس أنبا مقار). أما البابا شنودة الثالث فيقول:

"ما أصعب وما أشق تتبع التواريخ في حياة آبائنا الرسل! ويندر أن نجد تاريخًا دقيقًا في أرقام سنواته كل الدقة، إنما هي محاولات يبذلها المجتهدون فيصلون بعد كد إلى تواريخ تقريبية". يرى أن سنة مجيء مارمرقس إلى مصر "هي مشكلة عند المؤرخين القدامى والمعاصرين. لما بدأ مارمرقس خدمته منفرداً، ذهب إلى الخمس مدن الغربية أولاً، وقضى فيها سنوات. وقد يكون وصل إلى هناك بين سنتي ٥٥م، ٥٨م، وغالبًا يكون قد وصل إلى الإسكندرية سنة ٦٠م أو ٦١ م. (البابا شنودة الثالث: القديس مرقس).

وأيًا كان التاريخ الصحيح لمجيء مرقس إلى المدينة، فإن الأراء تجمع على أنه استشهد في سنة ٦٨م. وبين هذين التاريخين فإن مرقس البشير استطاع أن ينجز مهمته وأن يكرز ليكسب مؤمنين كثيرين.

وثمة قصة تقول بأنه عند دخوله إلى المدينة من البوابة الشرقية، انقطع سير حذائه، فذهب إلى إسكافي ليصلحه، الذي أمسك بمخرز ليبدأ في إصلاحه. فانغرس المخرز في يده فصرخ بصوت عالٍ قائلاً: "يا الله الواحد". ففرح مرقس بما تلفظ به الإسكافي. وبعد أن شفاه بطريقة معجزية، تشجع مرقس وتكلم مع الرجل الذي كان شغوفًا ليسمع من مرقس، وليصبح أول من آمن برسالته. كان هذا هو أنيانوس (Anianus)، الذي خلف القديس مرقس ليكون البطريرك الثاني للإسكندرية. لقد انطلقت الشرارة حيث اصطحب أنيانوس القديس مرقس إلى بيته. واعتمد هو وأهل بيته ثم تبعه كثيرون. ونجحت مهمة مرقس إذ انتشرت الكلمة حتى إن جليليًا كان في المدينة وأخذ يعد نفسه لكي يهدم التماثيل الوثنية. وبدأ شعور عام يظهر، وكانوا يطلبونه في كل مكان. وبدأت تفوح رائحة الخطر. لذلك رسم القديس مرقس أنيانوس أسقفًا مع ثلاثة كهنة وسبعة شمامسة ليرعوا الشعب في حالة إذا ما أصابه مكروه. بعد ذلك، يبدو أنه قام برحلتين. الأولى: إلى روما حيث التقى ببطرس وبولس. وأنه ترك المدينة بعد استشهادهما في ٦٤م. حيث أقام عند أكيلا بالقرب من ڤينيسا قبل عودته إلى الإسكندرية. ومن أجل توطيد إيمان رعيته، قرر أن يسافر إلى بنتابوليس، حيث قضى عامين يجري معجزات، ويرسم أساقفة وكهنة، ويقبل كثيرون إلى المسيحية على يديه. وأخيراً عاد إلى الإسكندرية، حيث امتلأ بالفرح ليجد تضاعف أعداد المؤمنين لدرجة أنهم

تمكنوا من أن يبنوا كنيسة كبيرة في منطقة بوكليا و(أبوكاليا) (ضاحية أبي قير) على شاطيء البحر. (راجع د. عزيز سوريال عطية- مرجع سابق).

أثار انتشار الشائعات بأن المسيحيين يهددون بهدم وتحطيم تماثيل الآلهة الوثنية آثار ضغينة الوثنيين. حيث كانت النهاية تقترب. فوقع القديسون في أيدي من يعادونهم من الوثنيين. ففي عام ٦٨م، وقع عيد القيامة في نفس يوم الاحتفال بسيرابيس. فاجتمعت الجماهير الهائجة في معبد السيرابيوم ثم ذهبوا إلى المسيحيين حيث كانوا يحتفلون بعيد القيامة في كنيسة بوكاليس. اقتيد القديس مرقس، الذي ربط بحبل حول رقبته وجروه في الشوارع، حتى الليل، حيث احتجزوه حتى صباح اليوم التالي، وكرروا معه ما أحدثوه به من عذابات في اليوم السابق. إلى أن أسلم الروح. كان جسده يدمي، وقد تمزق. وكانوا ينوون إحراق ما تبقى من جسده. إلا أن هبوب الرياح الشديدة وسقوط الأمطار الغزيرة، جعل الجماهير تتفرق. فحمل المسيحيون جسده خلسة ودفنوه سراً في قبر نحتوه في الصخر يقع أسفل مذبح الكنيسة.

في القرون التالية، ظل جسد القديس في كنيسة بوكاليا في الأيام الأخيرة للانقسام بين اليعقوبية (أصحاب الطبيعة الواحدة) والروم الملكين (أصحاب الطبيعتين) والمعروفون بالروم الأرثوذكس، حيث كانوا يسيطرون على الكنيسة في ذلك الوقت. وفي نحو سنة ٦٤٢م هوجمت الكنيسة وسلبت، وسرقوا رأس القديس (د. عزيز سوريال عطية، الباب شنودة: مرجعان سابقان). ومع حلول السلام في المدينة عادت الكنيسة وما تبقى من الجسد إلى أيدي الملكيين إلا أن رأس القديس أعادوها إلى الحاكم العربي عمرو بن العاص، الذي تنازل عنها إلى بنيامين (٣٨) البطريرك القبطي إلا أن ثمة قصصًا عديدة عن نقل جسد القديس إلى ڤينيسيا ومنها أن تجاراً من ڤينسيا (البندقية) استولوا على جسد القديس بدون الرأس في سنة ٨٢٨م. حيث هربوها في حوض به خنزير محفوظ وذلك لكي يتجنبوا المفتشين المسلمين. وبهذه الطريقة فإن ڤينيسيا حصلت على لقب آخر هو جمهورية القديس مرقس (راجع د. عزيز سوريال عطية: مرجع سابق). (وتوجد قصص أخرى يذكرها البابا شنودة في كتابه يمكن الرجوع إليه).

الملكيون

يذكر البابا شنودة الثالث في كتابه مرقس الرسول، أن سبب تسمية الروم الأرثوذكس أو أصحاب الطبيعتين، بالملكيين هو أن الملوك كانوا في أيديهم، أو كانوا هم في أيدي الملوك. (مرقس الرسول: ص ٧٢).

انتظر المسيحيون في الإسكندرية فرصة مواتية

بعد استشهاد القديس مرقس. فقد سلكوا في هدوء دون أن يحدثوا جلبة، تجنبًا للمشاكل التي يمكن أن تحدث. ولذلك لا تذكر معظم المراجع أي أحداث من هذا النوع خلال القرن الثاني.

ويذكر كتاب تاريخ البطاركة قائمة البطاركة العشرة الأوائل (٦٨– ١٨٨م) ولا يذكر عنهم سوى رسامتهم ووفاتهم. ولا يذكر أي تفاصيل حتى البطريرك الثاني عشر.

الترتيب	الاسم	الفترة التاريخية
البابا الأول	القديس مرقس الرسول	(٦١ – ٦٨ م)
البابا الثاني	أنيانوس	(٦٨ – ٨٣ م)
البابا الثالث	ميليوس	(٨٣ – ٩٥ م)
البابا الرابع	كردونوس	(٩٥ – ١٠٦ م)
البابا الخامس	أبريموس	(١٠٦ – ١١٨ م)
البابا السادس	يسطس	(١١٨ – ١٢٩ م)
البابا السابع	أومانيوس	(١٢٩ – ١٤١ م)
البابا الثامن	مارقيانوس	(١٤١ – ١٥٢ م)
البابا التاسع	كالاوتيانوس	(١٥٢ – ١٦٦ م)
البابا العاشر	أغريبينوس	(١٦٦ – ١٧٨ م)
البابا الحادي عشر	يوليانوس	(١٧٨ – ١٨٨ م)
البابا الثاني عشر	ديمتريوس الأول	(١٨٨ – ٢٣٠ م)

اضطهاد سبتميوس ساويرس

كان البابا ديميتريوس الأول والمعاصر لأوريجانوس، هو أول من شاهد تبني الدولة لاضطهاد المسيحيين من المصريين. حيث أصدر الامبراطور سبتميوس ساويرس (١٩٣ - ٢١١م) مرسومًا يقضي بأنه يجب أن يتوقف فوراً وبكل السبل التحول إلى المسيحية. وقد طبق المرسوم الذي أصدره لهذا الغرض في سنة ٢٠٢م بكل قوة وشدة في مصر. وذلك دون اعتبار للاختلافات بين المصريين واليونانيين واليهود. وأغلقت مدرسة الإسكندرية على الرغم من أن مريديها كانوا يلتقون في أماكن أخرى. وقد رفض المصريون الامتياز الممنوح لليهود وحدهم، إذ أعفاهم من التبخير لتمثال الامبراطور، وقد اعتبر رفض الإذعان لهذا الأمر علامة لعدم الولاء للامبراطور، فقادوا كل الرافضين للتبخير لتمثال الامبراطور إلى الإسكندرية من كل الأنحاء، حيث كان ينتظرهم عقابًا فظيعًا. فبعض الشهداء قطعت رؤوسهم، والبعض أُلقي للأسود، أما البعض الآخر فقد أشعلوا فيهم النيران وهم بعد أحياء. إلاَّ أن الجميع كانوا مستهدفين للعذابات الشديدة القاسية دون النظر إلى العمر أو الجنس. وقد فقد أوريجانوس والده ليونيداس في هذه المذبحة، ولكنه هو نفسه أنقذته والدته التي أخفت عنه ملابسه لتمنعه من الخروج للاستشهاد (راجع سيرة أوريجانوس في موضعها من هذا الباب). غير أن مجهودات الامبراطور ذهبت أدراج الرياح، إذ ازداد عدد الأساقفة إلى عشرين أسقفاً -في نهاية فترة حكمه- بعد أن كان عددهم ثلاثة أساقفة فحسب.

اضطهاد دسيوس

اتسمت الفترة التي أعقبت ذلك بالهدوء حيث لم يبال الامبراطور بالاختلافات الدينية، على الرغم من ذلك ظل اضطهاد المسيحيين أمرًا ثابتًا في السياسة الرسمية للحكام.

أمام الموجة الثانية العاتية من الاضطهاد التي لاطمت مصر فقد وقعت في بحر حكم دسيوس القصيرة (٢٤٩- ٢٥١م). إذ شعر الامبراطور بالتهديد من جراء انتشار المسيحية، فأصدر مرسوماً في سنة ٢٥٠م يلزم كل مواطن بأن يحصل على شهادة من الحاكم المحلى تدل على أنه أدَّى الطقوس للآلهة الوثنية. وكان العذاب الضاري الذي لم يسبق له مثيل من نصيب أولئك الذين لم يذعنوا لهذا الأمر.

اضطهاد ڤاليريانوس

فاستشهد الآلاف في القرى بالإضافة إلى مدينة الإسكندرية. وقد استمر الاضطهاد بكامل ضراوته في أيام حكم خليفته ڤاليريانوس (ڤاليريان) (٢٥٢- ٢٦٠م)، ولذلك تراجع بعض

المسـيـحـيين لينقـذوا أنفـسـهم. أمـا البطريرك ديمتـــريوس (٢٤٦- ٢٦٤م) الذي ظل هـاربًا كل الوقت، فقد اتبع سياسة فيها الكثير من التساهل عن سابقيه بقبول المرتدين لمجرد توبتهم.

التسامح الديني

في عام ٢٦٢م بدأ المسيحيون يشعرون ببعض السـلام في أيام حكم الامـبـراطور جـالينوس (Gallienus) (٢٥٣- ٢٦٨م) الذي واجـه المتـاعب فأصدر مرسومًا عن التسامح الديني. وربما للمرة الأولى التي يسمح فيـها للمسـيحـيين بممـارسـة عـبادتهم بحـرية حـيث سـمح للكنائس بأن تفـتح أبوابها للمسيحيين، وتم تعويضهم عن ما سبق أن صودر من أملاكهم. وكان لهذا الأمر تأثيره الذي خـفف الكثـيـر من مـعـاناة المسـيـحـيين ورفـع من حـمـاسـتـهم ليـعـيدوا بناء مـا سـبق أن تـهـدم من الكنائس وليضيفوا إليها ما هو أكثر وأروع منها.

اضطهاد دقلديانوس

لم تدم طويلاً تلك الحالة، فـسـرعـان مـا ظـهـرت رسمياً حالة عدم الثقة مرة أخرى، بل ازدادت حدة من خـلال الحكم المطلق في رومـا. وهكذا تـغـيـر المشـهـد تمامًـا إبان حكم الامـبـراطور دقلديانوس (٢٨٤- ٣٠٥م). وهو يعتبر في رأي الأقباط حتى اليوم ذروة عصر الاضطهاد.

إلاَّ أنه من باب العدل أن نذكر لدقلديانوس أنه بدأ حكمه في مصر بشهامة غير عادية. فقد حصَّن البوابة الجنوبية للقطر، (أسوان حاليًا) وذلك لكي يحمي جنوبي مصر من غزو البليمس (Blemyes) من النوبة.

في الإسكندرية، تمرد قـائد الفـيلق الرومـاني ويدعى لوسـيـوس دومـيـتـيوس دومـيـتـيـانوس، والمعروف بأخيليوس وأعلن نفسه امبرطوراً. وكان رد فعل دقلديانوس سريعًا حيث تحرك على الفور وذهب إلى الإسكندرية بنفـسـه وحـاصـرها لمدة ثمانية أشهر واستولى عليها بعد هجوم ضارٍ، وقد نتج عن ذلك تدمـيـر أجـزاء من المدينة. وأصـاب الكسـاد تجـارتهـا بسـبب عـدم اسـتـقـرارهـا. وحل المرض والفـقـر بالمدينة حـتـى أنقـذ دقلديانوس الموقف، وقـد حـوَّل بعض مـحـصـول القـمـح إلى الإسكندرية بدلاً من رومـا. ولذلك فقد حـفظوا له الجـميل بأن خلَّدوا ذكراه في الإسكندرية بإقـامـة عمـود ضـخـم من الجرانيت أنشيء عليه تمثـال من البـرونز للإمـبـراطور، ولكن لا يوجـد أثر للتـمـثـال الآن.

كـان دقلديانوس يرغب في المزيد. فكان يهـدف من خـلال حكمه الأوتوقراطي إلى توحيد كل أنحـاء الامبراطورية. ولذلك كانت المسيحية عقبة كؤود في سبيل تحقيق سياسته، وكان المسيحيون يزدادون في العـدد إلى الحـد الذي يمثل خطورة. وفي عـام ٣٠٢م بدأ يطرد أي جندي من الفـيلق يرفض أن

يذبح للآلهة الرومانية. وفي العام التالي أصدر العديد من المراسيم حيث أوجب تدمير الكنائس المسيحية وإهمال الأدب المسيحي ومحوه، ومصادرة الأملاك المسيحية، وطرد كل المسيحيين من مكاتب الدولة في كل أنحاء الامبراطورية. وقد منع أي لقاءات أو اجتماعات للمسيحيين، ومن يخالف الأمر يجب أن يعاقب بالقتل.

غير أنه لم يعد المسيحيون -في ذلك الوقت- مجرد حفنة أو أقلية، فقد أصبح عددهم كبيراً، وعندما أرادوا أن يستقلوا بإرادتهم، وجَّه لهم القانون الروماني ضرباته بدون رحمة. وكانت النتيجة حركة مرعبة من الاضطهاد والاستشهاد. واختلفت قوتها من بلد إلى آخر. ولكن كان لمصر النصيب الأكبر منها.

كانت الأعمال الوحشية ضد المسيحيين يقوم بها رجال الامبراطور، فكانوا يبترون أعضاءً من أجسادهم ويمثلون بجثثهم، ويفقأون أعينهم، وكانوا يحرقونهم ويبتدعون الوسائل للتنكيل بهم. ويعذبونهم ببطء، أما قطع الرأس في الحال، فكانت تعد من أعمال الرحمة وامتيازاً نادراً ما يحدث. كان المحتجزون يموتون من شدة العذابات، وكان بعضهم يرتد نتيجة للوحشية البالغة، إلاَّ أن عددهم كان أقل مما كان عليه في الاضطهادات السابقة. وكثير من هذه الأعمال الوحشية مذكور في تاريخ الكنيسة للمؤرخ يوسابيوس القيصري. وفي تاريخ البطاركة كانت السجون مليئة بالرجال والنساء من كل الطبقات، ينتظرون دورهم إما قتلاً بالمشنقة أو تعذيبًا بالمخلعة. ومن الصعب تخيل الرقم الرسمى الذي يقدر عدد الشهداء (١٤٤,٠٠٠ إلى ٨٠٠,٠٠٠) شهيد. ومن ناحية أخرى علينا أن نتذكر أن الاضطهاد الذي بدأه دقلديانوس قد دعمه خليفته في الشرق مكسيميانوس دايا (Maximianus Daia) (٣٠٥- ٣١٢م). قيل إن المذابح استمرت لنحو ١٠ سنوات بقتل منتظم. ولهذا يمكن أن نحسب أن عدداً كبيراً قد استشهد. وكان البابا بطرس الأول البطريرك السابع عشر (٣٠٢- ٣١١م) والذي عُرف بأنه "خاتم الشهداء"، من بين ضحايا اضطهاد مكسيميانوس.

"السنكسار القبطي" يزخر بسير الأبطال القديسين ونذكر منها على سبيل المثال: القديسة صوفيا (St. Sophia) التي كانت تعيش في منف القديمة في مصر الوسطى، توفيت في عهد البطريرك السابع أومانيوس (١٢٩- ١٥١م.) المعاصر لكل من الامبراطورين هادريان (١١٧- ١٣٨م) وأنطونيوس بيوس (١٣٨- ١٦١م). وقد نَقَل جسدها إلى القسطنطينية الامبراطور قسطنطين الأول الكبير (٣١٣- ٣٣٧م.). وقد أهديت إليها الكاتدرائية الشهيرة في أيا صوفيا (Haghia Sophia) والقديسة دميانة ابنة حاكم

شمالي الدلتا، حيث اعتزلت في دير للبنات مع أربعين عذراءً، وجميعهن قتلهن دقلديانوس. والقديسة كاترين السكندرية أيضاً استشهدت في باكر عمرها وهي في سن الثامنة عشرة من عمرها في سنة ٣٠٧م أي في عهد مكسيميانوس. ومازال الدير المشهور في جبل سيناء يحمل اسمها حتى الآن. ومارجرجس المعروف، والذي كان يعمل بالفيلق الروماني، يرجح أنه كان أحد النبلاء الكبَّادوكيين في آسيا الصغرى قاوم الامبراطور دقلديانوس ثم استشهد. يحتمل أنه دفن في فلسطين، ثم نقل جسده إلى مصر في عهد البطريرك غبريال الثاني (Gabriel) (١١٣١ – ١١٤٥م).

كان لاضطهاد دقلديانوس أثره البالغ في حياة المسيحيين الأقباط وفي فكرهم لدرجة أن الأقباط قرروا أن يجعلوه تقويماً للشهداء تماماً كالتقويم الميلادي الذي يستخدم في إدارة شئون الحياة اليومية. وكان العام الأول في هذا التقويم هو سنة ٢٨٤م. وهي السنة التي تعاظم فيها خطر دقلديانوس. وكانت الشهور التي استخدموها هي الشهور التي استخدمها الأجداد في مصر القديمة. فاستخدمها الفلاحون المسيحيون، وكذلك يستخدمها الفلاحون المسلمون في مصر في أيامنا هذه في الأجندة الزراعية وهذا يدل على النزعة القومية للمصريين حتى في وجود تعدد الأديان منذ بداية عهدها.

بعد عصر دقلديانوس ومكسيميانوس دايا بدأ تراجع موجة الاضطهاد وتقلصها. وبدأ عهداً جديداً، فقد ترك الامبراطور قسطنطين الكبير للمسيحيين حرية ممارسة ديانتهم فأصدر مرسوماً بذلك جاء فيه: "وللمسيحيين أن يستمروا في الوجود، وأن ينظموا اجتماعاتهم شريطة ألا يخلوا بالنظام، وعليهم بناء على تسامحنا وتعاطفنا أن يُصلّوا إلى إلههم ليسعد ظروفنا وظروف الدولة وظروفهم" (فرج توفيق زخور: قصة الأقباط). ثم بعد ذلك أصدر مرسوم ميلان في سنة ٣١٣م، حتى قبل أن يكون الإمبراطور الأوحد للإمبراطورية الرومانية. حيث كان مرسوم الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥) يقضي بأن يتولى الإمبراطورية الرومانية إمبراطوران في آن واحد: أحدهما للإمبراطورية الشرقية وعاصمتها بيزنطة والآخر في روما. ثم أصدر في سنة ٣١٥م. أوامر مشددة بتحريم التبشير باليهودية والدعوة إليها. ثم بعد عام ٣٢٣م اختلف الأمر، إذ منع الوثنيين من ممارسة عبادتهم الوثنية، وذلك من أجل المسيحية، التي أصبحت الديانة الرسمية للدولة.

قام البطريرك ثاؤفيلس (٣٨٥- ٤١٢م) بقيادة ثورة محلية ضد معبد سيرابيس على الفرع الكانوبي للنيل (أبي قير) حيث سقط في سنة ٣٨٩م وهدمت عاصفة عاتية المعبد الرئيسي في

المدينة في سنة ٤١١م، وبسقوطه تهدم الجزء الأكبر من المكتبة البطلسية أو مكتبة الإسكندرية. (د. عزيز سوريال: مرجع سابق).

جـ ملامح الحياة الرهبانية في العصور الأولى في مصر.

أ- نظام الرهبنة ب- مؤسسو الرهبنة

أ- نظام الرهبنة

لم يكن نظام الرهبنة نظامًا جديدًا أو قاصرًا على المسيحية "فالميل العام للنسك بصفة عامة وللرهبانية بصفة خاصة، لم يظهرا على الإطلاق في المسيحية فحسب، بل لقد ظهرا قبل المسيحية وبعدها في أديان أخرى. وبصفة خاصة في الشرق..." (فيليب شاف: تاريخ الكنيسة المسيحية الجزء الثالث).

توجد عدة نظريات عن نشأة الرهبانية المسيحية في مصر. وبعض التفاسير تميل إلى رأي فيلو بأنها ترجع إلى إحدى الطوائف الأسينية اليهودية Therapeutae، وكان أتباعها من اليهود الناسكين ممن عاشوا في الإسكندرية في القرن الأول. ونظرية أخرى تنادي بأنها تعود إلى بعض الممارسات في الديانة المصرية القديمة متمثلة في عبادة سيرابيس، أو ربما في القرن الثالث عن طريق تأثير أتباع المانوية، أو ربما قبل ذلك حيث اكتشفت في نجع حمادي نصوص عن أثر الطوائف الغنوسية. (د. عزيز سوريال عطية: الموسوعة القبطية).

ويرى دكتور عزيز سوريال أن هذه النظريات غير مقنعة، وأن بداية الرهبانية المسيحية غامضة. حيث تنسب نشأتها إلى القديس أنطونيوس الذي يعتبر "أبا الرهبان" إلا أنه من الواضح أن حياة القديس أنطونيوس تشهد بأنه حين عرف طريقه إلى حياة النسك في سنة ٢٧٠م، كان يوجد فعلاً بعض النساك ممن اعتزلوا الحياة في القرى. وهكذا فعل هو حيث ذهب إلى البرية الداخلية ليمارس النسك. وهو يرد السبب في ظهور الرهبنة إلى الاضطهاد، حيث لجأ بعض المسيحيين إلى الصحراء وهو ما حدث مع بولس التيباسي نفسه الذي فرّ إلى الصحراء أثناء اضطهاد ديسيان (٢٤٩- ٢٥٠م) وظل هناك عن اختيار (د. عزيز سوريال عطية: الموسوعة القبطية).

في الوقت المبكر لم يكن ثمة نظام موضوع يخضع له الرهبان، بل كانوا يعيشون وفق التعاليم التقليدية للشيوخ، والتي كانت تنتقل شفاهةً. (المرجع السابق).

ويتفق الأب متى المسكين مع ذلك الرأي إذ يرى أن كثيرين سلكوا في حياة النسك في القرن الأول سواء كانوا أفرادًا أو جماعات، دون منهج أو

نظام. فلم تكن الحياة الرهبانية النسكية المنظمة قد بدأت بعد وإنما عاشوا في وسط ذويهم وعائلاتهم. وكانوا من الشبان أو العذارى. بينما اعتزل بعضهم وعاشوا على أطراف المدن، إلاَّ أن كثيرين لم يستمروا في تلك الحياة التي أرادوها لأنفسهم. ومع ذلك استطاع البعض أن يتوغلوا في البرية ويعيشوا حياة توحدية كاملة، وأن يسلكوا بنسك وزهد في درجات متقدمة تعكس ما وصلوا إليه. ويقول الأب متى المسكين عن أولئك الذين انفردوا انفرادًا مطلقًا: "ولكن أثبتت الخبرة لهم بعد جهادهم الطويل أن الانفراد المطلق فوق طاقة الإنسان فقالوا بهذا وعلموه لزائريهم ومريديهم وأقنعوهم أن الحياة الجماعية أضمن طريق لتكميل النسك والعبادة وخصوصًا لذوي الأمزجة والطباع البسيطة، هكذا فعل القديس المتوحد بلامون مع باخوميوس فنشأ النظام الباخومي كله، والقديس المتوحد بيجول مع شنودة فنشأت أديرة شنودة المشهورة" (الأب متى المسكين: الرهبنة القبطية في عصر القديس الأنبا مقار).

ونجد في كثير من كتابات الآباء الأوائل ما يشجع على حياة النسك. ولذلك فإن كثيرين من الشبان والعذارى وجدوا في تلك الحياة ما يجتذبهم لكي يعيشوها. وإنَّا نجد في كلمات العلامة أوريجانوس انعكاسات لحياة النسك والتقشف إذ يقول: "نحن نكرس حياتنا لله لنخدمه في الطهارة، ونتعهد أن نتعفف بالجسد ولا ننعمه بل نخضعه حتى يمكننا أن نخلص أنفسنا" (المرجع السابق).

ونجد في تعليم القديس أثناسيوس الرسولي (٢٩٦ - ٣٧٣م) عن النسك والطهارة ما جعل كثيرين يقبلون على تلك الحياة.. وتمثلت قمة التشجيع على السلوك الرهباني في الكتاب الذي وضعه القديس أثناسيوس الرسولي عن سيرة الأنبا أنطونيوس. فأقبل كثيرون على الرهبنة.. "وفي أقل من قرن كان الرهبان قد ملأوا كل الجبال والقفار والبراري في مصر وبلغ عددهم عشرات الألوف.." (المرجع السابق).

وهكذا يؤرخ لمصر على أنها مؤسسة نظام الرهبنة، وبوصول القرن الرابع كانت الرهبنة المؤسسية قد ترسخت، فيقول شاف: "في بداية القرن الرابع ظهرت الرهبانية في تاريخ الكنيسة ومنذ ذلك الحين وهي تشغل مكانة متميزة. بدأت في مصر وانتشرت على نحو لا يقاوم في الشرق والغرب. وقد استمرت نبعًا فياضًا بالحياة المسيحية في مختلف العصور.." (شاف: الجزء الثالث).

"وكان أول دير أنشأه القديس أنطونيوس على نظام المتوحدين Eremitism سنة ٣٠٥م. وتبعه القديس باخوميوس، حيث أنشأ أول شركة ديرية

في سنة ٣١٨م، وبعد ذلك القديس مقاريوس، بديريه المشهورين (البراموس) و(أنبا مقار) ما بين عامي ٣٤٠- ٣٦٠م. على طقس "تجمع متوحدين". (الأب متى المسكين: دير القديس أنبا مقار).

وهكذا يؤرخ لمصر على أنها المنشئة للنظام الرهباني والمؤسسة له "مصر مهد الرهبنة في العالم، وعن مصر أخذت جميع الدول الرهبنة كنظام شعبي وكنسي بآن واحد" (الأب متى المسكين: الرهبنة القبطية في مصر القديمة- الأنبا مقار).

معنى كلمة الرهبانية

اشتقت كلمة "الرهبانية" (Monasticism) من (Monos) وتعني: يعيش بمفرده أو يحيا وحيداً، وهي تصف حياة النسك حيث اتبعها كثيرون من الرجال والنساء في مختلف الأديان، سواء لفترة محدودة، أو لكل العمر. وتعني أيضاً أن يعيش الإنسان بمفرده أو أن يحيا وحيداً خارج الرُبُط العادية للمجتمع، وأن يعيش بدون زواج. (راجع قاموس الروحانية المسيحية).

معنى كلمة راهب

يذكر الأنبا غريغوريوس معنى كلمة راهب التي نستخدمها في العربية فيقول: "لعل التعبير العربي **رهبان** وهو جمع **راهب** مشتق من الرهبة أو الجَزَع الذي يتولى ذلك الطراز من العُبَّاد عندما يدخل في مرحلة فحص الضمير وامتحان النفس ومعرفتها على حقيقتها، خصوصًا عندما يصل إلى بعض الإشراق الباطني ويشرف على مرحلة الشخوص في الأنوار العليِّة فتتولاه **رهبة** وجزع. على أن التعبير القبطي الذي يستخدم للدلالة على كلمة الراهب موناخوس ومنها اشتقت الكلمة اللاتينية Monachus والإنجليزية Monk والفرنسية Moine وغيرها في اللغات الأخرى، وكلها بمعنى "المتوحد". ذلك لأن الراهب بالمعنى الدقيق هو "المتوحد" الذي اعتزل الناس ليحيا منفرداً من غير زوجة وأولاد، وبعيداً عن المجتمع الكبير ليتهيأ له الوقت الكافي لينمو نمواً باطنيًا وروحيًا.. (راجع الأنبا غريغوريوس: الدير المحرق ص ١٠).

أنماط الرهبانية

وقد ظهرت الرهبانية في ثلاثة أشكال رئيسية وهي:

١- أن يحيوا معًا حياة مشتركة في كينوبيون Cenobion ويتَّحد أصحابها في نظام الحياة.

٢- مجموعات من المتوحدين يعيشون بالقرب من بعضهم البعض.

٣- رهبان يعيشون في قلايات في انعزال تام. (راجع قاموس الروحانية المسيحية).

درجات الرهبانية

يذكر الأنبا غريغوريوس أن الرهبانية طريق طويل ويبلغ سبع درجات وهي:

١- تلميذ للرهبنة

٢- راهب

٣- عابد

٤- ناسك

٥- متوحد

٦- سائح

٧- الرؤيا الطوبانية (وهي مرحلة الشخوص في الله والاتحاد به) (راجع الأنبا غريغوريوس: الدير المحرق).

ب- مؤسسو الرهبنة

١- أنبا أنطونيوس

يُدعى "أب الرهبان" أو "أب ومؤسس الحياة الرهبانية". ولد نحو سنة ٢٥١م في بلدة "كوما" (قمن العروس حاليًا) بمنطقة الواسطى.

بعد وفاة والديه، وفي أثناء حضوره في الكنيسة، سمع وصية السيد المسيح التي وردت في إنجيل متى (٢١:١٩). فشعر أن عليه أن ينفذ الوصية، فمضى ووزع كل أملاكه للفقراء، واستودع أخته أحد بيوت العذارى. وتبنى حياة النسك والزهد وهو في العشرينات من عمره.

انطلق القديس أنطونيوس خارج مدينته ليبدأ حياة النسك والتوحد. ثم بعد ذلك انتقل إلى الصحراء الشرقية، وتوغل في داخلها. وأخيراً اتجه نحو جبال البحر الأحمر في منطقة بسبير ليستقر في قلعة رومانية قديمة مهدمة، حيث عاش معظم حياته. وأتى كثيرون من الشباب ممن اقتدوا به وعاشوا حوله. إلاَّ أن القديس أنطونيوس كان شديد الاعتزال، وبرغم ازدياد مريديه إلاَّ أنه لم يبدِ أي اهتمام بوجودهم خلال السنوات العشرين التي قضاها هناك. فما كان منهم إلاَّ أن اقتحموا وحدته.. وطلبوا منه أن يرعاهم. فاستجاب لهم في وداعة شديدة.. وكان ذلك نحو عام ٣٠٥م.. ويعد هذا تاريخ أول دير قبطي في مصر.. وهو يحمل اسمه الآن.. (د. عزيز سوريال عطية: الموسوعة القبطية، الأب متى المسكين: الرهبنة القبطية).

ذهب إلى الإسكندرية في وقت اضطهاد دقلديانوس وماكسيمينوس الثاني، وفي خلال المجادلات الأريوسية، وذلك لكي يبين وقوفه إلى جوار البابا أثناسيوس الرسولي. وتوفى الأنبا أنطونيوس في نحو سنة ٣٥٥م أو ٣٥٦م. (الموسوعة القبطية: مرجع سابق، الرهبنة القبطية: مرجع سابق).

كتب البابا أثناسيوس الرسولي بعد وفاة الأنبا أنطونيوس كتابه المشهور عنه "حياة أنطونيوس". إلاَّ أن ثمة مصادر أخرى تركز على جوانب محددة في حياة أنطونيوس وشخصيته. وأقوال الآباء المأثورة، والمرتبة أبجديًا، تضمنت تحت اسمه ثمانية وثلاثين قولاً من أقواله. ويقول د. عزيز

سوريال نقلاً عن دوريس Dorries (١٩٦٦م): إن هذه المجموعة من الأقوال تعطي معلومات عن شخصية أنطونيوس أفضل مما يقدمها كتاب البابا أثناسيوس الرسولي. (الموسوعة القبطية: مرجع سابق).

كتاباته

تنسب إلى الأنبا أنطونيوس مجموعة من الرسائل. وقد فقدت مجموعة من سبع رسائل في الأصل اليوناني، ولكنها توجد في لغات أخرى. فهي توجد في اللغة الچيورچية (لغة القوقاز) واللغة اللاتينية، وبعضها في القبطية، وفي السوريانية. وتوجد مجموعة من (٢٠) رسالة يغلب عليها أن تكون وعظية في مجموعها. وإليه تنسب أيضًا عدة رسائل، رسائل إلى تيودور الطيبايسي، وسلسلة من القواعد، ونحو (٢٠) عظةً. ويرجح أن الرسائل السبع، والرسالة إلى تيودور أصلية. (راجع الرهبنة القبطية: مرجع سابق، موسوعة تاريخ الكنيسة: مرجع سابق).

٢- الأنبا باخوميوس: "أب الشركة"

باخوم: كلمة قبطية تعني "النسر" وباخوميوس هو النطق اليوناني للكلمة.

النشأة: المكان والزمان:

وُلد القديس باخوم المعروف بأبي الشركة في إقليم تيبايس (طيبة قديمًا، والأقصر حاليًا) نحو سنة ٢٩٠م من أبوين وثنيين غنيين يعبدان الأصنام. في العشرين من عمره عرف طريقه إلى المسيحية، ثم عرف الرهبنة عن طريق الناسك المتوحد القديس بلامون الذي استمر معه سبع سنين حيث نما في حياة الزهد وفي الفضائل المختلفة. (الأنبا متاؤوس الأسقف العام: الأنبا باخوميوس).

"الأنبا باخوم هو واضع نظام الاشتراكية التعاونية في الحياة الرهبانية، وهو صاحب فكرة التصنيع في الأديرة المصرية الذي وَجَّه الرهبنة وجهة جديدة لم تعرف من قبله، وعنه أخذ الرهبان في كل العالم شرقًا وغربًا". (الأنبا غريغوريوس: الدير المحرق).

أقام القديس باخوميوس ديرًا وكان يقصده الناس لما سمعوه عنه من فضائل. ومع مرور الوقت وازدياد أعداد الراغبين في الرهبنة أقام أديرة أخرى متفرقة. وجعل لكل دير رئيسًا.. وصار هو الأب لكل الأديرة الباخومية.. فكان يتنقل بينها لمراقبة أحوالها وحل مشاكلها. وكانت كل الأديرة تخضع لنظام وقانون واحد تحت إدارة مركزية.

"أحال الأنبا باخوم الرهبنة إلى نوع من العسكرية الروحية، ووضع لها قوانين ونظمًا، وكان الرهبان يقيمون في بيوت بحسب الحِرَف التي كانوا يمارسونها قبل الرهبنة.. وكان القديس يقيم لكل دير رئيسًا ووكيلاً، ويقيم للأديرة جميعها

رئيساً عاماً ووكيلاً وأميناً، وقد اتخذ من أحد الأديرة في فاو، على الضفة اليمنى من النيل مقابل هور، قاعدة لحكومته الديرية وإدارة جميع الأديرة التابعة له في الصعيد. وكان يجمع الرهبان في هذا الدير مرة كل سنة، وذلك في عيد رأس السنة القبطية... وكان يُعيِّن في هذا العيد الوظائف للسنة الجديدة" (الدير المحرق: مرجع سابق).

يذكر دكتور عزيز سوريال عطية أنه في وقت وفاة باخوميوس كان يوجد تسعة أديرة للرجال بالإضافة إلى ديرين للعذارى، وكان يوجد نحو ٥,٠٠٠ من الرهبان في المجتمعات التي أسسها. (الموسوعة القبطية- مرجع سابق).

وقد استقبل باخوم البابا أثناسيوس الرسولي استقبالاً حاراً في الدير المعروف بدير طابانا. (الأنبا غريغوريوس: الدير المحرق).

عندما أحس الأنبا باخوميوس بدنو أجله بعد مرض شديد، اجتمع بأولاده لتثبيتهم، واختار القديس بطرونيوس رئيساً عاماً بعده. وكان ذلك في نحو سنة ٤٣٨م. (الأنبا متاؤوس: مرجع سابق).

٣- أنبا مقار الكبير

دُعي الأنبا مقار بالكبير أو المصري، وذلك تمييزاً له عن القديس مقار الإسكندري، المعاصر له. والأنبا مقار الكبير أحد النُسَّاك المؤثرين في تاريخ الرهبنة منذ القرن الرابع. ويوجد دير عامر يحمل اسمه في وادي النطرون واسمه يعني "المُطَوَّب أو "المبارك".

مقارِه

الاسم أصله فرعوني وينطق ماخرو Machrw ومعناها (صادق الصوت) وتفيد صفة الصدق والأمانة*، وقد كانت تنطق بالقبطية مقارِ بكسر الراء وأضيفت إليها هاء أخيرة لنضج النطق فصارت مقاره بكسر الراء، وأخذ العرب هذا النطق عن القبطية وتداولت الكلمة فصارت مقاره وهو أصح نطق للاسم**. أما باللغة اليونانية فأضيفت الواو والسين علامة الاسم ماكاريوس.

ولد أنبا مقار في نحو سنة ٣٠٠م في قرية شبشير الآن (مركز المنوفية) وكان في صباه يساعد في تحميل الجمال التي كانت لأبيه، كاهن القرية. ثم بدأ حياته النسكية حيث عاش متوحداً بالقرب من إحدى القرى. وفي نحو عام ٣٣٠م اتجه جنوباً في البرية حيث يقع دير البراموس، وحفر لنفسه مغارة، وكان يتردد عليه بعض الزائرين، حيث تردد عليه أول زائرين، وهما مكسيموس ودوماديوس الرومانيين. وظل هناك لمدة عشرين عاماً إلى أن أقبل كثيرون من المتوحدين

* البحث هنا للأستاذ الدكتور مصطفى الأمين أستاذ اللغة الديموطيقية بكلية الآداب.

** وهذا النطق وجدناه مكتوباً في مخطوطة الدكتور چورچي صبحي العربية المكتوبة بحروف قبطية والتي سجلها له العلامة إفلين هوايت في كتابه الأول صـ ٢٣١ (الأب متى المسكين الرهبنة القبطية: صـ ٥٦).

ليعيشوا حول الكنيسة الرئيسية، إذ لم تكن ثمة أسوار في ذلك الوقت. (د. عزيز سوريال: الموسوعة القبطية، الأب متى المسكين: الرهبنة القبطية).

ثم بعد ذلك قصد غرب الوادي وحفر لنفسه مغارة ذات سرداب طويل، في مكان ليس بعيداً عن موقع الدير الذي يحمل اسمه حاليًا. وقد أقيمت من حوله مجتمعات للرهبان المتوحدين ممن أرادوا أن يقتفوا آثاره ويتبعوا خطاه. إذ أقاموا في ما يسمى "منشوبيات" وهي كلمة قبطية تفيد معنى السكن التجمعي أو الفردي. وقد بدأوا فرادى ثم صاروا عدة ألوف. وكانوا لا يلتقون معًا إلاَّ لحضور القداسات. (الأب متى المسكين: دير القديس أنبا مقار، والرهبنة القبطية).

وقد تميز القديس الأنبا مقار بعديد من الصفات التي جعلت كثيرين يقبلون إليه ويطلبون حكمته حتى أن تلميذه إيفاجريوس البنطي سافر نحو ٤٠ كيلومترًا ليطلب منه كلمة منفعة، فقد عُرف منذ شبابه بالحكمة حتى إنه كان يُدعى "الشاب الشيخ" أو "الصغير صاحب حكمة الشيوخ". وكانوا يدعونه أيضًا بالنبي اللابس الروح، أي حامل الروح القدس، وأصبح هذا هو لقبه الرسمي منذ القرن الرابع. (الأب متى المسكين: دير القديس أنبا مقار).

كان لأبيه رغبة في أن يزوجه، فعين له فتاة التي أصبحت زوجته. لم تكن للقديس مقار رغبة في الزواج. وكان يبتعد كثيراً عن زوجته بحجة السفر مع الجمال. وكان يصلي لكي يكون قلبه كله موجهًا لله. وقد أُصيبت زوجته بحمى شديدة أدت إلى الوفاة. (الرهبنة القبطية: مرجع سابق)

وقد رُسم القديس مقار قسًا برغبة أهل قريته ويذكر الأب متى المسكين نقلاً عن المؤرخ سوزومين: "إن القديس مقاره رُسِمَ قسًا وهو في سن الأربعين سنة ٣٤٠م. وذلك في نهاية اعتكافه الأول الذي دام عشر سنوات، وأن القديس قد بدأ وحدته ونسكه، وهو في سن الثلاثين. وهذا القول يدعم أقوال الآباء باللاتينية "لكوتليه" (الرهبنة القبطية: مرجع سابق).

ونقلاً عن روفينوس (تاريخ الكنيسة ٤:٢) يذكر د. عزيز سوريال أن أنبا مقار الكبير قد نفي مع مقار السكندري في أثناء الاضطهاد الأريوسي إلى جزيرة في الدلتا، حيث نفاهما لوس (أو لوقا) (Luce) الوالي مدَّعي الأسقفية. ثم عاد بعد ذلك إلى الاسقيط. وكان ذلك نحو عام ٣٧٥م حيث تم طرد الأسقف الكاذب بعد ذلك بسنة. (الموسوعة القبطية: مرجع سابق، الرهبنة القبطية: مرجع سابق).

يعتبر أنبا مقار تلميذاً للأنبا أنطونيوس، إذ ثمة تأكيد على أن القديس مقار ذهب مرتين للقائه، مرة في عام ٣٤٣م، والأخرى في سنة ٣٥٢م. وقيل إن الأنبا أنطونيوس قدَّم للأنبا مقار الأسكيم المقدس وسلَّمه عكازه (أو شبوبته- أي عصاته العتيقة)

وهذا يعني أنه يسلمه أمانة التدبير الرهباني بعده. (الرهبنة القبطية: مرجع سابق).

عاش القديس مقار إلى أن بلغ عمره التسعين (وفي روايات أخرى سبعة وتسعين عامًا). وبعد وفاته دفن في المغارة التي بجوار الكنيسة التي بناها. (المرجع السابق).

وتوجد كتابات كثيرة تحمل اسم "مقار". إلاَّ أن العلماء يرون أن الرسالة الأصلية هي التي تحمل عنوان "رسالة إلى الأبناء الروحيين" (Ad Filios Dei) ويؤكد على أصالتها العلامة والمؤرخ القديم جناديوس (Gennadius)، وهي توجد باللاتينية والسوريانية واليونانية بل والأرمينية أيضًا، وتوجد لها ترجمة بالعربية في كتاب الأب متى المسكين: الرهبنة القبطية.

د- أدوار هامة لمراكز ثقافية على طول وادي النيل

كانت ثمة مراكز عديدة للحياة المسيحية بالإضافة إلى الإسكندرية. فكانت طيبايد- الأقصر في جنوبي مصر، هي أكثر المراكز المعروفة للرهبانية المنظمة في القرن الرابع، حيث أسس الأنبا باخوميوس المعروف بأبي الشركة الحياة الرهبانية. وقد شهدت برية نتريا سلسلة من قلالي الرهبان وانتشرت حول الكنيسة هناك، وكذلك في البرية الواسعة لوادي النطرون جنوبي نتريا.

وبالإضافة إلى طيبايد توجد مراكز أخرى انتشرت على طول وادي نهر النيل. ومنها منطقة الفيوم (أرسينو) ومدن البهنسا (اكسيرنكوس) والشيخ عبادة (أنتينوبوليس) وكذلك كانت ليبيا وبنتابوليس (المدن الخمس الغربية) تتبع مباشرة كنيسة الإسكندرية. وتوجد مخطوطات كثيرة تبين تنوع المجتمعات المسيحية سواء في الأمور العائلية أو في اختبارات النسك والزهد أو في متطلبات العمل أو فيما يتعلق بالأمور الشخصية أو الليتورجية.

ومدينة البهنسا تعتبر أغناها في البراهين المستندية والآبائية. حيث عُثر على الأعمال (الدفاعية) لأرستيدي، و (الراعي) لهرماس، و(ضد الهراطقة) لإيريناوس.. وغيرها. ويستدل من مخطوطات صغيرة في حجم الجيب (البهنسا ١٧٨٢). ومن وجود مخطوطات للديداكي (تعاليم الرسل) في أحد المجتمعات في البهنسا في حجم الجيب أيضًا، أن ثمة مكتبة مسيحية متداولة كانت في تلك المدينة في القرنين الرابع والخامس. وبعض الاكتشافات الحديثة -كما سبق القول- قادت إلى القول بأن ثمة عناصر غنوسية ومانوية قد تسربت إلى منطقة البهنسا.

ومن المخطوطات أيضًا يتضح أن مدينة الشيخ عبادة كانت تتمتع باستقلال ثقافي، وظهر ذلك في التعليم الذي كان موضع جدل في القرنين الثاني

والثالث. كما يظهر ذلك من مستند اكتشف في سنة ١٩٠٠م في نيكربوليس. والمخطوطات التي اكتشفت في هذه المدينة وترجع إلى القرن الثالث تشهد بوجود نشاط لتعاليم باسيليدس وڤالنتينيانوس (ڤالنتنيان) حيث كانت في طريقها إلى الاندثار. (راجع نالديني: موسوعة الكنيسة الأولى).

هـ- المسيحية في بلاد النوبة

عرفت بلاد النوبة المسيحية عن طريق مصر في تاريخ مبكر. وكانت النوبة مفتوحة لمصر منذ الأسرة الحادية عشرة (٢١٠٠- ٢٠٠٠ق.م.). وقد قبل النوبيون الحضارة المصرية والديانة المصرية. وبُنيت المعابد المصرية العديدة في تلك الجهة، ولا سيما إبان حكم رمسيس الثاني. وأعظم تلك المعابد معبدا أبي سنبل الفخمين المنحوتين من الصخر، والتي كانت ستغمرهما مياه النيل خلف سد أسوان العالي. لولا أنه تم إنقاذهما بمعرفة جهد مشترك قام به العالم المتحضر كله. وفيما وراء ذلك، وتحت حماية الحضارة المصرية القديمة، قامت الثقافة المروية التي نشأت في منطقة "مروي"، فقد اكتشفت آثار قيمة في منطقة شندي من خلال عمليات تنقيب حديثة. وليس الأمر بالغريب -كما يبدو- أن الإرساليات المسيحية القبطية اتبعت الطريق المألوف إلى النوبة دون صعوبة كبيرة. والواقع أن بحثًا أوثق أظهر أن ملوك النوبة أنفسهم التمسوا من الكنيسة المصرية أن ترسل مبعوثين لكي يكرزوا بالإنجيل الجديد في اجتماعاتهم.

وبعض المؤرخين والباحثين، ومن بينهم د. عزيز سوريال، يفترضون عن يقين أنه قبل نهاية القرن السادس الميلادي، كانت المسيحية قد تغلغلت في الممالك النوبية الثلاث، والتي تمتد من جنوبي "سين" (أسوان الآن) إلى جنوبي وأواسط السودان، وكانت أولاها مملكة نباتا، والملكة الثانية كانت مملكة الماكوريين حول المنحنى الكبير لنهر النيل، وكانت عاصمتها "مروي" والتي تقع شمالي شندي الحالية. وكانت ثالثتها مملكة ألودي وبالعربية علوة عند التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق. وكانت الحدود غير واضحة بين تلك الممالك إلى حد ما. وكان للسكان الكثير من السمات المشتركة، وقد بدا الجميع راغبين في اعتناق المسيحية حسب العقيدة القبطية. وعلى العكس من اليونانيين في كيرانيكا (القيروان حاليًا) وفي قرطاجنة، ومدن الشمال الأفريقي الأخرى، الذين احتفظوا بالمسيحية كديانة أرستقراطية، ولم يهتموا بنشرها بين البرابرة، وقد أظهر المصريون حماسةً بالغةً لجذب النوبيين إلى المسيحية ومساعدتهم على أن تكون لهم كنيستهم الخاصة. ولعل هذا قد كان هو السبب في أن المسيحية النوبية حاولت أن تواصل بعزم وعناد لوقت أطول

من مسيحية شمالي أفريقيا، بعد دخول الإسلام.

وقد أكدت البحوث الأثرية الأولية انتشار الإنجيل بشكل واسع في النوبة. وقد أشير إلى الاكتشافات المسيحية القديمة في أطلال مروي في السودان. وبالإضافة إلى ذلك فقد ثبت أن ما لا يقل عن خمسين من مباني الكنائس والأديرة ذات القيمة تم العثور عليها بين أسوان وسنّار على النيل الأزرق. وكان لجهود سومرز كلارك مكتشف هذه الآثار الأثر الكبير في إلقاء الضوء عليها. وكذلك سجل مؤرخ الكنائس والأديرة أبو صالح الأرميني، في تاريخ يرجع إلى القرن الثالث، أن مملكة الماكوريين كانت تضم سبع أسقفيات والعديد من الأديرة والكنائس، في حين أن المملكة النوبية الجنوبية، وهي مملكة ألودي كانت تضم أربعمائة كنيسة. وحتى إذا افترضنا أن ثمة مبالغة، إلاَّ أن هذا يشير إلى مدى تقدم المسيحية في النوبة. وهي حقيقة أكدها الجغرافيون المسلمون في العصور الوسطى. ويقال إن بعض أسماء الأماكن والأعلام وبعض كلمات عادية لها صبغة مسيحية أو قبطية، مازالت تستعمل بمعرفة النوبيين حتى الآن.

وثمة ما يدعو إلي الاعتقاد بأن الرهبان المصريين لم يُمنعوا من مزاولة نشاطهم التقوي فيما وراء الحدود الجنوبية لبلادهم. وثمة نقطة أخرى يجب توضيحها في هذا المقام، وهي أن المسيحية النوبية والإثيوبية كانتا منعزلتين وبدون تفاعل يذكر بينهما. وقد نبعت كلتاهما من مصر. فكانت إثيوبيا تستقبل كارزيها عن طريق البحر الأحمر، في حين أن بلاد النوبة كان الكارزون يسافرون إليها عن طريق النيل. وعلى هذا فإن هذه الأخيرة كان لها اتصال أعظم بالكنيسة الأم. وبعد أن أصبح الأقباط منشغلين تماماً بمتاعبهم المحلية، بعد دخول العرب بوقت طويل انفرطت هذه العلاقة، وتُرك النوبيون لأنفسهم، وأصبحوا جماعة مسيحية مهجورة وسرعان ما ابتلعت تدريجيًا في الديانة الجديدة. (عزيز سوريال: تاريخ الكنيسة الشرقية).

ثانياً: آباء كنيسة الإسكندرية وكتابها

١- العلاَّمة بنتينوس
٢- كليمندس الإسكندري
٣- البابا ديمتريوس
٤- العلاَّمة أوريجانوس
٥- البابا ياراكلاس
٦- البابا ديونيسيوس
٧- البابا ثيوناس
٨- فيلياس
٩- أمونيوس
١٠- بسينوسيريس
١١- ثيوغنوستوس
١٢- بيريوس
١٣- تريفون
١٤- أمبروسيوس
١٥- البابا بطرس خاتم الشهداء
١٦- هيسيكيوس
١٧- البابا ألكسندروس

١- العلاَّمة بنتينوس

النشأة:

زمان ومكان الميلاد

لا يعرف على وجه الدقة تاريخ ميلاد بنتينوس (أو بانتينوس PANTAENUS). ويذكر كليمندس أنه وُلد في جزيرة صقلية، وإن كان هذا الأمر يشوبه الشك لأن كليمندس كان يشبهه بالنحلة الصقلية، بما كان للنحل الصقلي من شهرة واسعة في ذلك الوقت. ويرى البعض أنه ولد في اليونان، لأنه كتب باليونانية، وهذا يعد دليلاً غير كافٍ لأن اللغة اليونانية كانت لغة المثقفين آنذاك. ولكن ثمة فريق آخر من المؤرخين ينسب ميلاده إلى الإسكندرية وإن كان لا يوجد ما يؤكد ذلك.

الخلفية الثقافية

يذكر يوسابيوس أن بنتينوس اعتنق المسيحية، وأنه كان من فلاسفة الرواقيين، وأنه قام برحلة تبشيرية حتى الهند. ويرجح أنه جاء إلى الإسكندرية في نحو سنة ١٨٠م.

بنتينوس رئيسًا لمدرسة الإسكندرية

كان بنتينوس أحد فلاسفة الرواقية، ونال شهرةً واسعة نظرًا لثقافته الواسعة، لذا فقد عُيِّن رئيسًا لمدرسة الإسكندرية بعد أن اعتنق المسيحية على يد الفيلسوف المسيحي أثيناغوراس. ويشهد كل من يوسابيوس وكليمندس أنه اكتسب شهرةً وثناءً على المستوى العالمي آنذاك.

دور بنتينوس في الثقافة المسيحية

يذكر يوسابيوس أن كليمندس كتب عن معلمه الذي وجده "مختفيًا في مصر"، ويكنّ له تقديرًا كبيرًا، ويميزه عن كل معلميه الآخرين. كما يذكر كيف أنه تلقى تعليمًا أصيلاً على يد معلمه، ويقول س. للاَّ S. Lella إنه بدون شك يعني بنتينوس. ولكن كليمندس ذكره بالاسم كاملاً وبوضوح في فقرتين فقط في شذرتين اكتشفهما م. جي. روث M.G. routh. كما يستعين كليمندس في شرحه للمزمور ١٨: ٦ ببنتينوس حيث قال إن الأنبياء اعتادوا استخدام الزمن المضارع للتعبير عن المستقبل أو الماضي (إذ يحتمل أن كليمندس رجع إلى الشرح الذي ذكره بنتينوس لما عرف عن اتجاهه في تفسير العهد القديم تفسيرًا روحيًا تأمليًا).

إن وصف الفلسفة الرواقية التي ينسبها يوسابيوس إلى بنتينوس قد أخذها بولينز Pohlenz بالمعنى الضيق لها. وقد أضفى على الفلسفة اليونانية الصفة التوفيقية في نهاية القرن الثاني الميلادي. وليس من قبيل الخلط أن نفترض أن كليمندس قد ورث عن بنتينوس ميله لدمج الحق الكتابي مع أفضل ما في التعليم الفلسفي.

وقد ظهر نفس هذا الاتجاه للانتقاء في الثقافة -مرة أخرى- مع أمونيوس سكاس Ammonius

Saccas الذي قام بالتدريس في الإسكندرية في نفس تلك الفترة، حيث كان يهدف إلى التوفيق بين فلسفة أفلاطون وفلسفة أرسطو. ويحتمل صحة الفرض الذي قال به وت Witt عن وجود تشابه شديد بين أمونيوس سكاس والمسيحيين السكندريين في ختام القرن الثاني الميلادي. ويبدو أن هذا قد تأكد لا عن طريق التطابق بين تعليم بنتينوس وأمونيوس فيما يتعلق بمشيئة الله في الخلق فحسب، وإنما تأكد أيضًا عن طريق التناظر أو التطابق بين كليمندس وأفلوطين أيضًا، والذي ذكره وت (دائرة معارف الكنيسة الأولى ج٢).

أعماله

لا توجد أية مؤلفات معروفة باسمه، ويقول كواستن Quasten إنه لا يعرف إن كان قد كتب أية مؤلفات، لكنه لم يخلف لنا منها شيئًا. أما محاولة اكتشاف أي أعمال أدبية لبنتينوس من خلال كتابات كليمندس السكندري، فلابد من الاعتراف بأنها محاولة كان مصيرها الفشل. ويعتقد مارو Marrou أن بنتينوس هو كاتب الرسالة إلى ديوجنيتس. أما شاف Schaff فيقول إنه ترك عدة تفاسير، ولكن لم يتبق لنا منها سوى شذرات قليلة.

قام أ. ڤون هارناك A. Von Harnack بجمع كل ما يتعلق ببنتينوس. فتتبع كل ما ذكره عنه يوسابيوس، وچيروم، وكليمندس، وأوريجانوس، والإسكندر الأورشليمي، وبمفيلوس، وأناستاسيوس السينائي، ومكسيموس المعترف، وذلك في عمله المعروف: (Geschichte der Altchristlichen Literatur bis Eusebius, 1, Leipzig {1893, 291-296.} ويوسابيوس {Eusebius (HE 5,11,1).

✢ ✢ ✢ ✢

٢- كليمندس السكندري

أ- النشأة

زمان ومكان الميلاد

ولد تيطس فلاڤيوس كليمندس Titus Flavius Clement نحو سنة ١٥٠م. كان والداه وثنيين، ويبدو أنه كان من مواطني أثينا (هذا مجرد فرض مبني على استنتاج ما جاء في كتابه المتنوعات أو المتفرقات ١:١:٢)، وتلقى تعليمه الأولي هناك، ويستنتج من الكتاب المذكور آنفًا أنه عرف طريقه إلى الإيمان المسيحي في وقت مبكر على يد معلم مسيحي يوناني. وقد قام -بعد اعتناقه المسيحية- برحلات عديدة إلى جنوبي إيطاليا، وسورية، وفلسطين حيث تتلمذ على معلمين آخرين. وكان هدفه من وراء ذلك التزود بالعلم على أيدي أشهر المعلمين المسيحيين. فقد كان شغوفًا بالمعرفة. وقد

توجد في العربية عدة طرق لكتابة اسم Clement وهي كليمنضس، اكليمندس وكليمنت، وقد اخترنا الاسم كما هو مكتوب أعلاه (أي كليمندس) وهو الأقرب لليونانية.

علَّق هو نفسه قائلاً: "كان من حسن طالعي أنني استمعت إلى مناقشات جرت بين رجال مباركين ومبرزين بالفعل". غير أن أهم حدث في رحلة تعليمه وتثقيفه هو أنه في سعيه هذا وصل أخيراً إلى الإسكندرية.

وقد استحوذت محاضرات بنتينوس على فكره وجُماع قلبه، حتى أنه استقر هناك وجعل من الإسكندرية موطنه الثاني، في أيام حكم كومودوس Cumudos. وفي معرض حديثه عن معلمه بنتينوس يقول: حينما التقيت بالمعلم الذي قابلته آخر الكل، وجدته أفضلهم جميعًا، وقد ارتحت حين تعقبته مختفيًا في مصر. فهو كالنحلة الصقلية نحلة تجمع رحيق الأزهار من المروج النبوية والرسولية. كان يبث في نفوس سامعيه معرفة أصيلة نقية".

أصبح كليمندس تلميذاً لبنتينوس، كما أصبح له صديقًا ومساعداً. وأخيراً خلفه رئيسًا لمدرسة المقبلين على العماد بالإسكندرية (مدرسة الإسكندرية للاهوت). ولا يمكن تحديد التاريخ الذي خلف فيه معلمه في وظيفته على نحو من الدقة، غير أنه من المرجح أن ذلك كان نحو سنة ٢٠٠م. غير أنه بعد ذلك بسنتين أو ثلاث سنوات اضطر اضطهاد سبتميوس ساويرس Septimius Severus إلى مغادرة الإسكندرية (مصر). وقد لجأ إلى كبادوكية، ونزل ضيفاً عند صديقه إسكندر الذي أصبح فيما بعد أسقفًا لأورشليم، وقد كتب (أي إسكندر) رسالة إلى القديس أوريجانوس نحو عام ٢١٥م أو ٢١٦م، يذكر فيها أن بنتينوس وكليمندس قد توفيا، أي أن وفاة كليمندس كانت قبل ذلك التاريخ بوقت قصير (موسوعة الكنيسة الأولى: كليمندس السكندري).

ب- كتاباته التي حفظت من الضياع

على الرغم من أننا لا نعرف إلاَّ القليل عن حياة كليمندس، إلاَّ أننا نحصل على صورة واضحة لشخصيته من خلال كتاباته، التي تظهر لنا براعته وقدرته الفذة، فقد استطاع وللمرة الأولى أن يضع التعليم المسيحي في مواجهة أفكار العصر ومنجزاته. ولهذا السبب يستحق أن يطلق عليه رائد الثقافة المسيحية كما يرى كواستن (كواستين: الجزء الثاني).

وأعمال كليمندس الأدبية تثبت أنه كان واسع العلم، له باع طويل في الفلسفة والشعر وعلم الآثار والأساطير والأدب القديم. والواقع أنه لم يرجع دائمًا إلى المصادر الأساسية، غير أنه في أحوال كثيرة يستخدم الكتب التي تحتوي على المقتطفات الأدبية المختارة. لكن معرفته كانت كاملة بالنسبة للكتابات المسيحية السابقة له، وبالكتاب المقدس، والكتابات الهرطوقية. وهو يشير إلى العهد القديم في نحو (١٥٠٠) فقرة وإلى العهد الجديد في نحو (٢٠٠٠) فقرة. كما كان ضليعًا للغاية في

الكلاسيكيات، التي اقتبس منها ما لا يقل عن ٣٦٠ مرة.

كان كليمندس على قناعة تامة بأن الكنيسة إذا كان عليها أن تؤدي واجبها كاملاً نحو البشرية وأن ترتفع إلى مستوى المسئولية الملقاة على عاتقها أن تكون معلمة للأمم، فعليها أن تواجه الفلسفة اليونانية. وقد مكّنه تعليمه الهيلّيني من أن يجعل من الإيمان المسيحي منهجًا للفكر يستند إلى أساس علمي. وإذا ما اعترف بالتفكير والبحث العلمي في الكنيسة فالفضل في ذلك يرجع إليه أولاً وأخيرًا. فقد أثبت أن الإيمان والفلسفة، الإنجيل والتعليم العلمي، لا يتنافران بل يتكاملان. فكل التعليم الدنيوي يخدم الفكر اللاهوتي. فالمسيحية هي تاج وفخر كل الحقائق التي وُجدت في التعاليم الفلسفية المتباينة.

ومن بين كتبه توجد ثلاثة كتب توفر معلومات عن موقفه ومنهجه فيما يتعلق بالفكر اللاهوتي، وهي: Stromata ،Paedagogus ،Protrepticus وقصد من هذه الكتب الثلاثة بيان الطريق إلى الكمال. ولكن في الحقيقة لم يكن الأمر كذلك. فالكتابان الأولان يختلفان عن الأخير اختلافًا كبيرًا في المحتوى. فالكتابان الأولان قد كتبا من أجل النشر العام وللعامة. (موسوعة الكنيسة الأولى).

١- النصيحة إلى اليونانيين

أولى هذه الكتابات: كتاب "النصيحة -أو الحث- إلى اليونانيين" Protrepticus. وهي رسالة تستهدف دعوة اليونانيين إلى الإيمان المسيحي. وترمي إلى إقناع المتعبدين الوثنيين بزيف الآلهة و تفاهة المعتقدات الوثنية وإظهار السمات القبيحة للأسرار الخفية -في الممارسات- وإقناعهم بقبول الديانة الحقة الوحيدة، وتعليم اللوجوس (الكلمة) الذي بعد أن أعلن الأنبياء، ظهر في شخص المسيح. وهو يعد بحياة تقود إلى تحقيق أعمق ما كانت تصبو إليه البشرية، لأنه المسيح يعطي الخلاص والخلود. وفي نهاية الرسالة يحدد كليمندس هدفه من هذه الرسالة على النحو التالي:

"ما هي إذًا الرسالة التي أقدمها لكم؟ إني أحثكم على نوال الخلاص. وهذا هو ما يريده المسيح. وخلاصة القول، فهو يهبكم الحياة مجانًا. ومن هو (المسيح)؟ تعلموا بإيجاز: «إنه **كلمة** الحق، **وكلمة** الخلود الذي يلد الإنسان ولادة جديدة بأن يعيده إلى الحق -إنه مهماز الخلاص- ذاك الذي يطرد الدمار ويطارد الموت -ذاك الذي يبني هيكل الله في الإنسان حتى يسكن الله فيه».

وعلى أساس مضمونها فإن "النصيحة إلى اليونانيين" تنتمي بشكل وثيق إلى كتابات الآباء المدافعين في الكنيسة الأولى بما عُرف عنهم من هجومهم العنيف على الأساطير القديمة المتعلقة بالآلهة، ودفاعهم عن أصالة العهد القديم. وكان كليمندس على علم بهذه الكتابات وقد انتفع بها.

وهو -على غرارها- استمد براهينه ضد العقيدة الوثنية وعبادتها من الفلسفة اليونانية الشعبية.

ومن الجلي أن كليمندس كان لا يرى ضرورة من بعد للدفاع عن المسيحية ضد الاتهامات والافتراءات الكاذبة التي تعرضت لها في البداية. ويعد هذا الكتاب خطوة للأمام على الطريق. ذلك أنه يضيف إلى أقواله ضد الوثنية اعتقاداً راسخاً وإيماناً عميقاً عن الوظيفة التعليمية "للكلمة" على مدى تاريخ البشرية كله. وهو يمتدح في أسلوب شعري قوي وبكلمات مشرقة سمو الإعلان الإلهي في اللوجوس (الكلمة)، والعطية العجيبة للنعمة الإلهية.

وطبقًا للشكل الأدبي لكتاب "النصيحة" أو "الحث" فإنه يتعين تصنيفه على أنه ضمن النصائح التي تستهدف تشجيع الناس على اتخاذ قرار معين، وإلهامهم بهدف رفيع مثل دراسة الفلسفة بعامة، والكتاب الذي قرأه القديس أغسطينوس لشيشرون بعنوان "Hortensius"، قبل الإيمان، ينتمي إلى هذه النوعية. وهكذا استهدف كليمندس أن يثير حماسة قرائه بالنسبة للفلسفة الحقيقية الوحيدة، أي المسيحية.

٢- المُعَلِّم

"المعلم" أو "المربي" Paedagogus ، ويشمل هذا العمل ثلاثة كتب، يمثل الاستمرار المباشر لكتاب "النصيحة" وهو يخاطب أولئك الذين قبلوا النصيحة التي تضمنتها رسالة كليمندس الأولى، وقبلوا الإيمان المسيحي. فالكلمة (اللوجوس) يتقدم الآن كمعلم لكي يعلم هؤلاء المتجددين كيف يسلكون في حياتهم.

الكتاب الأول من هذا العمل يتسم بطابع أكثر عمومية، ويناقش الدور التعليمي للكلمة الإلهي ويهدف منه أن تكون النفس أفضل، لا أن يثقفها فحسب، بل أن يدربها على حياة الفضيلة. ويقول: "إن علم أصول التدريس إنما هو لتدريب الأطفال"، ثم يثير السؤال: من هم الذين يدعوهم الكتاب المقدس "أطفالاً"، إنهم ليسوا فقط -كما يدَّعي الغنوسيون- الذين يعيشون على مستوى أقل من الإيمان المسيحي. وبذلك يكون الغنوسيون (للمزيد من المعرفة ارجع إلى الباب السادس الخاص بالهرطقات في الجزء الأول من هذه الموسوعة) وحدهم هم المسيحيين الكاملين. بل كل الذين نالوا الخلاص ووُلدوا ثانية عن طريق المعمودية هم أولاد الله: "فإذ قد تعمدنا فقد استنرنا، وإذ استنرنا أصبحنا أبناءً، وإذ أصبحنا أبناءً فقد تكمَّلنا، وإذ قد تكمَّلنا أصبحنا خالدين" (المعلم ١: ٦: ١:٢٦).

والمبدأ الأساسي الذي يعلمه اللوجوس (الكلمة) لأولاده هو المحبة، في حين أن التعليم الخاص بالتدبير القديم كان قائمًا على الخوف. ومع ذلك فإن المخلص يستخدم لا أدوية معتدلة فحسب، بل أدوية قوية لأن الله كما هو صالح فإنه عادل في

ذات الوقت أيضًا. والمربي الناجح هو الذي يوفق بين الصلاح والعقوبة، والبر والمحبة لا يتنافران في الله. ويشير كليمندس هنا إلى تعليم مارقيون الهرطوقي (راجع الباب السادس الخاص بالهرطقات في الجزء الأول من هذه السلسلة للمزيد من المعرفة) القائل إن إله العهد القديم ليس إلاَّ إله العهد الجديد. والخوف أمر طيب إذا كان يحمي من الخطية:

"فالجذور المُرة للخوف تكبح قروح خطايانا الآكلة. ومن هنا كان الخوف مفيداً حتى وإن كان مُرًا. وإذ نحن مرضى، فإننا في الواقع بحاجة إلى المخلص. وإذ ضللنا فإننا بحاجة إلى من يرشدنا، وإذا كنا عميانًا، فإننا نحتاج إلى من يقودنا إلى النور، وإذ نحن عطشى، فنحن في حاجة إلى ينبوع الحياة الذي من يشرب منه لن يعطش إلى الأبد (يوحنا ٤:١٣ و١٤) وكموتى، نحن في حاجة إلى الحياة، وكخراف نحتاج إلى راعٍ، فنحن الأبناء في حاجة إلى معلم، في حين أن الإنسانية برُمتها تحتاج إلى المسيح.. وإذا أردتم يمكنكم أن تتعلموا الحكمة الفائقة للراعي والمعلم كلي القداسة، الكلمة الأبوي كلي القدرة، وذلك حين قدم نفسه في تشبيه مجازي على أنه هو "راعي" الخراف، وأنه هو معلم الأبناء. ولذلك قال على لسان حزقيال موجهًا كلامه للشيوخ واضعًا أمامهم وصفًا نافعًا لقلقه الحكيم: "على جبال إسرائيل العالية هنالك تربض في مراعٍ حسن وفي مرعًى دسم يرعون على جبال إسرائيل. وأطلب الضال وأسترد المطرود وأجبر الكسير وأعصب الجريح.. وأرعاها بعدل" (حزقيال ٣٤:١٤ و١٦). هذه هي وعود الراعي الصالح. (المرجع السابق ١: ٩: ٨٣: ٢-٣:٨٤).

وفي مستهل **الكتاب الثاني** تتطرق الرسالة إلى مشاكل الحياة اليومية. وفي حين أن الكتاب الأول يركز على المباديء العامة للأخلاقيات، إلاَّ أن الكتابين الثاني والثالث يقدمان رؤية تمس جميع مناحي الحياة: الطعام، الشراب، البيوت، الأثاث، الموسيقى،.. إلخ ويقدم وصفًا هامًا للحياة كما كانت عليه في مدينة الإسكندرية آنذاك من ترف ورذائل. ويحذر الكاتب المسيحيين من الانغماس في مثل هذه الحياة، فيقدم لهم بعض القوانين الخاصة بالسلوك المسيحي في مثل تلك الظروف. ومع ذلك لا يطلب كليمندس من المسيحي أن يحرم نفسه من مباهج الحضارة، بل ولا يطلب منه التنكر للعالم أو أن يكرس نفسه للفقر. والنقطة الحاسمة هي موقف الروح. فطالما جعل المسيحي قلبه حرًا من كل ما يتصل بآلهة هذا العالم فلا مبرر لاعتزاله أصحابه. بل إنه من المهم أن تصطبغ الحياة الثقافية للمدنية بالروح المسيحية.

٣- المتنوعات أو المتفرقات

المتنوعات أو المتفرقات أو البُسُط Stromata أو Carpets {والبَساطُ وكل ما يُبسَطُ، وضرب من

الفُرُش يُنسَج من الصوف ونحوه. جمعه بُسُط، (ارجع إلى المعجم الوسيط الجزء الأول)}.

في ختام كتابه "المعلم" يقول كليمندس:

"إذا كان **المعلم** حينئذ يريد أن يكملنا بمرحلة تفضي إلى الخلاص، تناسب تربية فعَّالة. لذا استخدم استخدامًا حسنًا (الكلمة) كُلِّي الرأفة، الذي ينصح أولاً ثم يدرب وأخيرًا يُعلم". (١:١:٣:٣). ويتضح من هذه الكلمات أن كليمندس قصد أن يكتب كتابًا عنوانه "المعلم" أو "المربي" ليشكل الجزء الثالث من ثلاثية. وهذا الكتاب يتطلب تركيبًا منطقيًا دقيقًا. ذلك أن الكتابين السابقين يُظهران أنه لاهوتي نظامي ليس بمقدوره السيطرة على كم ضخم من المادة. لذلك اختار الصيغة الأدبية "المتنوعات" أو "البُسُط". والتي تلائم بالأكثر ميوله الخاصة. وتسمح له- وهذا ما حدث بالفعل- من تقديم مناقشات رائعة موسعة بأسلوب سهل ومشوق. كما أن اختيار عنوان الكتاب هكذا، يناسب الاختيارات التي كانت مستخدمة في ذلك الحين. وتشير إلى ما كان يفضله الفلاسفة من عناوين تعطيهم الحرية في اختيار الموضوعات، والانتقال بينها دون قيود.

وهذا العمل يتألف من ثمانية كتب. وأهم موضوع تناولته هو علاقة الديانة المسيحية بالعلم الدنيوي. وبخاصة علاقة الإيمان المسيحي بالفلسفة اليونانية. وفي **كتابه الأول** من هذا المصنف يدافع كليمندس عن الفلسفة حيث يرد على الاعتراض بأن الفلسفة لا قيمة لها بالنسبة للمسيحيين. فيجيب على ذلك بأن الفلسفة عطية من الله وهبت لليونانيين بتدبير إلهي.

بنفس الأسلوب الذي أعطي به الناموس لليهود. غير أنه بمقدورها أن تقدم خدمة هامة للمسيحي أيضًا، إذا ما أراد معرفة مضمون إيمانه.

ولعل الفلسفة قُدمت لليونانيين بصفة مباشرة ورئيسية إلى أن يدعو الرب اليونانيين. لأن هذه كانت بمثابة المدرسة التي تقود الفكر الهيلِّيني إلى "المسيح"، كما فعل الناموس بالنسبة للعبرانيين. ولذلك كانت الفلسفة إعدادًا يمهد الطريق لذاك الذي هو كامل في المسيح. (١:٥:٢٨).

وهكذا ذهب كليمندس إلى أبعد مما ذهب إليه يوستينوس الشهيد، الذي تحدث عن أن أصل اللوجوس (الكلمة) بأنه موجود في الفلسفة اليونانية. أما كليمندس فيشبهها بالعهد القديم من ناحية أنه هيَّأ البشرية لمجيء المسيح. ومن جهة أخرى كان كليمندس متلهفًا لتأكيد حقيقة أن الفلسفة لا يمكنها أن تأخذ مكان الإعلان الإلهي. وكل ما يمكن أن تفعله هو الإعداد لقبول الإيمان. وهكذا يدافع في كتابه الثاني عن الإيمان ضد الفلاسفة: "إن الإيمان، الذي يحط اليونانيون من قدره إذ يعتبرونه تافهًا وهمجيًا، هو اختياري، وقبول للتقوى -وبحسب ما ذكره بولس- "فهو الثقة

بما يرجى والإيقان بأمور لا تُرى" "فبدون إيمان لا يمكن إرضاؤه" (عبرانيين ١١: ١و٦). (٢:٢:٨:٤).

ومعرفة الله لا يمكن الوصول إليها إلاَّ بالإيمان، والإيمان هو أساس كل معرفة. فإذا كان من المستطاع أن نجد بذور الحقائق الإلهية في تعاليم فلسفية مختلفة فذلك مرده أن اليونانيين استخلصوا كثيراً من معتقداتهم من أنبياء العهد القديم. ولقد ذهب كليمندس إلى مدى بعيد في إثبات أنه حتى أفلاطون حين صاغ كتاب الشرائع كان يقتدي بموسى، وأن اليونانيين أخذوا عن البرابرة (أي اليهود).

أما الكتب الأخرى فتتناول دحض أفكار الغنوسية، ومبادئها الدينية والأخلاقية الزائفة. ولقد رسم الكاتب صوراً رائعة للغنوسية الحقيقية وعلاقتها بالإيمان، على اعتبار أنها نقيض للغنوسية الزائفة. والكمال الأخلاقي، والذي يقوم على أساس الطهارة ومحبة الله هو علامة للغنوسية النموذجية بالمقابلة مع الغنوسية الهرطوقية. وقد قال كليمندس في نهاية الكتاب السابع إنه لم يجب بعد عن جميع الأسئلة التي بدت هامة بالنسبة للحياة اليومية للمسيحيين ومعرفتهم الدينية. ولذلك وعد بجزء آخر وكانت لديه الرغبة في عمل بداية جديدة. ومع ذلك فإن ما يُسمى بالكتاب الثامن من "المتنوعات" يبدو أنه ليس استمراراً للكتاب السابع، بل هو مجموعة من الصور الوصفية والدراسات التي استخدمت في الأقسام الأخرى من الكتاب. وعلى هذا فيبدو أنه لم يكن في النية نشرها، ولكنها صدرت بعد وفاته، ولم يكن يقصد نشرها هكذا.. (كواستن: مرجع سابق).

د- نفس الرأي السابق ينطبق أيضاً على هذين العملين: Excerpta ex Theodoto and Eclogae Propheticae وقد أعقبا كتاب "المتنوعات" في تقليد المخطوطات.

ويرى كواستن أنها ليست مقتطفات أو مختارات قام شخص آخر بجمعها للأجزاء المفقودة من "المتنوعات" أو "البُسُط" كما يعتقد زان Zahn، لكنها مقتطفات من كتابات غنوسية مثل كتابات ڤالنتنيانوس الغنوسي. ومن الصعوبة البالغة الفصل بين المقتطفات المأخوذة من مصادر غنوسية وبين أقوال كليمندس نفسه.

٤- من الذي يَخْلُصْ؟

الكتيب الذي يحمله عنوان: "من الغني الذي يَخْلُصْ؟" إن هو إلاَّ عظة دينية على نص من إنجيل مرقس، والتي يبدو أنها لم تكن عظة ألقيت في اجتماع ديني عام. وهو يبين كيف أن كليمندس حاول أن يتغلب على الصعاب التي تولدت عند سامعيه نتيجة تفسير حرفي لوصايا الإنجيل، وكتاب "المعلم" يشير إلى أنه كان هناك أثرياء من بين مستمعي كليمندس. وهذه العظة تفترض الشيء ذاته. وكان من رأي كليمندس أن وصية

الرب: "اذهب وبع كل ما لَك وأعطِ الفقراء" (مرقس ١٠:٢١). لا يمكن أن يُفهم منها أن الغنِي الذي على هذا النحو يحرم صاحبه من ملكوت السموات، فليس من الضروري أن يتخلص الإنسان من كل ما يملك لكي يَخلُص. ويفسر كليمندس كلمات الرب على أنها نصيحة أو تحريض لكي نحفظ القلب من أية رغبة في امتلاك المال، وتحريره من أية صلة مبالغ فيها به. فإذا ما استغنى كل مسيحي عن ممتلكاته فلن تكون ثمة فرصة لمساعدة الفقراء. وسلوك الإنسان هو الأمر الحاسم، لا حقيقة كونه معدمًا أو ثريًا. علينا أن نكبح الشهوات لا الثروات، فالخطية لا الغِنى، هي التي تحرم الإنسان من ملكوت السموات. وفي الختام ذكر كليمندس أسطورة الرسول يوحنا والشاب الذي سقط بين اللصوص ليثبت أنه حتى أعتى الخطاة يمكنه أن يخلص إذا ما تاب توبة حقيقية (ارجع إلى يوسابيوس: تاريخ الكنيسة ٣:٢٣).

(جـ) كتابات مفقودة

١- من أهم الكتابات المفقودة كتاب **"الخطوط العريقة" أو "المخطوطات"** Hypotyposeis ويتألف من ثمانية كتب. ويعد أقدم تفسير دقيق لكل الأسفار القانونية للعهدين: القديم والجديد، بل وحتى للأسفار التي موضع جدل. ولا يوجد سوى مقتطفات قليلة منها محفوظة باليونانية. وقد ذكر يوسابيوس أكبر عدد منها. كما توجد مقتطفات أخرى منها في الكتابات المنحولة المنسوبة لأوكومينيوس (Oikomenius). كما توجد اقتباسات أخرى في أعمال كُتَّاب آخرين. وهي تؤكد على أن ذلكم العمل لا يقدم تفسيرًا للنص برُمته، بل تفسيرًا مجازيًا لبعض الآيات المختارة. وطبقًا لما ذكره يوسابيوس فإن كليمندس ذكر معلمه بنتينوس في هذا العمل (المرجع السابق ٥:١١:٢، ٦:١٣:٢)، غير أننا لا نعرف إلى أي مدى اعتمد على محاضرات مُعلمه. ويوجد لدى فوتيوس النص الكامل لكتاب المخططات، وقد انتقده بشدة.

٢- "عن الفصح"

نعرف من يوسابيوس المؤرخ القيصري أن كليمندس السكندري كتب عملاً عن "الفصح" أعلن فيه أن زملاءه حملوه على الكتابة عن تقاليد سمعها من الشيوخ قديمًا، وذلك لفائدة أولئك الذين يأتون فيما بعد. وقد ذكر فيها ميليتو وإيريناوس وغيرهما. ولم تُحفظ من هذه الكتابة سوى اقتباسات قليلة وموجزة.

٣- "القانون الكنسي"

القانون الكنسي ecclesiastical canon أو ضد التهوديين، وأهداه إلى إسكندر أسقف أورشليم (كواستن: مرجع سابق) (ارجع أيضًا إلى الباب الرابع: الفصل الرابع من الجزء الأول).

٤- "عن العناية الإلهية"

نسخ أنستاسيوس السينائي فقرة من الجزء الأول من كتاب On Providence وتوجد شذرات

أخرى عديدة تشير إلى أنها أعطت تعريفات فلسفية. وهذه لم يذكرها يوسابيوس أو أي مؤرخ أو كاتب آخر من مؤرخي الكنيسة أو كتَّابها. ولذلك تبقى أصالة هذه المادة موضع شك.

٥- "نصيحة للتحمل" أو "نصيحة للمعتمدين حديثًا": ونعرفه من يوسابيوس القيصري.. ويرجح أن شذرة- في مخطوطة عنوانها "نصائح لكليمندس" مأخوذة من هذا العمل المفقود.

٦- أحاديث عن الصوم" و"عن الافتراء"

ويذكرهما يوسابيوس إلاَّ أنه لا أثر لهما.

٧- "عن عاموس النبي"

والوحيد الذي يذكره هو بلاديوس Palladious على اعتبار أن كليمندس هو كاتبه.

٨- لا تتوافر لنا أية رسائل لكليمندس: إلاَّ أنه يرد في كتاب النظائر المقدسة ثلاث عبارات تنسب لكليمندس. اثنتان منها من رسالة رقم ٢١ .

✢✢✢✢

د- ملامح من الفكر اللاهوتي عن كليمندس السكندري

إنه ليس من قبيل المبالغة أن نعتبر أن كليمندس هو الرائد المؤسس للفكر اللاهوتي التأملي. وإذا ما قارنَّا بينه وإيريناوس، فمن الجلي أنه يمثل نمطًا مختلفًا تمامًا كمعلم كنسي. فقد كان إيريناوس رجل التقليد الذي استمد تعليمه من الوعظ الرسولي. وكان يرى أن أي تأثير من الثقافة والفلسفة السائدة خطر على الإيمان. أما كليمندس فقد كان الرائد الشجاع الناجح لمدرسة كانت تهدف إلى حماية الإيمان وتعميقه عن طريق الاستفادة من الفلسفة. وقد رأى خطرًا داهمًا في إضفاء الصبغة الهيلِّينية على المسيحية -كما فعل إيريناوس- وقد حارب كل منهما الغنوسية الزائفة والهرطوقية، إلاَّ أن ما يميز كليمندس هو أنه لم يكن سلبيًا في موقفه بل واجه ذلك بأن أقام غنوسية مسيحية صحيحة، حيث وضعت في خدمة الإيمان كنز الحقائق القائمة في النظريات الفلسفية المختلفة.

وبينما كان الهراطقة الغنوسيون يعلمون أنه لا يمكن التوفيق بين الإيمان والمعرفة لأنهما متعارضان، فإن كليمندس أخذ على عاتقه إثبات أنهما متقاربان، وأن التناغم بين الإيمان والمعرفة أساس المسيحي الكامل، والعارف (الغنوسي) الحقيقي. فالإيمان هو مبدأ الفلسفة وأساسها. وفضلاً عن ذلك فإنها مهمة للغاية بالنسبة لأي مسيحي يريد أن يسبر غور إيمانه عن طريق المنطق. وفي ذات الوقت تثبت الفلسفة أن هجمات الأعداء ضد العقيدة المسيحية تقوم على غير أساس:

"فالفلسفة الهيلِّينية بنهجها لا تضفي على الحقائق مزيدًا من القوة، لكنها إذ تضعف الهجمة

السوفسطائية ضدها، وتحبط المؤامرات الغادرة ضد الحقيقة فقد قيل إنها سور الكرم الصحيح وسياجه" (المتنوعات ١:٢٠:١٠٠).

ويصور كليمندس بشكل مناسب للغاية العلاقة بين الإيمان والمعرفة. وإنها لحقيقة أنه في بعض الأحيان يذهب بعيداً حين ينسب للفلسفة اليونانية دوراً مبرراً ويكاد يكون خارقًا للطبيعة، إلاَّ أنه ينظر إلى الإيمان على أنه وبشكل جوهري أكثر أهمية من المعرفة، فيقول: "الإيمان أسمى من المعرفة بل هو معيارها" (المتنوعات ٢:١٤:١٥).

١- تعليمه عن اللوجوس

حاول كليمندس أن يقيم منهجًا للفكر اللاهوتي وجعل اللوجوس (الكلمة) هو بدايته وأساسه. وفكرة القديس كليمندس واقعية ومتطورة بالنسبة لغيرها من الأفكار عن اللوجوس.

جعل كليمندس من اللوجوس المبدأ الأسمى للتفسير الديني للعالم. فاللوجوس هو خالق الكون. وهو الذي أظهر الله في ناموس موسى في العهد القديم. وفي فلسفة اليونانيين، وأخيراً بتجسده في ملء الزمان. وهو مع الآب والروح القدس هم الثالوث القدوس. وإنه من خلال اللوجوس أصبح بمقدورنا أن نعرف الله لأن الآب لا يمكن أن يسمى:

"وبالنظر إلى أنه من الصعوبة اكتشاف المبدأ الأول لأي شيء، فإن الأول المطلق، والمبدأ الأقدم، والذي هو علة كل شيء آخر، كائن أو كان من الصعب إظهاره. لأنه كيف يمكن التعبير عنه ذاك الذي ليس هو جنسًا أو مختلفًا أو صنفًا أو فرداً أو عدداً، وليس بمقدور أحد أن يعبر عنه بشكل صحيح وتام لأنه على أساس عظمته هو الكل، وهو خالق الكون. بل ولا يمكن التنبوء عن أجزاء منه، لأن "الواحد" غير قابل للتجزئة، ولذلك فإنه أيضًا غير محدود، ولا يحاط به فهو بلا أبعاد وليس له حد. وعلى هذا فهو بدون شكل أو اسم. وإذا أعطيناه اسمًا، فلا نفعل ذلك على نحو صحيح، حيث ندعوه إما "الواحد" أو "الصالح" أو "العقل" أو "الكائن المطلق" أو "الآب" أو "الله" أو "الخالق" أو "الرب". ونحن نتحدث لا كأننا نعطيه اسمًا، بل لأن الضرورة حتَّمت علينا أن نستخدم أسماءً "حسنى" كي تساعد هذا الفكر، وحتى لا نخطيء في أمور أخرى. لأن كل اسم من هذه الأسماء بمفرده لا يعبر عن الله، إلاَّ أنها كلها معًا تشير إلى قوة ذاك الذي هو كلي القوة.

فهذه الأسماء تطلق على الخصوص، أو بما ترتبط به الأشياء نفسها أو من العلاقة المتبادلة. إلاَّ أنه ليس من بينها ما هو مقبول بالنسبة للَّه. بل وما كان مفهومًا بواسطة الأدلة. لأن ذلك يعتمد على مباديء أولية ومعروفة بشكل أفضل. فلا شيء سابق لغير المولود. وهنا ليس لنا إلاَّ أن نفهم غير المعروف (أي اللَّه) بواسطة النعمة الإلهية وبواسطة الكلمة وحده الذي انبثق منه". (المتنوعات ٥:١٢:٨٢).

والكلمة في ذاته كعقل إلهي، كان بالضرورة مُعلِّم العالم والمشرع للبشرية. غير أن كليمندس يعرِّفه أيضًا باعتباره مخلص للبشرية. وموجد حياة جديدة تبدأ بالإيمان وتتقدم إلى المعرفة والتأمل وتؤدي من خلال المحبة والخير إلى الخلود. والمسيح الكلمة المتجسد هو إله وإنسان، وبواسطته قمنا إلى حياة مقدسة. ولذلك فهو يتحدث عن المسيح باعتباره شمس البر.

"مرحبًا بالنور العظيم. لأنه فينا نحن، المدفونين في الظلمة، والمحبوسين في ظل الموت.. أشرق نور من السماء، أكثر ضياءً من الشمس، وأعذب من هذه الحياة التي على الأرض. هذا النور هو الحياة الأبدية، وكل من يشارك فيها يحيا، غير أن الليل يخشى النور، ويفر في ذعر، ويفسح مكانه لنهار الرب.النور الذي لا ينام هو الآن فوق الكل. لأن "شمس البر" الذي يقود مركبته فوق الجميع ينشر أشعته وبشكل متساوٍ على كل البشرية، مثل أبيه الذي يشرق شمسه على الجميع". وينزل عليهم ندى الحق. هو الذي بدَّل غروب الشمس إلى شروق، ومن خلال الصليب أبطل الموت وأنار الحياة، وإذ انتزع الإنسان من الهلاك رفعه إلى السموات، غارسًا الفاني في الخلود ومحولاً الأرض إلى سماء. إنه الزارع الإلهي، بعد أن وهبنا ميراث الآب. ذلك الميراث الإلهي الحقيقي العظيم الذي لا يُنزع منا. وهو يهبه لنا بواسطة التعليم السماوي. جاعلاً من الإنسان إلهاً قدَّم شرائع لأذهانهم، وكتبها في قلوبهم". (النصيحة إلى اليونانيين ١١:٨٨:١١٤).

وهكذا فإن فكرة اللوجوس هي مركز نظام كليمندس اللاهوتي، بل وكل تفكيره الديني. ومع ذلك فإن المثل الأسمى في الفكر المسيحي ليس فكرة اللوجوس بل فكرة الله. ولهذا السبب جانب النجاح كليمندس في محاولته تأسيس فكر لاهوتي علمي. (كواستن: مرجع سابق).

٢- دراسة "عن الكنيسة"

كان كليمندس على قناعة تامة بأنه لا توجد سوى كنيسة واحدة جامعة، كما أنه لا يوجد سوى آب واحد، و"كلمة" قدوس واحد، وروح قدس واحد. وهو يدعو هذه الكنيسة الأم العذراء التي تطعم أولادها بلبن "الكلمة" الإلهي.

ويقول كليمندس في إحدى الفقرات: "الأم تجذب أولادها إليها، ونحن نطلب أمنا، الكنيسة. وفي الفصل الأخير من كتابه المعلم (أو المربي) يدعوها عروس المعلم وأمه. فهي المدرسة التي فيها يسوع هو المدرس. ثم يستطرد كلامه قائلاً: "أيا تلاميذ المعلم السماوي الطوباويين. لنكمل (بحضورنا) الملامح الجميلة للكنيسة، ولنقم كأطفال بالسعي نحو أمنا الصالحة. وبعد أن نصبح سامعين للكلمة، دعونا نمجد التدبير المبارك الذي بفضله قام المعلم بتربية الإنسان.. وكمواطن سماوي، حيث دربه المعلم على الأرض، لكي يكون

مواطنًا في السماء، حيث يلتقي هناك بالآب، الذي عرفه على الأرض". (المعلم ٣:١٢:١٩).

وهذه الكنيسة تختلف في وحدتها وفي قِدمها، عمًّا جاء في الهرطقات:

"وإذ كان الحال على هذا النحو، فإنه من الثابت، من قدم الكنيسة السحيق، وحقيقتها الكاملة، أن هذه الهرطقات الأخيرة، وتلك التالية لها من حيث الزمن، ما كانت سوى اختراعات جديدة زائفة (بعيدة عن الحقيقة).

ومع ذلك، فإني أرى، على ضوء ما سبق قوله، أن الكنيسة الحقيقية، والتي هي قديمة بالفعل، هي كنيسة واحدة، وقد سُجِّل فيها أولئك الذين هم بحسب قصد الله أبرار... فالله واحد والرب واحد.. وتشترك الكنيسة الواحدة في الطبيعة الواحدة.. وقد جرت محاولات عنيفة لتمزيق (وحدة) الكنيسة إلى عدة شيع.. فإنه من ناحية الجوهر والفكرة، ومن ناحية الأصل والأهمية نقول إن الكنيسة الأولى والجامعة هي وحدها التي تجمع، كما هو حاصل بالفعل، إلى وحدة الإيمان، أولئك الذين سبقوا أن عُينوا، أي الذين سبق فعرفهم قبل تأسيس العالم، أي سبق وأعدَّهم ليكونوا أبرارًا.: إلاَّ أن سمو الكنيسة كقاعدة للوحدة، إنما هو في وحدتها، وهي في هذه الناحية تفوق كل ما عداها وليس لها ما يشابهها أو يساويها" (المتنوعات ٧:١٧:١٠٧).

ويعرف كليمندس أن العقبة الكؤود التي تعترض طريق تجديد الوثنيين واليهود واعتناقهم المسيحية تكمن في الشيع المنحرفة. "ذلك أنهم في بداية الأمر قدَّموا لنا هذا الاعتراض قائلين: إنه لا ينبغي عليهم أن يلتزموا بالإيمان بسبب الانشقاق الحادث بين الشيع. لأن الحق كثيرًا ما يضيع حين تقوم شيعة ما بتعليم مجموعة من المباديء والتعاليم وتقوم الشيع الأخرى بتعليم مباديء مغايرة.

ونرد عليهم: إنه بينكم أنتم أيها اليهود وبين أشهر الفلاسفة اليونانيين ظهرت كثير من الجماعات والنظريات. وعلى الرغم من ذلك فإنكم لا تقولون إن الإنسان يجب أن ينأى عن الفلسفة. أو يمتنع عن التلمذة لليهود لعدم وجود اتفاق بين الشيع القائمة بينكم. ثم إن هذه الهرطقات قد سبق أن تنبأ عنها الرب، أنه ستزرع الهرطقات في حقل الحقيقة كما يزرع الزوان بين الحنطة (القمح) ولا يمكن لأحد الحيلولة دون حدوث ما سبق الرب أن تنبأ به. وما سبب ذلك سوى أن كل ما هو جميل دائمًا ما يتعرض للتشويه المغالى فيه. فإذا ما أخلَّ أحد بالتزاماته وتنحى عن الاعتراف الذي اعترف به أمامنا، فهل يعني هذا ألاَّ نتمسك بالحق لأن هذا الشخص نقض التزاماته؟ إلاَّ أنه كما أن الإنسان الصالح لا يجب أن يثبت زيفه أو يفشل في أن يفي بما وعد به على الرغم من أن آخرين ينتهكون التزاماتهم، هكذا نحن أيضًا ملتزمون بألاَّ

ننتهك بأي حال من الأحوال قانون الكنيسة. ولا سيما الاعتراف بالبنود الأساسية للإيمان، والذي نلتزم نحن به، بينما يتغافل عنه الهراطقة ويحتقرونه" (المتنوعات ٧:١٥:٨٩).

والعبارات الأخيرة في هذه الفقرة تشير إلى أن كليمندس كان يعرف قانونًا تجمعت فيه كل عناصر الإيمان الضرورية. ذلك أنه كان يؤمن إيمانًا وطيداً بالوحي الإلهي الخاص بالأسفار المقدسة:

"إن من يؤمن بالأسفار الإلهية بيقين ثابت يتلقى من خلال صوت الله الذي أعطى هذه الأسفار دليلاً لا يمكن دحضه (المتنوعات ٢:٢:٩).

إلاَّ أنه يحذر من سوء استخدام الهراطقة للأسفار المقدسة":

"وإذا ما تجاسر الذين يتبعون الهرطقات على أن يستخدموا الأسفار النبوية فإنهم لن يقبلوا الأسفار الكتابية كلها، وفضلاً عن ذلك فإنهم لن يستشهدوا بها برُمتها، بل وليس كما يقول سياق النبوة ونصها. بل إنهم ينتقون الفقرات الغامضة، ثم يحرفونها لتتناغم مع أفكارهم، ويجمعون تعبيرات قليلة من أماكن متفرقة، غير مبالين بالمعنى الخاص، بل بالمعنى الذي يخفونه هم لها. لأنه في جميع الاقتباسات -تقريبًا- التي اقتبسوها ستجدهم قد اهتموا بأسماء الكاتبين في الوقت الذي غيَّروا فيه المعاني، فهم لا يعرفون كما يؤكدون، بل ولم يستخدموا الاقتباسات التي أوردوها طبقًا لطبيعتها الحقيقية. إلاَّ أن الحقيقة لا تقوم بتغيير معاني الكلمات، لأن الناس بهذه الطريقة يفسدون كل عقيدة، لكن الحق يوجد في الأخذ بعين الاعتبار كل ما ينتمي بالتمام إلى السيد الإله ويليق به، ومقارنة التعليم بالتعليم بإسناد نصوص الأسفار المقدسة بعضها إلى بعض بإيراد الأقوال المناظرة لها في الكتاب المقدس (قارنين الروحيات بالروحيات). وعلى هذا فإن الهراطقة لا يريدون أن يعودوا إلى الحق إذ استحيوا من أن يتخلوا عن حب الذات، بل وما كانوا بقادرين على ترويج آرائهم إلاَّ عن طريق تشويه الكتاب المقدس" (المتنوعات ٧:١٦:٩٦).

والتسلسل الرئاسي في الكنيسة الذي يتكون من ثلاث درجات هي: الأساقفة والكهنة والشمامسة، في رأي كليمندس تقليد لطغمات الملائكة إذ يقول:

"في رأيي أن الدرجات الموجودة هنا في الكنيسة وهي: الأساقفة والكهنة والشمامسة إن هي إلاَّ اقتداء بالمجد الملائكي وبالتدبير الذي يقول عنه الكتاب المقدس إنه يتوقع أولئك الذين يسيرون على نهج الرسل، والذين عاشوا في كمال البر طبقاً للإنجيل" (المتنوعات ٦:١٣:١٠٧).

وهذه المحاولة التي جرت لوصف الترتيب الرئاسي للملائكة على وجه التحديد تمثل أمراً جديداً في تطور الفكر اللاهوتي، وكذلك يعرض

كليمندس نظرية المعرفة الملائكية ووضع الأساس لآراء القديس أغسطينوس- ومن حقيقة أنهم يحملون صلواتنا إلى الله استنتج كليمندس أنهم يعرفون أفكار الناس، وهو يعلِّم أيضًا بأنه ليست لهم حواس، وأنهم يعرفون بشكل فوري وبسرعة مثل الفكر الذي لا يمر بالحواس. ولذلك فإن مفهومه عن روحانية الملائكة وعدم وجود أجسام لها هو مفهوم سام ويفوق بكثير مفهوم القديس يوستينوس في هذا الأمر. (كواستن: مرجع سابق).

٣- المعمودية

المعمودية في فكر القديس كليمندس هي ولادة ثانية وتجديد:

"لأنه بهذه الطريقة يريدنا (الرب يسوع المسيح) أن نتجدد لنصبح كالأطفال معترفين بذاك الذي هو أبونا الحقيقي، حيث نولد ثانية بالماء، وهذه ولادة مختلفة عن تلك التي كانت بالخلق" (المتنوعات ٣:١٢:٨٧).

ويصف في كتابه "المعلِّم" نتائج المعمودية هكذا:

"إذ اعتمدنا فقد استنرنا، وإذ قد استنرنا فقد أصبحنا أولادًا، وإذ أصبحنا أولادًا نسير في طريق الكمال، وبالكمال ننال الخلود" (أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم) (مزمور ٦:٨٢). والمعمودية تدعى بأسماء مختلفة: نعمة، استنارة، تكميل، غسل، لأننا بواسطتها نتطهر من خطايانا، وننال بها نعمة تلغي بواسطتها العقوبات الناجمة عن تعدياتنا، وتنويراً نشاهد به نور الخلاص المقدس، أي أننا بها نرى الله بوضوح. ونحن نسمى من لا يعوزه شيء بالكامل. فما الذي يحتاجه بعد، ذاك الذي يعرف الله؟ لأنه كان أمرًا بغيضًا حقًا أن نطلق على ذاك الذي ليس كاملاً أنه "نعمة الله".

٤- الإفخارستيا

تشير فقرة وردت بكتاب المتنوعات أن كليمندس لم يكن يؤمن بالذبائح.

"في الواقع إننا لا نضحي بشيء لله الذي هو ليس بحاجة إلى شيء، والذي يمد الناس أجمعين بكل ما يحتاجونه، غير أننا نمجد ذاك الذي قدَّم نفسه ذبيحة من أجلنا، ونحن أيضًا نقدم أنفسنا كذبائح.. لأن الله لا يُسر إلاَّ بخلاصنا فحسب" (المرجع السابق ٣:٧). ومع ذلك يكون من الخطأ أن نستخلص من هذه الأقوال أن كليمندس لم يكن يعترف بالإفخارستيا باعتبارها ذبيحة العهد الجديد. ففي الفقرة السابقة كان يتحدث عن الطقوس الوثنية. لأنه يقول فيما بعد:

"ولذلك فنحن وعن حق أيضًا لا نقدم ذبائح لذاك الذي لا تغلبه المسرات ناهيك عن الدخان الذي لا يصل حتى طبقات السحب السميكة بل إنه يتوقف تحتها بمسافات بعيدة، أما التي يصل إليها فهي أبعد منها بكثير. وعلى هذا فالله ليس في حاجة إلى شيء، وهو لا يحب المسرات أو الكسب أو المال، لأنه غني ويقدم كل شيء لكل من أصبح له

وجود وله احتياجات. ثم إنه ليس بالذبائح والتقدمات، ومن ناحية أخرى ليس بالمجد والتكريم يمكن أن نكسب الله، بل إنه لا يتأثر بأي من هذه الأمور، وهو لا يظهر إلاَّ للممتازين والصالحين الذين لا يخونون العدالة إطلاقًا أمام الوعيد، ولا بإغراء الوعد بالعطايا العظمى".. (المتنوعات ١٤:٣:٧ و١٥).

وذبائح الوثنيين الدموية لا تتفق مع المفهوم المسيحي عن الله ولذلك يعتبرها المسيحيون غير جديرة بالله. وهنا يتفق كليمندس تمامًا مع الآباء اليونانيين المدافعين الذين يرفضون الذبائح الدموية للسبب نفسه. إلاَّ أنه يعرف ذبيحة الكنيسة هكذا:

"ذبيحة الكنيسة هي الكلمة التي تصعد كالبخور من النفوس المقدسة، الذبيحة والعقل كله الذي يكون في ذات الوقت مكشوفًا أمام الله". (المتنوعات ٣٢:٦:٧).

والطابع الروحي للتقدمة التي سبق أن أكد عليها، لا يستبعد التقدمة الرمزية التي تستخدم في العبادة. وقد عرف هذا تمام المعرفة. وناقش في كتابه المتنوعات مسألة استخدام الهراطقة للخبز والماء، وأن بعضهم يستخدم الماء فحسب، وهو يدين ذلك باعتباره ضد القانون الكنسي الذي يتطلب خبزًا وخمرًا، "ملكي صادق ملك ساليم وكاهن الله العلي، الذي قدَّم خبزًا وخمرًا، قد أسَّس بذلك طعامًا مكرسًا لنوع من القربان المقدس" (٢٥:٤). وكما يرى في الإفخارستيا ذبيحة، ينظر إليها أيضاً كغذاء للمؤمنين فيقول:

"(لقد قال السيد المسيح) من يأكل جسدي.. ويشرب دمي" (يوحنا ٥٤:٦). هذا هو الطعام المناسب الذي يقدمه الرب، وهو يقدم لنا جسده، ويسكب دمه، ولا يحتاج الأطفال إلى شيء آخر لكي ينموا. يا له من سر عجيب! فقد أمرنا بأن نخلع الفساد الجسدي العتيق، وكذلك الغذاء القديم، نقبله غذاءً آخر هو (غذاء) المسيح، نقبله هو نفسه. وهذا معناه أننا نكتنز المخلص في ذواتنا ونصحح مشاعر جسدنا. لكنك لا تميل لأن تفهمه على هذا النحو، ولعلك تفهمه على نحو أكثر عمومية. ولذلك استمع أيضًا للتفسير التالي. "الجسد من الناحية المجازية يمثل الروح القدس بالنسبة لنا، لأن الجسد خلق بواسطته.. والدم بالنسبة لنا يشير إلى "الكلمة" لأن الكلمة كالدم الذي يتدفق بغزارة، هكذا تنتشر الكلمة في العالم، واتحادهما معًا هو الرب، غذاء الأطفال- لأن الرب هو روح وكلمة" (المعلم: ١:٦: ٤٢، ٣- ٤٣:٢).

وأهم فقرة في هذا الشأن نجدها في كتابه المعلِّم: "ودم الرب مزدوج. دم جسده، الذي افتدينا به من الفساد من جهة، والدم الروحي الذي به مُسحنا من جهة أخرى. ومعنى أن تشرب دم يسوع هو أنك أصبحت شريك الرب في الخلود، ذلك لأنه إذا كان الروح هو العنصر الفعَّال في

الكلمة، فإن الدم هو العنصر الفعّال في الجسد. وطبقًا لذلك فإنه كما أن الخمر يمزج بالماء، فهكذا الروح بالإنسان. ثم إن هذا المذيج الواحد، من الخمر والماء، يغذي للإيمان، كما أن الآخر، أي الروح يقودنا إلى الخلود.

وامتزاج الاثنين -أي الشراب والكلمة- يسمى إفخارستيا. إنها النعمة معروفة ومجيدة، والذين يشاركون فيها بالإيمان يقدسون في الجسد والروح". (المعلِّم ٢:٢:١٩:٤-٢٠:١).

ويميز القديس كليمندس هنا بين الدم البشري ودم المسيح في الإفخارستيا. فالأخير يسميه المزيج المكوَّن من الشراب والكلمة. وقبول دم الإفخارستيا يقدس جسد وروح من يشربه.

٥- الخطايا والعقاب

يرى كليمندس أن خطية آدم تمثلت في رفضه أن يسمع لكلام الله، وقد ورثت الخطية كلها هذه الخطية، لا من خلال التناسل، بل من خلال النموذج السيئ الذي أتى به آدم (المتنوعات ٣: ١٦: ١٠٠- الحث ٢:٢). وكان كليمندس يعتقد أن الفعل الشخصي فقط هو الذي يستطيع أن يلوث النفس، ويرجح أن هذا المفهوم جاء نتيجة رد فعل للفكر الغنوسي، إذ كان الغنوسيون يعتبرون المادة شرًا، وأنها مسئولة عن الخطأ. وكان يرى أن عقاب الله -على غرار أفلاطون- له طبيعة تطهيرية فحسب. "وفي ذلك يقول أفلاطون في بلاغة: "بالنسبة لكل الذين يعانون بسبب العقوبة فإنهم في واقع الأمر عوملوا أحسن معاملة، لأنهم استفادوا حيث روح أولئك الذين عُوقبوا بعدل قد أصبحت أفضل". وإذا كان أولئك الذي تأدبوا قد تلقوا خيرًا على يد العدالة، فإنه طبقًا لما يقوله أفلاطون، فالشخص العادل اعتُرف به أنه صالح، فالخوف نفسه يعمل خيرًا، ووجد ليكون خيرًا للإنسان" (المعلم ١:٨:٦٧). ومع ذلك فإن كليمندس لا يذكر في أي موضع أنه استخدم هذا التفسير، ولو على جهنم.

ويتفق كليمندس مع هرماس على أنه يجب أن تكون ثمة فرصة وحيدة للتوبة في حياة المسيحي، وهي تسبق المعمودية، إلاَّ أنه بدافع من رحمته لضعف البشرية منح فرصة توبة أخرى، لا يمكن أن تحدث إلاَّ مرة واحدة: "فالذي ينال غفران الخطايا ينبغي عليه ألاَّ يعود يخطيء مرة أخرى. لأنه بعد التوبة الأولى والوحيدة عن الخطايا (الخطايا السابقة في الحياة الأولى الوثنية الغارقة في الجهالة)، هناك التوبة التي تطهر أعماق النفس من الآثام حتى يمكن أن يترسخ الإيمان، وهذه أقترحت فورًا للمدعوين. وإذ كان الرب يعرف القلب، ويعرف المستقبل مقدمًا، فقد رأى مسبقًا تقلبات الإنسان وكذلك مكر الشيطان وحيله، وكان ذلك منذ البداية، وكان أنه إذ حسد الإنسان نتيجة لحصول الإنسان على غفران لخطاياه، فقد عمل على أن يضع أمام عبيد الله تجارب مختلفة، ليوقعهم في الشر بمهارة حتى يسقطوا معه. وبناء

على ذلك، وعلى أساس رحمته البالغة، فإنه بالنسبة لأولئك الذين على الرغم من إيمانهم يقعون في أية خطية، فقد تعطف ودبر لهم توبة ثانية، حتى إنه إذا ما تعرض أي شخص بعد دعوته للتجربة، وسقط بالقوة والغش فإنه يحصل على "توبة- للخلاص- بدون ندم" (٢كو ٧: ١٠).

فإنه إن أخطأنا باختيارنا بعدما أخذنا معرفة الحق لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا. بل قبول دينونة مخيف وغيرة نار عتيدة أن تأكل المضادين" (عبرانيين ١٠: ٢٦ و٢٧). ذلك أن التوبات المستمرة المتعاقبة عن الخطايا لا تختلف في شيء عن حالة أولئك الذين لم يؤمنوا إطلاقًا، فيما عدا إدراكهم أنهم يرتكبون الخطية. ولست أدرى أي الحالتين أسوأ، هل حالة الإنسان الذي يرتكب الخطية وهو مدرك لذلك، أو ذاك الذي بعد توبته عن خطاياه عاد ثانية إلى الخطية. (المتنوعات ٢: ١٣: ٥٦-٥٧: ٤).

إذن، فذاك الذي خرج من بين الأمميين، ومن تلك الحياة الأولى وحمل نفسه إلى الإيمان، فإنه يكون بذلك قد حصل على مغفرة الخطايا مرة. إلاَّ أن من أخطأ بعد هذا، فإنه بعد توبته، وعلى الرغم من حصوله على الغفران، فإنه عليه أن يخشى، كمن يُغسل بعد لمغفرة الخطايا. لأنه ليس عليه أن يهجر الأصنام التي كان يعبدها كآلهة في السابق فحسب، بل عليه أن ينبذ أيضًا أعمال حياته السابقة التي تخلَّى عنها وذلك لأنه وُلد، "ليس من دم ولا من مشيئة رجل" (يوحنا ١: ١٣). بل في الروح القدس، فالتوبة تعني عدم اقتراف نفس الخطيئة، لأن التوبة المتكررة والاستعداد للتغيير بسهولة بسبب الحاجة إلى الجدية الروحية، وذلك بسبب ممارسة الخطية ثانيةً. وتكرار طلب المغفرة بالنسبة لتلك الأشياء التي كثيرًا ما تخطيء فيها هو ندم ظاهري، لا ندم حقيقي.

ويميز كليمندس في هذه الفقرات بين الخطايا الإرادية واللا إرادية. وهو يرى أن الخطايا التي تُرتكب بعد المعمودية لا يمكن أن يُغفر منها سوى الخطايا اللا إرادية فحسب. أما الذين يرتكبون الخطايا عن عمد بعد المعمودية فعليهم أن يخشوا دينونة الله. إن القطيعة التامة مع الله بعد المعمودية لا يمكن أن تُغفر. ذلك لأنها تتعارض مع الفكرة المسيحية القديمة الخاصة بعدم المساس بختم المعمودية. وإذا ما كانت الخطية التي ارتُكبت بعد المعمودية لا تؤدي إلى قطيعة تامة مع الله على أساس وجود نقص معين في حرية القرار، هنا يكون ثمة احتمال قائم لتوبة ثانية. ومع ذلك فإن كليمندس في الواقع لا يستبعد أية خطية. من هذه التوبة الثانية مهما كان ثقلها. والقصة التي ذكرها في ختام كتابه "من الغَني الذي يخلص؟" والتي تدور حول القديس يوحنا وشاب أصبح رئيسًا لعصابة من اللصوص، ولكن القديس أعاده إلى الكنيسة بعد أن كان أكثر اللصوص شراسة وقسوة وميلاً لسفك الدماء، والقصة تدل على أن

كل الخطايا يمكن غفرانها ما لم تكن ثمة عقبة في نفس الخاطيء. وتعد مثالاً عظيماً عن التوبة الصادقة وعلامة رائعة على الولادة الثانية. وبذلك فإن القديس كليمندس يبدو أنه لا يعرف شيئًا عن الخطايا الثقيلة التي لا يمكن غفرانها.فحتى خطية الردة تبدو له أنها قابلة للغفران لأنه يصلي من أجل أن يعود الهراطقة إلى الإله القدير. والخطايا التي لا تُغفر والإرادية تكون متى تعمد الإنسان الابتعاد عن الله ويرفض المصالحة والتجديد.

٦- الزواج والبتولية

يدافع كليمندس عن الزواج، ضد كل الشيع الغنوسية التي كانت ترفض الزواج وتستنكره. وهو لا يوصي بالزواج لأسباب أخلاقية فحسب. بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يعتبره واجبًا من أجل صالح البلاد، ومن أجل تعاقب الذرية ومن أجل كمال العالم فيقول:

"إنه من الضروري أن تتزوج، وذلك لأجل بلادنا، ومن أجل تعاقب الذرية من جهة أخرى، وبقدر ما يعنينا الأمر من أجل كمال العالم، ومن هنا يرثي الشعراء للزواج غير الكامل أي الذي بدون أطفال ولكنهم يعلنون الزواج الذي يثمر عن أطفال بأنه زواج سعيد".

والقصد من الزواج هو إنجاب الأولاد، وهذا واجب كل شخص يحب بلاده. غير أن كليمندس يرفع الزواج إلى مستوى أعلى من ذلك بكثير، بحيث يعتبره عملاً يدل على التعاون مع الخالق:

"وهكذا يصبح الإنسان صورة الله بقدر تعاونه في خلق الإنسان" (المعلم: ٢:١٠:٢:٨٣). غير أن إنجاب الأولاد ليس هو القصد الوحيد من الزواج. فالحب المتبادل، والعون والمساعدة التي يقدمها الزوجان أحدهما للآخر توحِّد بينهما في رابطة أبدية. "إن فضيلة واحدة تجمع الرجل والمرأة. لأنه إذا كان لهما إله واحد، ومعلم واحد، وكنيسة واحدة، وتعفف واحد، وتواضعهما واحد، وطعامهما مشترك، والزواج نير مشترك، فكل شيء بالمثل: التنفس، البصر، السمع، المعرفة، الرجاء، الطاعة، المحبة. وأولئك الذين حياتهم مشتركة، لهم نعم مشتركة، وخلاص مشترك، كما أنهم يشتركون في طريقة العيش" (المعلم ١:٤).

إلاَّ أن أجمل مفهوم للزواج نجده في كتاب كليمندس المتنوعات حيث يقول: "من هم الاثنان أو الثلاثة الذين اجتمعوا معًا باسم المسيح، من هم الذين يكون الرب في وسطهم؟ أليسوا هم الزوج والزوجة والابن (أو الابنة) لأن الرجل والزوجة جمع الله بينهما؟".

وهكذا وضع كليمندس الزواج في حالة أسمى من الرابطة الجنسية فهو يرى أنها وحدة زوجية ودينية بين الزوج وزوجته، ولذلك يشدد قائلاً: "الحالة الزوجية مقدسة" (المتنوعات ٣:١٢:٨٤). وحتى الموت لا يفصم هذه الوحدة تمامًا، ولهذا السبب

نرى كليمندس ضد أي زواج ثانٍ: "إن من يتزوج ثانيةً لا يخطيء أيضًا، حسب العهد، حيث أن الشريعة لا تمنعه في الواقع. ولكنه لا يحيا حسب الإنجيل في كماله الأقصى" (المتنوعات ٣:١٢:٨٤:٤).

ونظرًا لأن كليمندس دافع عن الزواج على هذا النحو ضد الهراطقة الغنوسيين الذين رفضوا الزواج وأكدوا على الامتناع التام عن الزواج، فإن السؤال الذي يدور الآن هو ما هو موقفه من البتولية. إن كليمندس نفسه لم يتزوج "بدافع من محبته للرب" (المرجع السابق ٣:٧: ٥٧)، وهو يقول بين آن وآخر: "نحن نمتدح البتولية وكل من أعطاهم الله إياها". (المرجع السابق:٣:١:٤). وهو مقتنع بأن "ذاك الذي يظل بدون زواج لكي لا ينفصل عن خدمة الرب سوف يحصل على المجد السماوي". (المرجع السابق ٣:١٢:٨٢). إلاَّ أنه حين يقارن حالة الزواج بحالة البتولية فإنه يعتبر المتزوج أسمى من العازب. وإذ وازن بحرص استحقاقات كل منهما شعر بأنه ملزم بأن يقول:

"الإنسان لا يظهر حقيقة إنسانيته باختياره حياته كأعزب، بل يتفوق على الرجال ذاك الذي ضبط نفسه بالزواج وإنجاب الأطفال، .. وفي اهتمامه ببيته، أصبح لا ينفصل عن محبة الله، وانتصر على كل المحن التي تأتيه من الأولاد والزوجة والخدم والممتلكات. إلاَّ أن ذاك الذي ليس لديه عائلة تراه وإلى درجة كبيرة غير معرَّض لهذه التجارب والمحن، حيث أنه في هذه الحالة لا يعول إلاَّ نفسه فحسب، وقد تفوق عليه من هو أقل منه، وفيما يتعلق بخلاصه الشخصي، ولكنه متفوق عليه في سلوكه الحياتي.." (المتنوعات ٧:١٢:٧٠).

ورأي كليمندس ليس له نظير، ولعله جاء نتيجة لدفاعه القوي عن الزواج ضد الهجمات التي يشنها الغنوسيون عليه (أي الزواج!).

✢✢✢✢

٣- ديمتريوس

أصبح ديمتريوس DEMETRIUS أسقفًا للإسكندرية في العام العاشر من حكم كوموديوس وبالتحديد في عام ١٨٩م، واستمر نحو ٤٣ عامًا وذلك طبقًا لما ذكره المؤرخ يوسابيوس القيصري في كتابه (يوسابيوس - تاريخ الكنيسة- مرجع سابق). أي استمر حتى بعد اضطهاد سبتيميوس ساويروس، وقد كان أوريجانوس موضع ثقته إذ عهد إليه بإدارة مدرسة الإسكندرية بينما كان عمره ثماني عشرة سنة (يوسابيوس- تاريخ الكنيسة ٦:٣).

✢✢✢✢

٤- أوريجانوس

أ- النشأة: الزمان والمكان

كان أوريجانوس ليونيداس (Origen Leonidas)

سليل عائلة مسيحية، وكان الأخ الأكبر لستة إخوة أصغر منه. ولد نحو عام ١٨٥م، ويرجح أنه ولد في الإسكندرية.

وفَّر له والده ليونيداس تعليمًا جيدًا لدراسة الكتاب المقدس والأدب اليوناني. عانى ليونيداس من الاضطهاد الذي أثاره ساويرس severus واستشهد في سنة (٢٠٢م). ولأن الدولة صادرت ميراث العائلة، لذا كان لزامًا عليه أن يعول أسرته عن طريق التدريس في المدرسة التي افتتحها لتدريس الأدب والعلوم الدنيوية (موسوعة تاريخ الكنيسة الأولى -مرجع سابق).

النطق الصحيح في اليونانية هو أوريجينوس ولكن النطق الشائع في العربية هو أوريجانوس.

أوريجانوس ومدرسة الإسكندرية

كانت مدرسة الإسكندرية في طريقها إلى الانهيار بعد أن فرَّ كليمندس من اضطهاد ساويرس، غير أن الأسقف ديمتريوس Demetrius أقام عليها أوريجانوس الشاب الذي كان في الثامنة عشر من عمره.

توقف أوريجانوس عن التدريس في المدرسة التي افتتحها لتدريس الثقافة الدنيوية، حيث لم تعد أسرته في حاجة إلى مساعدته المالية. ومن ثم تفرغ تمامًا لمدرسة الإسكندرية، وظل قائمًا على شئونها لسنوات طوال.

وقد بلغت مدرسة الإسكندرية أوج عظمتها في عهد أوريجانوس الذي كان معلمًا ومفكرًا بارزًا في الكنيسة الأولى، عطر السيرة، موسوعي التعليم، ومن بين أعظم المفكرين المبدعين الذين شهدهم العالم. وتتوفر لنا معلومات مفصلة عن سيرته الذاتية بأكثر مما كان عليه الحال بالنسبة لبعض الكاتبين والمفكرين السابقين من رجال الكنيسة، وذلك بفضل الاهتمام الخاص الذي أولاه له المؤرخ يوسابيوس القيصري. فثمة جزء كبير من كتابه السادس من "تاريخ الكنيسة" يتناول حياة أوريجانوس.

ورسائل أوريجانوس التي تربو على المائة ربما كانت من أفضل المصادر التي تسهم في فهم شخصيته، إلاَّ أنها فقدت. ومن حسن الطالع أن يوسابيوس قام بجمع هذه الرسائل واستخدمها جيدًا في كتابه عن حياة أوريجانوس.

يعد خطاب الوداع الذي كتبه غريغوريوس صانع العجائب- بمناسبة تركه جماعة أوريجانوس- مستندًا هامًا بالنسبة لتاريخه الشخصي بقدر أهميته لتوضيح أسلوب تعليمه. وأخيرًا يذكره چيروم في كتابه "من هو" (Who's Who)، وهو عن مشاهير الرجال، كما ذكره في إحدى رسائله (رسالة رقم ٣٣)، وكذلك فعل فوتيوس (Photius) في (Bib 1. cod.).

لقد اكتسب أوريجانوس عدداً كبيراً من التلاميذ الذين انجذبوا إليه لا بسبب تعليمه فقط، بل بسبب حياته أيضًا، وكما يقول يوسابيوس: "مثل كلامه كان أسلوب حياته أيضًا، ومثل أسلوب حياته كان كلامه، ولهذا السبب بصفة خاصة، وبفضل من قوة الله، استطاع أن يجمع حوله هذا العدد الكبير ليشاركوه حماسته" (تاريخ الكنيسة ٦:٣:٧).

ويعرض يوسابيوس كذلك صورة عن حياة النسك التي مارسها "الرجل الشبيه بالألماس" أو "الرجل الصلب" كما كان يدعوه: "ثابر أوريجانوس بدأب، وبكل قدرته، على أسلوب فلسفي للغاية في حياته، فقد كان أحيانًا يقمع نفسه بالصوم، وفي أحيان أخرى يحدد وقت النوم، وكان حريصًا ألا يكون ذلك على مضجع بل على الأرض. وفوق كل هذا كان يرى ضرورة الالتزام بأقوال المخلص الواردة في الإنجيل، والتي تحضنا على ألا يكون لنا ثوبان.. بل والواقع ألا نحمل همَّ المستقبل". (المرجع السابق ٦:٣:٩-١٠).

ونعرف من يوسابيوس أيضًا أن أوريجانوس حين كان يقوم بالتعليم في مدرسة الإسكندرية في نحو عام ٢٠٢م، خصى نفسه حيث أخذ ما جاء في (متى ١٩:١٢) بمعناه الحرفي.

أما فترة حياته التي قضاها في التدريس فيمكن تلخيصها هكذا: رئاسته لمدرسة الإسكندرية حيث امتدت من سنة ٢٠٣م إلى ٢٣١م وقد شهدت نجاحًا بارزًا، وقد اكتسب تلاميذًا حتى من أوساط الهراطقة، ومن مدرسة الفلسفة الوثنية.

كان أوريجانوس في البداية يُعلِّم في الفصول التمهيدية التي تدرس فيها علوم المنطق والفيزياء والرياضيات والهندسة والفلك، فضلاً عن الفلسفة اليونانية وعلم اللاهوت ودراسة الكتاب المقدس. وحين أصبح ذلك يشكل عبئًا كبيرًا عليه، أوكل إلى تلميذه هيراكلاس (Heraclas) مهمة تدريس الموضوعات التمهيدية، وتفرغ أوريجانوس لتدريس الطلبة في الصفوف العليا علوم الفلسفة واللاهوت، وبصفة خاصة دراسة الكتاب المقدس. ولم تمنعه مشغولياته الكثيرة من حضور محاضرات أمونيوس سكاس (Ammonius Saccas) المؤسس الشهير للأفلاطونية المحدثة. ويمكننا أن نلمس تأثيره فيما كتب أوريجانوس في علم الفلك وعلم النفس، كما نلمسه في أسلوبه أيضًا.

رحلاته

وقيام أوريجانوس بالتدريس في مدرسة الإسكندرية تخللته فترات انقطاع عديدة بسبب أسفاره المتكررة. فقد ذهب إلى روما في سنة ٢١٢م، لرغبته في رؤية أقدم كنيسة رومانية. وكان ذلك في عهد الباب زفيرينوس (Zephyrinus)، وقد تقابل هناك مع أكبر مفكر لاهوتي مشهور في ذلك الحين، وهو الشيخ الروماني هيبوليتس

(Hippolytus). وقبل سنة ٢١٥م بوقت قصير، وجدناه في العربية (الأردن)، حيث ذهب ليكون مشيراً للحاكم الروماني بناء على طلبه. وفي مرة أخرى قصد أنطاكية بدعوة من والدة الامبراطور إسكندر ساويرس وتدعى "چوليا ماميا" (Julia Mamaea) حيث رغبت في الحصول على بعض المعلومات عن المسيحية.

حين نهب الامبراطور كاراكالا (Caracalla) مدينة الإسكندرية قام بغلق المدرسة، واضطهاد المعلمين، فقرر أوريجانوس الذهاب إلى فلسطين، وكان ذلك في نحو عام ٢١٦م. وقد دعاه أساقفة قيصرية، وأورشليم، وبعض المدن الفلسطينية الأخرى لإلقاء بعض العظات، ولشرح الأسفار المقدسة لكنائسهم. الأمر الذي قام به رغم أنه لم يكن من رجال الإكليروس. أما الأسقف ديمتريوس التابع له أوريجانوس في الإسكندرية فقد اعترض على ذلك. ووجَّه اللوم للرئاسات الدينية في فلسطين لسماحها لرجل علماني بالوعظ في حضور أساقفة، وهو ما لم يسبق أن سُمع به، طبقًا لما ذكره.

رسامته

وعلى الرغم من رفض أساقفة فلسطين لذلك الاعتراض، إلاَّ أن أوريجانوس أطاع أوامر رئيسه الصارمة بالعودة إلى الإسكندرية فوراً. ومع ذلك، ولتجنب حدوث مثل هذه المصاعب مستقبلاً، فقد قام إسكندر أسقف أورشليم وثيوكتستوس (Theoctistus) أسقف قيصرية برسامة أوريجانوس قسًا حين مرَّ بقيصرية بعد خمس عشرة سنة، وهو في طريقه إلى اليونان حيث دعاه الأساقفة هناك لدحض افتراءات الهراطقة. وهذا ما جعل الموقف أكثر سوءًا لأن الأسقف ديمتريوس رأى أنه لا يجب قبول أوريجانوس قسًا على أساس أنه قام بخصي نفسه.

عقد الأسقف ديمتريوس مجمعًا حيث تم حَرْم أوريجانوس وخلعه من كنيسة الإسكندرية. وقام مجمع ثان في سنة ٢٣١م بحرمه من رتبة الكهنوتية. وبعد وفاة الأسقف ديمتريوس (٢٣٢م) عاد إلى الإسكندرية، غير أن الأسقف هيراكلاس Heraclas الذي خلفه، المساعد السابق لأوريجانوس كرر حَرْمه.

تأسيس مدرسة جديدة للاهوت في قيصرية

عندئذ قصد أوريجانوس قيصرية في فلسطين، حيث بدأت الفترة الثانية من حياته. وقد تجاهل أسقف قيصرية انتقاد أسقف الإسكندرية وأغرى أوريجانوس بتأسيس مدرسة جديدة للاهوت في قيصرية، ترأسها أوريجانوس لمدة عشرين سنة. وهنا قدم غريغوريوس صانع العجائب خطابه الوداعي بمناسبة تركه صحبة أوريجانوس. وهذا المستند يوضح لنا أن المنهج التعليمي في قيصرية

كان هو في الواقع نفس منهج مدرسة الإسكندرية. وبعد نصيحة بالاهتمام بالفلسفة، والتي شكلت مقدمة الدراسة، تبع ذلك فصل تمهيدي ليعد الطالب للدراسة العلمية بعد تدريب ذهني مستمر.

ويتضمن هذا المنهج دراسة المنطق وأصوله، والعلوم الطبيعية، والهندسة والفلك وأخيرًا الأخلاقيات واللاهوت. أما الدراسة الخاصة بالأخلاقيات فلم تكن بأي حال مناقشة طبيعية للمشاكل الأخلاقية فحسب، بل كانت تقدم فلسفة للحياة. ويقول غريغوريوس إن أوريجانوس كان يحمل تلاميذه على قراءة كل أعمال الفلاسفة القدامى، عدا من كانوا ينكرون وجود الله والعناية الإلهية.

وقد سافر أوريجانوس مرات عديدة إلى أثينا حيث بدأ في شرح سفر نشيد الأناشيد. كما سافر إلى العربية (الأردن) في نحو عام ٢٤٤م حيث رد الأسقف بريلليوس (Beryllus) أسقف بُسترا (Bostra) إلى الإيمان القويم، حيث كان يتبع معارضي فكرة الثالوث (Monarchians) (يمكن الرجوع للباب السادس الخاص بالهرطقات في الجزء الأول لمزيد من التفاصيل). **كما دحض فكر بعض المسيحيين الذين اتبعوا الهرطقة العربية.**

لقد قام أوريجانوس بالكتابة بعد أن بلغ سن الثلاثين من عمره، وذلك بتشجيع حثيث من أمبروزيوس السكندري، الرجل الثري الذي رده أوريجانوس عن اتِّباع تعاليم ڤالنتينوس المنحرفة إلى التعليم القويم. (راجع الباب الخاص بالهرطقات بالجزء الأول من الموسوعة). وقد انجذب أمبروزيوس إلى الغنوسية أيضًا. وبعد أن أعاده أوريجانوس، أقنع أمبروزيوس أستاذه بأن يكتب في الموضوعات التي أحس بأنه ينبغي طرحها على ساحة الفكر المسيحي مقدمًا بعض المقترحات التي تتعلق بذلك.

ذهب أوريجانوس إلى نيقوميديا في شمالي أفريقيا حيث كتب رسالته إلى يوليوس أفريكانوس Julius Africanus . كما سافر إلى كبَّادوكية حيث دعاه الأسقف فرمليانوس Firmilianus، وانعقد مجمع محدود في العربية حيث التف البعض حول الأسقف هيراقليدس Heraclides، وقد وجدت أعمال هذا المجمع في طرة بمِصر في سنة ١٩٤١م.

سجن أوريجانوس وتعذيبه

وقد انتهت كل المجهودات الوفيرة التي قام بها أوريجانوس، بالاضطهاد الذي شنه دسيوس Decius في عام ٢٥١م حيث سجن أوريجانوس وعُذب، إلاَّ أنه أعلن عن إيمانه بكل شجاعة، فقد كتب يوسابيوس:

الهرطقة العربية:

ذكر أغسطينوس في كتابه (De haer.83) أنه قرأ ما كتبه يوسابيوس عن هذه الهرطقة في كتاب (تاريخ الكنيسة ٦:٣٧)، ولكن لم يذكر يوسابيوس

اسم مؤسسها. فقد نادى بعض العرب بالتعليم القائل بأن الموت يشمل كلاً من الجسد والنفس، وأن كليهما سيقومان في آخر الأيام. وقد كتب يوسابيوس أن أوريجانوس قد دحض مثل هذا التعليم في أحد المجامع (تاريخ الكنيسة ٦:٣٧). كما ذكر أوريجانوس نفسه ذلك في كتابه (.dial 21 -10:9). وقد انتشر هذا الفكر المنحرف في العربية فيما بين عامي ٢٤٤ و ٢٤٩م. وقد أدينت هذه الهرطقة في مجمع عقد بصفة خاصة لكل المنطقة. (موسوعة تاريخ الكنيسة الأولى).

"إن رسائل هذا الرجل العديدة تتضمن إشارات صادقة ودقيقة لطبيعة ومدى ما تحمله من أجل كلمة المسيح، من عقوبات وهو مقيد في الأصفاد، وملقى في زنزانته، وكيف أنه حين شُدت قدماه لعدة أيام في تلك الآلة الجهنمية، ولأربع مرات تحمل آلة التعذيب بقلب شجاع. كما تحمل التهديد بالنار وكل أنواع العذابات الأخرى التي أنزلها به أعداؤه. أما بالنسبة لنوعية قضيته فقد حاول القاضي جاهداً ألا يحكم عليه بالإعدام لأي سبب كان، أما بالنسبة للأقوال التي خلفها وراءه عقب ذلك، فكانت عامرة بالمعونة لمن هم في حاجة إلى رفع روحهم المعنوية" (تاريخ الكنيسة ٦:٣٩:٥).

ولم يكن تعذيبه بغرض قتله، وإنما كان بدافع حمله على الارتداد عن الإيمان المسيحي، بُغية إنهاء تأثيره الإيجابي على المسيحيين البارزين في ذلكم الوقت. ولم يسترد حريته مرة أخرى إلاَّ بموت الامبراطور بعد أشهر قليلة، ولكنه كان في صحة عليلة، نتيجة لما تعرَّض له من عذابات. وقد مات في صور بلبنان بعد ذلك بقليل وقد بلغ التاسعة والستين من عمره، ويحتمل أن ذلك يوافق سنة ٢٥٤م. وكان قبره قائماً حتى القرن الثالث عشر في مدينة صور، في كنيسة القبر المقدس.

✢✢✢✢

أوريجانوس وكليمندس

وإذا قارنَّا أفكاره بأفكار كليمندس السكندري يبدو للوهلة الأولى أنه لا يشارك كليمندس في تقديره البالغ.. للفلسفة اليونانية. ولم يردد أبداً قول كليمندس المأثور بأن الفلسفة اليونانية كانت مجرد مرشد إلى المسيح.. وفي خطاب أرسله إلى غريغوريوس الذي ألقى خطبة الوداع الحماسية على شرفه، حثَّ أوريجانوس تلميذه الذي سبق ودرس على يده، أن يواصل دراساته للكتاب المقدس واعتبر الفلسفة موضوعاً تمهيدياً فحسب إذ قال: أطلب إليك أن تنهل من الفلسفة اليونانية، لأن مثل هذه الأمور بمقدورها أن تكون بمثابة دراسات تمهيدية للمسيحية، ومن الهندسة والفَلَك بعض المعلومات يمكن أن تكون نافعة لشرح الكتب المقدسة. حتى إن مايقوله أبناء الفلاسفة عن الهندسة والموسيقى وقواعد اللغة والبلاغة والفَلَك

بأنها من أدوات الفلسفة وفي خدمتها، يمكننا نحن أن نقول نفس الشيء عن الفلسفة أنها في خدمة المسيحية".

وهكذا فإنه أكَّد على أهمية الكتاب المقدس، وعلى الرغم من ذلك فإنه قد تأثر بفلسفة أفلاطون تأثرًا كبيرًا مما أدى إلى التعليم بأن النفس الإنسانية سابقة للوجود. وقد اتبع في تفسيراته الأسلوب الرمزي.

الرمز:

الرمز أسلوب شعري وبلاغي كأن تقول شيئًا وتعني به شيئًا آخر. فدانتي يقول "خشب" ويعني به "خطية". ولكن من باب التوسع نستخدمه أيضًا في التفسير، بأن ننسب إلى نص ما معنًى مجازيًا لم يقصده الكاتب. وقد استخدم اليهود المجاز استخدامًا إضافيًا في تفسير العهد القديم: فأصبحت عروس النشيد وعريسها رمزًا لإسرائيل والرب. أما اليونانيون فمنذ القرن الخامس قبل الميلاد، وما بعد ذلك، ولاسيما تحت تأثير الرواقية، فسَّروا أساطير هوميروس عن طيب خاطر على أنها رموز لقوى خارقة للطبيعة أو انفعالات النفس. وهو ما جعل تلك الأساطير أكثر قبولاً من الناحية الأخلاقية، في حين أنها لو أُخذت حرفيًا "لاعتبرت غير أخلاقية، أو أنها على أية حال مفرطة في خلع الصفات البشرية على الآلهة. وهذا المعيار التأويلي كان يستخدم على نطاق واسع في الأوساط اليهودية الهيلِّينية، ولا سيما بواسطة "فيلو"، لتفسير العهد القديم حتى يجعله متناغمًا مع الثقافة اليونانية للقراء من الناحيتين الفلسفية والأخلاقية. وقد نهج بولس الرسول نهجًا مماثلاً، وكان في تلك الإشارات يستخدم كلمة "مثال" (رومية ٥:١٤، كورنثوس الأولى ٦:١٠) وكذلك استخدم كلمة "رمز" في غلاطية (٢٤:٤). وقد حقق هذا النمط من تفسير العهد الجديد نجاحًا كبيرًا. وقد استخدمه كُتَّاب مدرسة الإسكندرية مثل كليمندس ولاسيما العلاَّمة أوريجانوس الذي عُرف بالتوسع في تفسير الكتاب المقدس بأسلوب مجازي.

أعماله:

أدت "مجادلات أوريجانوس"، التي حدثت نتيجة لآرائه وتعاليمه إلى اختفاء معظم الإنتاج الأدبي لهذا العلاَّمة السكندري العظيم. أما بالنسبة لما تبقى فقد حفظ معظمه لا في لغته اليونانية الأصلية، بل في ترجمات لاتينية. وقد فقدت القائمة الكاملة لكتاباته والتي أضافها يوسابيوس إلى السيرة الذاتية لصديقه ومعلمه بامفيلوس. وتأسيسًا على ما قاله چيروم والذي استخدم هذه الرسائل، فقد بلغ عددها ألفي رسالة. أما أبيفانيوس فيقدر عدد الرسائل التي تركها أوريجانوس بستة آلاف رسالة. ونحن لا نعرف سوى عناوين ثمانمائة رسالة فقط، ذكرها القديس چيروم في رسالته إلى پاولا (Paula) (الرسالة

٣٣).

وما كانت تتوفر لأوريجانوس وسائل النشر على هذا النطاق الواسع لولا مساعدة أصدقائه الأثرياء، ولاسيما أمبروزيوس (Ambrose) الذي قام أوريجانوس برده عن هرطقة ڤالنتينوس. ومنذ ذلك الوقت بدأ أوريجانوس في تفسير الكتاب المقدس بتشجيع منه. والذي لم يكتف بتشجيعه فحسب بل بإمداده أيضًا بكل ما هو لازم وبلا حدود. لأنه فيما كان أوريجانوس يُملي محاضراته كان ثمة سبعة من الكتبة (النُسَّاخ) يتبادلون الكتابة، وكان من بينهم فتيات يُجدن فن الخط، وقد دبر لهم جميعًا أمبروزيوس كل ما يلزمهم من أجل تقديم العمل بلا معوقات (يوسابيوس: تاريخ الكنيسة ٦:٢٣:١).

وتصنَّف أعماله إلى الفئات التالية:

أ- نقد النصوص الكتابية

ب- أعمال تفسيرية

١- التفاسير الموجزة.

٢- العظات.

٣- التفاسيرالمطوَّلة.

٤- التفاسير المفقودة.

أ- نقد النصوص الكتابية

كان الجانب الأكبر من أعماله الأدبية مكرسًا للكتاب المقدس. ولهذا السبب يمكن أن يقال عنه إنه مؤسس العلم الكتابي. ويعد كتابه "هكسابلا" (Hexapla) (أو النسخة السداسية لترجمة العهد القديم) المحاولة الأولى لإعداد نص دقيق للعهد القديم. وكان عملاً ضخمًا كرس له أوريجانوس كل حياته. فقد رتب -في ستة أعمدة متوازية النص العبري للعهد القديم في حروف عبرية، والنص العبري في حروف يونانية لكي يحدد طريقة النطق، وترجمة أكيلا اليوناني وهو يهودي كان معاصرًا لهادريان (Hadrian) والترجمة اليونانية لسيماخوس (Symachus) وهو يهودي، كان معاصرًا لسبتميوس ساويرس، والترجمة اليونانية (السبعينية) وأخيرًا ترجمة ثيودوسيون Theodotion اليهودي (نحو سنة ١٨٠م). وعمل أوريجانوس البالغ الدقة كان ينصب على وضع علامات معينة على العمود الخامس، وهو المخصص للترجمة السبعينية، تشير إلى علاقتها بالأصل العبري. وقد اقتبس هذه العلامات من نُحاة مدرسة الإسكندرية.

وطبقًا لما ذكره يوسابيوس، نشر أوريجانوس أيضًا طبعة تتضمن الترجمات اليونانية الأربع (Tetrapla) فحسب. ولعلها كانت تقتصر على تلك الكتابات التي لم يكن يتواجد نظيرها العبري. وقد أضاف في كتابه السداسي (في الجزء المخصص للمزامير) ثلاث ترجمات أخرى وبذلك أزاد الأعمدة

حتى بلغت تسعة. وهكذا غيَّر الكتاب السداسي إلى الكتاب التساعي. ولم يتبق من هذا العمل الضخم سوى شذرات صغيرة. ويبدو أن العمل لم ينسخ أبداً بل ظل لعدة قرون تحت تصرف الدارسين في مكتبة قيصرية حيث اطَّلع عليها چيروم هناك، وقال إن هذه كانت النسخة الوحيدة التي رآها على الإطلاق من هذا العمل. أما العمود الخامس الذي يتضمن نص الترجمة السبعينية فقد تضاعف عدة مرات. وثمة نسخة كاملة تقريباً من هذا العمل محفوظة في الترجمة السريانية يرجع تاريخها إلى القرن السادس. ومع ذلك فإنه من الخطأ افتراض -كما قيل- أن هذه كانت الجزء الوحيد من عمل أوريجانوس الذي أُعيد إنتاجه. (كواستن- الجزء الثاني).

وقد اكتشف العالم الإيطالي چيوفاني مركاتي (Giovanni Mercati) -في المكتبة التي تنسب لأمبروزيوس في ميلانو- جزازات من الرق خاصة بالكتاب السداسي (Hexapla) يحتوي على المزامير إلاَّ أن العمود الأول منه محذوف. وثمة مجلدان من الرقوق وُجِدا في مجمع اليهود القديم في القاهرة، وقد حفظا في مكتبة جامعة كمبردچ بانجلترا. وهما يمثلان نص Hexapla الخاص بالمزمور ٢٢، وقد اقتبس منها بعض آباء الكنيسة، وتوجد منها بعض الاقتباسات في بعض مخطوطات العهد القديم اليونانية.

ب- أعمال تفسيرية

يعد أوريجانوس أول مفسر للكتاب المقدس على أساس علمي في الكنيسة الجامعة. وقد كتب على جميع أسفار العهدين القديم والجديد. وفي ثلاث صيغ أدبية مختلفة.

١- التفاسير الموجزة

كتب أوريجانوس عدة تفاسير موجزة تسمى (Scholia) على أجزاء من الكتاب المقدس. وطبقاً لما ذكره القديس چيروم في (الرسالة ٣٣) كتب أوريجانوس تفاسير لأسفار الخروج واللاويين وإشعياء والمزامير ١- ١٥ والجامعة وإنجيل يوحنا. وضمن روفينوس بعض الشروحات لسفر العدد في ترجمته لعظات أوريجانوس على هذا السفر. ولم يصلنا شيء منها بأكملها. أما العمل الذي حرره سي. ديوبوني (C. Diobouni)، وهارناك (Harnack) باعتباره من تفاسير أوريجانوس لسفر الرؤيا للقديس يوحنا لا يمكن اعتباره كذلك لأنه يجمع بين ملحوظات موجزة أو مطولة على الفقرات الصعبة لسفر الرؤيا لكل من كليمندس السكندري وإيريناوس وأوريجانوس. ولقد اكتشفت بعض شذرات من الشروحات في كتابي "تفاسير الكتاب المقدس Catenae وفيلوكاليا Philocalia واللذين يتضمنان مقتطفات أدبية مختارة أعدها القديس باسيليوس والقديس غريغوريوس النزيانزي.

٢- العظات

وهي عظات على أصحاحات أو فقرات مختارة من الكتاب المقدس كان قد ألقاها في الاجتماعات التعبدية. وطبقًا لما ذكره شخص يدعى سقراط فإنه كان يعظ يومي الأربعاء والجمعة من كل أسبوع. إلاَّ أن كتاب بامفيلوس كاتب سيرة أوريجانوس يذكر أنه كان يفعل ذلك كل يوم تقريبًا، وهكذا ترك أوريجانوس عظات على كل أسفار الكتاب المقدس تقريبًا، لكن عشرين عظة فقط على سفر إرميا، وعظة واحدة على (١صم ٢٨:٣-٢٥) وعظة عن ساحرة عين دور، وهي الوحيدة التي حفظت باليونانية.

وقد تم العثور في عهد قريب على شذرات من القسم الختامي للعظات الخمس والثلاثين على إنجيل لوقا، في لغته الأصلية، وعلى خمس وعشرين عظة عن إنجيل متى. وحفظت في ترجمة روفينوس اللاتينية ستون عظة على سفر التكوين، وثلاثون على سفر الخروج، وست عشرة على سفر اللاويين، وثمان وعشرون على سفر العدد، وست وعشرون على سفر يشوع، وتسع على سفر القضاة، وتسع على المزامير.

وتوجد في ترجمة لاتينية للقديس چيروم عظتان على نشيد الأناشيد، وتسع على سفر إشعياء، وأربع عشرة على سفر إرميا، وأربع عشرة على سفر حزقيال، وكذلك تسع و ثلاثون على إنجيل القديس لوقا، وتوجد شذرات من العشرين عظة على سفر أيوب محفوظة باللاتينية للقديس هيلاري بواتييه، وعظة واحدة على (١صم ١-٢) لكاتب غير معروف. كما توجد أيضًا أجزاء من أسفار إرميا وصموئيل الأول والثاني، وكورنثوس الأولى، والعبرانيين.

ويمكن التعرف على مقتطفات كثيرة باليونانية واللاتينية في سلسلة تفاسير يتضمنها كتاب (Catanae)، ومع ذلك فإن الخسارة الكلية جسيمة، إذ من بين (٥٧٤) عظة لا نجد سوى عشرين منها فحسب في لغتها الأصلية (أي اليونانية). ومن بين (٣٨٨) عظة لا نجد منها ترجمةً واحدةً لاتينية. ومع ذلك فإن العظات الموجودة لها أهمية كبرى لأنها تظهر لنا كاتبها في ثوب قشيب، إذ نراه شغوفًا للحصول من شرح الأسفار المقدسة على طعام روحي من أجل بُنيان المؤمنين.

ولقد أهملت تمامًا إسهامات أوريجانوس في هذا المجال إلى أن لَفَت الانتباه إليها كل من ڤولكر (Volker)، وليسكي (Liesky) باعتبارها كنوزًا مطمورة. وتمتاز هذه الأحاديث بأفكارها الرئيسية وتوجهها وصيغتها، ولا أثر بها لتعقيدات لغوية أو بلاغية. إذ يغلب عليها طابع الأحاديث، والعظات تظهر سمات الكلمات كما سجلها كتبة الاختزال.

٣- التفاسير المطوَّلة

كتب أوريجانوس التفاسير بُغية تقديم تفسير

علمي. وفيها يعرض لفقه اللغة، والنص، والخلفية التاريخية، وأصل الكلمات وتاريخها، وملاحظات لاهوتية وفلسفية. كان اهتمام الكاتب لا ينصبّ على المعنى الحرفي بصفة أساسية، بل على غموض المعنى، وقد تغلب على ذلك باستخدام الأسلوب الرمزي. وعلى الرغم مما شاب ذلك من بعض الأخطاء، إلاَّ أن فهمه للمعنى الداخلي للأسفار الكتابية، يوضح موهبته في سبر غور المعاني. ولكن ياللأسف الشديد إذ أن المتبقي من هذه التفاسير المطولة أقل مما هو متبق من العظات. ولم نتسلم منها عملاً كاملاً.

ومن هذه التفاسير ما يلي:

أ- بالنسبة لتفسير إنجيل متى والذي كتبه في خمسة وعشرين كتابًا في قيصرية بعد سنة ٢٤٤م، لم يتبق منها سوى ثمانية كتب باللغة اليونانية وهي من (١٠-١٧) والتي تتناول (متى ١٣:٣٦ إلى ٢٢:٣٣).

ب- تتوفر ثمانية كتب من تفسير إنجيل القديس يوحنا. وقد أهداه إلى صديقه أمبروزيوس. والكتب الأربعة الأولى من المرجح أنه كتبها في الإسكندرية بين سنتي ٢٢٦م و ٢٢٩م. أما الخامس فلعله كتبه أثناء رحلته إلى الشرق بين سنة ٢٣٠م وسنة ٢٣١م. أما الكتاب السادس فقد توقف عن كتابته بسبب نفيه في السنة التالية. أما الكتب الباقية فقد كتبها في قيصرية. والعمل له أهمية كبرى لدراسة شخصية أوريجانوس الغامضة، ومفهومه للحياة الداخلية.

جـ- وضع أوريجانوس أيضًا تفسيرًا للرسالة إلى أهل رومية في خمسة عشر كتابًا. ولم يتبق من الكتاب سوى شذرات من برديات وجدت في بلدة طرة بالقرب من القاهرة في سنة ١٩٤١م. كذلك توجد في الفيلوكاليا وفي كتابات القديس باسيليوس وفي سلسلة تفاسير الكتاب المقدس التي اكتشفها جولتز (Goltz) على جبل أثوس (Athos). ولدينا ترجمة بتصرف لهذا العمل باللاتينية لروفينوس. وهي لعشرة كتب فقط. واستبدلت ترجمة لاتينية للرسالة إلى أهل رومية بدلاً من النص اليوناني الذي استخدمه أوريجانوس. ويرجح أن يكون هذا العمل قد كتب قبل سنة ٢٤٤م.

د- من بين التفاسير العديدة للعهد القديم التي وضعها أوريجانوس لا نجد سوى جزء من تفسيره لنشيد الأنشاد. والكتب (١-٤) في الترجمة اللاتينية لروفينوس ترجع إلى سنة ٤١٠م. ويبدو أن أوريجانوس قد انتهى من الكتب الخمسة الأولى في أثينا في نحو سنة ٢٤٠م. في حين أنه وضع الكتب الخمسة التالية بعد ذلك بوقت قصير في قيصرية. أما

القديس چيروم الذي ترجم له عظتين عن نشيد الأنشاد إلى اللاتينية، كان يعتبر هذا التفسير أهم عمل تفسيري لهذا الرجل السكندري العظيم.

يعتبر أوريجانوس أن سليمان يرمز إلى السيد المسيح، في حين أنه في العظتين المتبقيتين في ترجمة چيروم نظر إلى الكنيسة بشكل واضح على أنها عروس المسيح، وكذلك في التفسير الذي ترجمه روفينوس.

٤- التفاسير المفقودة

كتب أوريجانوس أيضًا ثلاثة عشر كتابًا على سفر التكوين، وستة وأربعين كتابًا على واحد وأربعين مزمورًا، وثلاثين كتابًا على إشعياء، يعرف منها يوسابيوس خمسة على المراثي وخمسة وعشرين على حزقيال، وعلى الأقل خمسة وعشرين على الأنبياء الصغار والتي ذكرها يوسابيوس. وخمسة عشر على إنجيل لوقا، وخمسة على رسالة غلاطية، وثلاثة على رسالة أفسس، فضلاً عن كتب أخرى على رسائل فيلبي وكولوسي وتسالونيكي، والعبرانيين، وتيطس، وفليمون. ومن سلسلة تفاسير الكتاب المقدس (Catenae)، ومخطوطات كتابية واقتباسات لكاتبين كنسيين لاحقين. ومن بين التفاسير التي بلغ عددها (٢٩١) فُقد منها (٢٧٥) باليونانية، ولم يحفظ منها سوى القليل جدًا باللاتينية. ووجدت بعض شذرات من النص اليوناني لشرح سفري الملوك وذلك في بلدة طرة في سنة ١٩٤١م. وثمة شرح لسفر أيوب منسوب إلى أوريجانوس في ترجمة لاتينية من ثلاثة أجزاء، موجود ولكنه ليس الكتاب الأصلي.

وأهم رسالة دفاعية كتبها أوريجانوس بعنوان ضد كلسوس (أوسلوس) Contra Celsum، وهي في ثمانية أجزاء. وهي دحض لكتاب "الحديث الصحيح" الذي وجَّهه الفيلسوف الوثني كلسوس ضد المسيحيين في نحو سنة ١٧٨م. وقد فقد كتاب كلسوس، غير أنه يمكن كتابته بالكامل تقريبًا من اقتباسات أوريجانوس، والتي تبلغ ثلاثة أرباع نصه. وكان كلسوس يرمي إلى نبذ المسيحيين لديانتهم وذلك بمعايرتهم بها حتى يستحوا منها، وهو لم يكرر ما جرى على الألسن من افتراءات. فقد درس موضوعه جيدًا، وقرأ الكتاب المقدس، والكثير من الكتب المسيحية. وكان يعرف الفرق بين الشيع الغنوسية المنحرفة وسائر جماعات الكنيسة النوعية. وكان خصمًا داهية أظهر براعة فائقة، ولم يفته ما يمكن قوله ضد الإيمان. وقد هاجم الإيمان أولاً من وجهة نظر يهودية في حوار أدلى به يهودي باعتراضاته على شخص الرب يسوع المسيح. ثم يتقدم كلسوس بنفسه ويشن هجومًا على معتقدات اليهود والمسيحيين على حد سواء. ولقد سخر من فكرة وجود المسيح ولم يرَ في يسوع سوى ساحر مدّعٍ. وباعتبار كلسوس فيلسوفًا أفلاطونيًا فهو يؤكد على السمو العظيم لعبادة اليونانيين

وفلسفتهم. وقد وجَّه نقداً عنيفاً للإنجيل ولا سيما بالنسبة لكل ما يتعلق بالقيامة، وأعلن أن الرسل وخلفاءهم هم الذين ابتدعوا هذه الخرافة. ولكنه لم يرفض كل ما تُعلِّم به المسيحية. فنراه على سبيل المثال يقبل أخلاقياتها وتعليم اللوجوس (الكلمة).

كان كلسوس يريد بقاء المسيحية شريطة أن يتخلَّى المسيحيون عن عزلتهم السياسية والدينية، وأن يخضعوا للديانة العامة لروما. أما قلقه العظيم فكان خوفه أن يحدث شقاق في الدولة الأمر الذي يضعف الامبراطورية.

ويختتم نقده بنصيحة للمسيحيين بأن يساعدوا الملك وأن يعملوا معه على حفظ العدالة، وأن يحاربوا من أجله. وإذا ما طلب هو ذلك فعليهم أن يحاربوا تحت لوائه، وأن يقبلوا وظائف في حكومة البلاد، إذا ما تطلب الأمر ذلك، من أجل حفظ القانون ودعم الديانة.

ويبدو أن كتاب "الحديث الصحيح" لم يكن له تأثير على أولئك الذين وُجِّه إليهم. فلم يشر إليه إطلاقاً الكتَّاب المسيحيون الذين كانوا معاصرين لكلسوس. وفي نحو عام ٢٦٤م طلب أمبروزيوس من معلمه وصديقه أوريجانوس أن يرد على هذا الكتاب لئلا ينجم ضرر نتيجة لبعض افتراءات كلسوس الخبيثة الواردة فيه.

أما أوريجانوس الذي لم يكن حتى ذلك الوقت قد سمع عن الكتاب أو عن كاتبه، لم يكن على قناعة في باديء الأمر من أن هذا هو النهج الصحيح لدحض افتراءات كلسوس. وقد جاء في مقدمة كتابه ضد كلسوس ما يلي: "حين شهد شهود زور على ربنا ومخلصنا يسوع المسيح فإنه ظل صامتاً، وحين وجهت إليه اتهامات لا أساس لها من الصحة لم يحر عنها جواباً، حيث كان يؤمن بأن حياته كلها وسلوكه بين اليهود كانا يُشكِّلان دحضاً أقوى من أي رد على هذه الشهادة الكاذبة. وأقوى من أي دفاع رسمي ضد الاتهامات. ثم إني لا أعرف يا عزيزي التقي أمبروزيوس لماذا تريد أن أكتب إجابة على الاتهامات الكاذبة التي وجهها كلسوس ضد المسيحيين والمزاعم الزائفة التي وجهها ضد إيمان الكنائس في رسالته، كما لو أن الحقائق نفسها لا تشكل دحضاً واضحاً، وكما لو أن العقيدة لا تمثل أفضل إجابة تفوق أية كتابة، حيث أنها تقضي على الأقوال الزائفة ولا تترك أية فرصة لأن يقبل أحد الاتهامات أو يصدقها" (ضد كلسوس: المقدمة: ١).

ويتابع أوريجانوس حديثه فيقول عن سبب كتابته: "لقد كُتب هذا الكتاب لا للمؤمنين الواثقين، بل لأولئك الذين لا يعرفون الإيمان المسيحي، أو بالنسبة لكل واحد قال عنه الرسول "من هو ضعيف في الإيمان" (المرجع السابق:٦).

بهذه الكلمات بيَّن أوريجانوس ما الذي دعاه إلى القيام بكتابة رسالته ولمن كتبها. في الوقت

الذي كان قد جاوز فيه الستين من عمره. وكان نهجه هو أن يتتبع حجج كلسوس نقطة بنقطة. وكان الانطباع العام عن رده يعطي إقناعًا دينيًا عميقًا وينم عن شخصية تجمع بين الإيمان والمعرفة بدرجة يتوارى معها خصمه الوثني. وقد تمتع بأسلوب هاديء وقور يقنع القاريء بما يسوقه من حُجج.

أما كلسوس، فكان يعتز بإنجازات الفلسفة الهيلِّينية، إذ كان يونانيًا أصيلاً. فلم يوبخ المسيحية بسبب بزوغها بين البرابرة، بل إنه امتدح المسيحيين بسبب قدرتهم على اكتشاف هذه التعاليم. إلاَّ أنه يضيف إلى هذا قوله بأن اليونانيين أكثر براعة من كل من هم سواهم في الحكم على اكتشاف الشعوب غير المتمدنة وترسيخها وإخضاعها للممارسة.

فرد عليه أوريجانوس قائلاً: "يحمل الإنجيل بين طياته دلائل صحته، وهو أكثر قداسة من أي أدلة تأتي وليدة المنطق اليوناني. وهذا الأسلوب الأكثر قداسة يسميه الرسول **برهان الروح والقوة:** "**الروح**" على أساس أن النبوات تكفي أن تقود من يقرأها إلى الإيمان، ولا سيَّما بالنسبة للأمور المتعلقة بالمسيح، ومن ناحية "**القوة**" بسبب العجائب والآيات التي أُجريت والتي يمكن إثباتها على أساس كثير من المباديء الأخرى. وعلى أساس أن بعضًا منها ما يزال محفوظًا بين أولئك الذين ينظمون حياتهم وفق تعاليم الإنجيل". (المرجع السابق ١:٢).

"وألوهية المسيح واضحة لا في المعجزات التي عملها، والنبوات التي كملت فيه فحسب، بل أيضًا في قوة الروح القدس التي تعمل في المسيحيين". إن الإيمان بالمسيح وبالعقيدة المسيحية لا يتم إلاَّ بواسطة النعمة: "فكلمة الله في (١كو ٢:٤) تعلن أن الكرازة على الرغم من أنها حق في ذاتها، وجديرة تمامًا بالإيمان، إلاَّ أنها ليست كافية للوصول إلى قلب الإنسان ما لم تعمل قوة معينة يهبها الله للمتكلم ونعمة تظهر في كلامه، والذين يتكلمون بفاعلية لا يتحقق لهم ذلك إلاَّ بمعونة إلهية. ويقول النبي في المزمور الثامن والستين: "الرب يعطي كلمة المبشرات بها جند كثيرة". وعلى هذا حتى لو تم التسليم بأن نفس هذه التعاليم موجودة لدى اليونانيين كما هي موجودة في أسفارنا المقدسة، إلاَّ أنها مع ذلك لا تمتلك نفس القوة التي تجذب النفوس وتقودها إلى اتِّباعها".

ومن المهم بصفة خاصة ملاحظة رد أوريجانوس على كلسوس فيما يتعلق بالسلوك من ناحية الحاكم المدني، بالنظر إلى أن هيكل الحكومة الرومانية مرتبط بصفة وثيقة بالديانة الوثنية، كان من الطبيعي أن يتحفظ المسيحيون بالنسبة لأي شيء له صفة سياسية. وفي حين أن كلسوس يشدد على دور القانون والسلطة الخاصين بالقوى

العلمانية، يؤكد أوريجانوس على أن طاعة أوامرها لا تكون إلاَّ في حالة عدم تعارضها مع الناموس الإلهي.

وفيما يظهر كلسوس كوطني متحمس، فإن أوريجانوس يعطي الانطباع للقارىء أنه مواطن عالمي ينظر إلى تاريخ الأمم والامبراطوريات على أنه تاريخ إرشاد الله للبشرية. وفي إجابة أوريجانوس على كلسوس بالنسبة لهذا الموضوع يظهر تأثره بأفلاطون، الذي كان مبدأه هو أن الدولة لا يجب أن تعمل من أجل زيادة قوتها بل أن تعمل بُغية نشر الثقافة والحضارة. وهكذا رفض أوريجانوس السعي من أجل الحصول على اكتساب حظوة لدى الحكام المدنيين.

يقول كلسوس: ما الضرر في كسب ود حكام الأرض حتى وإن كانوا من طبيعة مخالفة لطبيعتنا أو رؤساء وملوك من البشر؟ لأن هؤلاء اكتسبوا كرامتهم من خلال تدبيرات الآلهة. فرد عليه أوريجانوس قائلاً: "هناك واحد فقط هو الذي يجب أن نسعى لكسب رضائه، وإليه يجب أن نرفع صلواتنا لكي يكون رحيمًا بنا- وهو الإله العلي، الذي يُكتسب رضاؤه بالتقوى والتمسك بكل فضيلة. وإذا كان كلسوس يريد منا أن نسعى لكسب رضاء آخرين على غرار وفائنا للّه العلي، فعليه أن يعرف أنه كما أن حركة الظل تتبع الجسم الأصلي، فبنفس الطريقة فإنه حين ننال رضاء الله، فإننا ننال أيضًا رضاء الملائكة والأرواح الذين هم أصدقاء الله.

وفضلاً عن ذلك علينا ألا نتملق الملوك أو أي إنسان مهما كان، وليس فقط في حالة ما إذا كان رضاؤهم لا يُكتسب إلاَّ عن طريق الفسوق أو الأعمال التي تتطلب القسوة، بل وحتى إذا كانت تتضمن عقوقنا بالنسبة لله أو أية تعبيرات مُذلة يقصد بها المداهنة والخنوع، وهي أمور لا تليق بالرجال الشجعان من أصحاب المباديء السامية والذين يهدفون إلى أن يضيفوا إلى جانب فضائلهم الأخرى، أسمى الخصال، وهي الصبر والجَلَد. غير أنه في الوقت الذي لا نعمل فيه ما يتعارض مع وصايا الله وكلمته، فإننا لسنا بمخبولين حتى نجلب علينا غضب الملوك والرؤساء، والتي تُعرضنا للآلام والتعذيب.. بل وحتى الموت. لأننا نقرأ: "لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة. لأنه ليس سلطان إلاَّ من الله والسلاطين الكائنة هي مُرتبة من الله. حتى إنَّ من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله" (رو ١٣: ١ و٢).

والرسالة "ضد كلسوس" تعد مصدرًا هامًا لتاريخ الديانة. ذلك لأنها تعكس لنا صراعًا بين المسيحية والوثنية كما في مرآة. وقيمة هذاالدفاع العظيم الذي قامت به الكنيسة الأولى قد زاد من حقيقة أننا نجد هنا رجالاً على مستوىً عالٍ من الثقافة كممثلين لهاتين الجبهتين. ولقد اكتسب هذا

العمل إعجاب المثقفين في العصور الأولى للمسيحية، وكان المؤرخ يوسابيوس القيصري مقتنعًا تمامًا بقوة حجة أوريجانوس حتى أنه اعتبره قد دحض كل الهرطقات على مدى كل القرون التالية. وقد يكون في هذا القول مبالغة، إلاَّ أن إسهامات أوريجانوس تظل برهانًا على سعة اطِّلاعه وقوة حجته (كواستن- الجزء الثاني).

٤- كتابات في العقيدة

أ- المبادىء الأساسية

يعد كتاب "المبادىء الأساسية" De Principles هو أهم ما كتب أوريجانوس لأنه يشمل أول منهج مسيحي للفكر اللاهوتي، وأول كتاب في العقيدة. ولهذا تبوأ مكانة جليلة في تاريخ الكنيسة الأولى. وقد كتبه في الإسكندرية بين سنتي ٢٢٠ و ٢٣٠م. وكل ما تبقى من النص اليوناني هو عدة شذرات في كتاب الفيلوكاليا وفي مرسومين للامبراطور جستنيان الأول (Justinian I). ومع ذلك نجده كاملاً في ترجمة بتصرف لروفينوس، الذي عدَّل فيه بأن حذف بعض الفقرات المشكوك فيها. وثمة ترجمة حرفية للقديس چيروم لاقت نفس مصير النسخة الأصلية.

والعمل يتكون من أربعة كتب، يمكن تلخيص محتوياتها تحت عناوين: **الله، العالم، الحرية، الإعلان الإلهي.** أما العنوان وهو **"المبادىء"** أو **"القواعد"** فيكشف مجال العمل كله. وقد استهدف أوريجانوس أن يعرض في هذه الرسالة للتعاليم الأساسية للإيمان المسيحي. أما المقدمة، التي تسبق الكتاب الأول فتوضح لنا هذه النقطة. فمصدر كل الحق الديني هو تعليم المسيح وتلاميذه. وهكذا ابتدأ مقدمة العمل.

كل الذين يؤمنون ويوقنون أن النعمة والحق تم الحصول عليهما بواسطة يسوع المسيح، ويعرفون أن المسيح هو الحق، ويتقبلون إعلانه: "أنا هو الحق" (يو ١٤:٦) يحصلون على المعرفة التي تحض الإنسان على الحصول على حياة صالحة وسعيدة، وذلك ليس من أي مصدر سوى نفس كلمات المسيح وتعليمه. ولا نقصد بأقوال المسيح تلك التي فاه بها حين تجسد وأخذ صورة إنسان، فقبل ذلك الوقت كان المسيح، كلمة الله، في موسى والأنبياء.. لأنه بدون كلمة الله، كيف كان بمقدورهم أن يتنبأوا عن المسيح؟ وما لم يكن هدفنا هو أن نحصر الرسالة الحالية في حدود الإيجاز الممكن، فإنه لن تكون ثمة صعوبة أن نبين دليلاً على هذا القول أو من الأسفار المقدسة، كيف أن موسى والأنبياء تكلموا جميعًا، وعملوا كل ما عملوه لأنهم امتلأوا بروح المسيح.. وفضلاً عن ذلك فإنه بعد صعوده إلى السموات تكلَّم على لسان رسله، كما أوضح بولس في هذا القول: "إذ أنتم تطلبون برهان المسيح المتكلم فيَّ" (٢كو ١٣:٣).

ثم يعرض أوريجانوس في الكتب الأربعة أفكاره التي نستعرض ملخصًا لها فيما يلي:

١- **الكتاب الأول:** يدور موضوع الكتاب حول العالم الفائق للطبيعة، ويتناول موضوعات: وحدة الله وروحانيته، والأقانيم الإلهية الثلاثة، وعلاقتهم المميزة بالحياة المخلوقة، **الآب** الذي يعمل فوق كل المخلوقات، **والكلمة** فوق كل الكائنات العاقلة أو الأرواح العاقلة، **والروح القدس**، فوق كل الكائنات العاقلة والمقدسة. وبعد ذلك نجد مناقشات عن أصل الملائكة وجوهرهم، وسقوط بعضهم.

٢- **الكتاب الثاني**: يتناول العالم المادي، الإنسان كروح ساقط محصور في جسد مادي، فتعدِّي آدم وفدائه بواسطة اللوجوس (الكلمة المتجسد، فتعليم القيامة، فالدينونة الأخيرة، وما بعد الحياة.

٣- **الكتاب الثالث:** يبحث في امتداد الإرادة الحرة، والمسئولية عند الإنسان، ويعطي موجزًا للفكر اللاهوتي الأخلاقي، واتحاد جسد الإنسان وروحه يعطي الفرصة للكفاح والنصرة. وفي هذا الصراع تساعد الملائكة الإنسان وتعوقه الشياطين، غير أن الإنسان يحتفظ بإرادته الحرة.

٤- **الكتاب الرابع:** يقدم موجزًا للتعاليم الأساسية، ويناقش الكتاب المقدس باعتباره مصدر الإيمان أو الوحي.

ب- مناقشة مع هيراقليدس

من بين عدد من البرديات التي وجدت ببلدة طرة القريبة من القاهرة في سنة ١٩٤١م، عثر على مخطوط يرجع تاريخه إلى ختام القرن السادس ويتضمن نص مناقشة جرت بين أوريجانوس وهيراقليدس (Heraclides) وإلى جانب عنوان المخطوط، فإن كلماته وأسلوبه، وتعليمه تثبت أن كاتب هذه الوثيقة هو أوريجانوس. ولم يكن ذلك الحوار مجرد حوار أدبي، بل السجل الكامل لمناقشة فعلية. وكما قال أ.د. نوك A.D. Nock: "هذا شيء فريد، لا بين كتابات أوريجانوس فحسب، بل في سائر كتابات المسيحية في باكر عهدها، وفي الأدب القديم ككل، باستثناء أغسطينوس". (كواستن- مرجع سابق).

لقد سببت آراء هراقليدس فيما يتعلق بتعليم الثالوث القدوس انزعاج الأساقفة. والمجمع الذي لم يكن رسميًا بأي حال، ولم يكن بغرض المحاكمة أيضًا، انعقد في كنيسة في العربية في حضور الأساقفة والشعب في نحو سنة ٢٤٥م. ويبدو أن أوريجانوس كان في أوج سلطانه كمعلم. ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يتم فيها مثل هذا اللقاء. ونعرف عن لقاءات له مع بيريللوس (Beryllus) وفالنتينيانوس (Valentinian) وكانديدوس (Candidus). وكان الكتبة يسجلون وقائع هذه اللقاءات. أما الأسلوب فكان يتسم بكل سمات حيوية المحادثات وحرارتها، الأمر الذي يُظهر الأمانة التامة في عملية التسجيل.

يتألف **الجزء الأول** من المناقشة من ثلاثة أقسام

وهي:

أ- استجواب أوريجانوس لهيراقليدس.

ب- أوريجانوس يعلن رأيه الخاص بشأن العلاقة بين الآب والابن.

جـ- وأخيراً يشير بكياسة بالغة إلى الموقف الذي يتوجب اتخاذه في مثل هذه الموضوعات العقيدية الصعبة. واستجواب هيراقليدس يشير إلى أنه اتهم بأنه يهتم بالشكل لا بالجوهر.

أما **الجزء الثاني** من المناقشة فكان يتكون من أسئلة وجهها الحاضرون، ومن إجابات أوريجانوس.

وقد انتهى استجواب هيراقليدس بالحوار التالي:

قال أوريجانوس: أليس الله هو الآب؟

أجاب هيراقليدس: بلى

قال أوريجانوس: أليس الابن غير الآب؟

أجاب هيراقليدس: كيف يمكن له أن يكون الابن والآب في ذات الوقت؟

قال أوريجانوس: أليس الابن الذي هو ليس الآب، هو نفسه إله أيضاً؟

أجاب هيراقلديس: إنه هو نفسه إله أيضاً.

قال أوريجانوس: ألا يصبح لذلك الإلهان واحداً؟

أجاب هيراقليدس: بلى

قال أوريجانوس: هل نحن نعترف بإلهين؟

أجاب هيراقليدس: نعم، لكن السلطان واحد.

وهذه هي الصياغة المقبولة فيما يتعلق بالآب والابن، أقنومان ولكن طبيعة واحدة.

جـ- عن القيامة

في كتاب "المبادئ الأساسية" قال أوريجانوس: "يجب علينا أولاً أن نتأمل طبيعة القيامة، حتى نعرف ما هو ذلك الجسد، والذي سيأتي إما إلى عقاب أو راحة أو سعادة، وهو سؤال سبق أن ناقشناه بالتفصيل في رسائل أخرى كتبناها عن القيامة، وبيَّنا ما هو رأينا بالنسبة لها. ويذكر يوسابيوس كتابين "عن القيامة" De resurrectione.

أما قائمة القديس چيروم فتذكر كتابين لكنها تضيف كتاباً ثالثاً عنوانه: (et alios de resurrec-tione dialogos). ويبدو أن هذين العملين جُمعا في كتاب واحد في وقت لاحق. وهذا يوضح لنا سبب حديث چيروم عن كتاب رابع لأوريجانوس "عن القيامة" والمقالة التي يتحدث عنها أوريجانوس في "المبادئ الأساسية" لابد وأنها كتبت في الإسكندرية قبل سنة ٢٣٠م، إن لم يكن قبل ذلك ولم يتبق من كل هذه الكتب سوى جزازات في كتابات كل من بامفيلوس، ميثوديوس (Methodius) من فيلبي، وچيروم. ونعرف من ميثوديوس أن

چيروم رفض فكرة: شخصية مادية للمُقام بالجسد البشري وأعضائه.

د- منوعات

وثمة عمل آخر فُقد أيضًا باستثناء جزازات صغيرة منه وهو (Stromaties) أي منوعات. وقد كتبه في عشرة أجزاء في نفس المدينة (الإسكندرية) قبل عزله، كما هو مبين في الحاشية التي كتبها بخط يده أمام هذه الكتب. ويشير العنوان إلى تنوع الموضوعات التي يناقشها دون ترتيب معين. وهذا ما يتفق مع ملاحظة چيروم بأن أوريجانوس في هذه الدراسة قارن العقيدة المسيحية بتعليم الفلاسفة القدامى مثل أفلاطون وأرسطو ونومنيوس (Numenius) وكورنوتوس (Cornutus).

٥- كتابات عملية

أ- عن الصلاة

ثمة جوهرة بين كتابات أوريجانوس تتمثل في كتابه عن الصلاة (De Oratione) والذي كتبه بناءً على اقتراح من صديقه أمبروزيوس وزوجته (أو أخته) تاتيانا Tatiana في نحو سنة ٢٣٣م. والنص موجود في مخطوطة ترجع للقرن الرابع عشر في كمبردج، كما أن مخطوطة من القرن الخامس عشر في باريس تتضمن شذرة من هذا الكتاب.

والرسالة في جزئين: الجزء الأول (الفصول ٣-١٧) يتناول الصلاة بوجه عام، والجزء الثاني (الفصول ١٨-٣٠) يتناول بصفة خاصة قولنا "أبانا". وثمة ملحق للرسالة (الفصول ٣١-٣٣)، أضيف إلى القسم الأول، ويتناول موقف الجسم والنفس والحركات والمكان واتجاه الصلاة، وأخيرًا أنواع الصلاة المختلفة.

وفي النهاية يلتمس أوريجانوس من صديقه أمبروزيوس وتاتيانا أن يقنعا بالكتابة الحالية بصفة مؤقتة إلى أن يصبح بمقدوره تقديم شيء أفضل، وأكثر جمالاً ودقة. ويبدو أن أوريجانوس لم يتمكن أبدًا من الوفاء بهذا الوعد.

وهذه الرسالة تكشف بوضوح وبأكثر من أي من كتاباته الأخرى عن مدى عمق وحرارة حياة أوريجانوس الدينية. وهي تتضمن آراء حماسية، شدد على إبرازها في هذا الكتاب، ولها قيمتها الكبرى في تحليل نظام فكرة اللاهوتي.

وهي أقدم مناقشة علمية للصلاة المسيحية على الإطلاق (كواستن- مرجع سابق).

تستهل المقدمة بالإشارة إلى أن ما هو مستحيل على الطبيعة البشرية يصبح ممكنًا بنعمة الله، وبعون المسيح والروح القدس. وهذا هو ما ينطبق على الصلاة. وبعد مناقشة التعبير الكتابي له (الفصلان ٣و٤). يقدم الكاتب في الفصل الخامس إجابة على سؤال أمبروزيوس عن فائدة الصلاة والحاجة إليها. ويدَّعي معارضو الصلاة أن الله

يعرف احتياجاتنا دون أن نطلب، وفضلاً عن ذلك، فإنه لا معنى لها، لأن الله سبق وقدَّر كل شيء. ويرد أوريجانوس على هذا الاعتراض بالإشارة إلى الإرادة الحرة التي أعطاها الله لكل إنسان، والتي نسَّقها الله مع خطته الأبدية. وثمة فقرات من الكتاب المقدس تثبت أن النفس ترفع نفسها إلى فوق وتأخذ رؤية من جمال الله. وتكرار الكلام مع الله له تأثيره من ناحية قداسة كيان الإنسان كله.

أما نفع الصلاة وفائدتها، بناء على ما سبق، يتمثل في أنها تمكننا من أن ندخل في اتحاد مع روح الرب، الذي يملأ السموات والأرض. وهدفها الحقيقي ليس التأثير على الله بل مشاركته، والاتصال به. وأفضل مثال قدَّمه المسيح، رئيس كهنتنا. فهو يرفع خضوعنا وولاءنا مع الملائكة وأرواح المنتقلين، ولا سيما الملائكة الحراس، الذين يحملون توسلاتنا إلى الله. والصلاة تحمي النفس ضد التجارب، ومن أجل هذا علينا أن نهتم بالصلاة في أوقات معينة في اليوم. والواقع أن حياتنا كلها يجب أن تكون صلاة.

ويحث الكاتب أولئك الذين يتطلعون إلى وجود روحي في المسيح ألا يطلبوا الأمور الصغيرة والأشياء الدنيوية في اتصالاتهم بالله، بل يطلبوا الأشياء العظيمة السمائية. وفي شرحه ما جاء في (١تي ٢:١) يقدم الأمثلة الكتابية لنوعيات الصلاة الأربع: التماس، عبادة، ابتهال، شكر. وإذ يتحدث عن الالتماس أو التضرع فيقول إنه يجب أن يوجه إلى الآب فقط، وليس لأحد من الكائنات المخلوقة، بل ولا حتى للسيد المسيح. وقد علَّمنا المسيح نفسه أن نعبد الآب. ولكننا يجب أن نصلي باسم المسيح. ويتوجب أن نعبد الآب من خلال الابن في الروح القدس، لكن الله الآب وحده هو الذي من حقه قبول العبادة. ويقدم أوريجانوس سببًا لهذا الرأي وهو أن الإنسان يجب أن لا يصلي لشخص هو نفسه يصلي، إذا كان يريد أن يصلي على نحو صحيح. فذاك الذي رفض أن يُدعى "صالحًا" لأن الله وحده هو الذي يُدعى هكذا من المؤكد أنه كان سيرفض أن يُعبد. وإذا كان المسيح قد سمى المسيحيين إخوته، فإنه وضَّح بذلك أنه يريدهم أن يعبدوا الآب، لا أن يعبدوه هو، الأخ: لذلك دعونا نصلي لله من خلاله ودعونا جميعًا نتكلم بنفس الطريقة دون أي انقسام في صيغة الصلاة. أو لسنا منقسمين، إذا كان البعض يصلون للآب، والآخرون يصلون للابن؟ فبسطاء العقول هؤلاء الذين بدون تفكير وبطياشة يصلون إلى الابن مع الآب أو بدون الآب، يرتكبون خطية الجهل. وقد ظل أوريجانوس وحيدًا في هذه النظرية. والتي ربما نبعت من مفهوم تابعية الابن للآب، وعن المبالغة في عقيدة التوحيد.

أما الجزء الثاني فيقدم شرحًا لقولنا "أبانا" وهو أقدم شرح متوفر لنا. وبعد المقدمة والتي تناقش النصين الواردين في إنجيلي متى ولوقا.

والطريقة الصحيحة للتكلم مع الله. يقدم لنا تفسيرًا جميلاً للنداء الافتتاحي "أبانا الذي في السموات". وهو يشير إلى أن العهد القديم لم يدعُ الله "الآب" بالمعنى المسيحي الذي يفيد تبنٍ ثابت لا يتغير، والذين تسلموا روح التبني هذا ويثبتون من خلال أعمالهم أنهم أولاد الله وصورته، هم فقط الذين يستطيعون أن يُصلُّوا عن حق. فحياتنا برُمتها يجب أن تقول "أبانا الذي في السموات"، ذلك أنه يتعين أن يكون سلوكنا سماويًا وليس دنيويًا.

والنصيحة التي يقدمها في الجزء الأول من رسالته، وهي عدم طلب الأشياء الأرضية، بل الكنوز السماوية، توضح تفسيره للطِلبة الرابعة: نظرًا لأن البعض يرون أن هذا يجب أن يُفهم كما لو أننا يجب أن نسأل من أجل الخبز اللازم لجسدنا، إلاَّ أن الأمر يستحق أن ندحض فكرتهم الخاطئة، ونكتشف الحقيقة فيما يتعلق بعبارة "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم" (مت ٦:١١، لو ١١:٣). ويجب أن نرد على مثل هؤلاء الناس بأنه كيف يمكن لذاك الذي يطلب بأن يتعين على الإنسان أن يصلي طالبًا الأشياء السماوية العظيمة، ينسى تعليمه -بحسب اعتقادهم- ويأمرهم بأن يسألوا الآب عن أمر دنيوي وبسيط. والخبز هو "الكلمة" اللوجوس الذي قال عن نفسه إنه: "خبز الحياة".

وعند كلامه عن السلوك الواجب أثناء الصلاة ذكر أوريجانوس أن كل العبادة يجب أن توجه نحو الشرق، للإشارة إلى أن النفس تتطلع إلى فجر النور الحقيقي، شمس البر والخلاص، المسيح. ويركز أوريجانوس طوال هذه الرسالة على نزوع النفس. وأن نتائج الصلاة تعتمد على الاستعداد الداخلي. ونوجز ما قاله في هذا الشأن كما يلي:

أولاً: لا يمكن أن تكون هناك عبادة حقيقية ما لم تُضرم الحرب ضد الخطية كي تطهر القلب.

ثانياً: هذه الحرب ضد كل ما يسبب النجاسة مرتبطة بشكل وثيق بالمحاربة المستمرة لتحرير الروح من العواطف المعتلة وضد كل الأهواء الفاسدة. وإذ يعلق على ما جاء في (مت ٥:٢٢) يوضح أوريجانوس أن الذين هم متصالحون مع أقاربهم هم فحسب الذين بمقدورهم أن يتكلموا مع الله.

ثالثاً: يجب أن نطرد كل الانطباعات والأفكار المزعجة سواء كان سببها العالم المحيط بنا، أو كان السبب في أنفسنا. وبعد أن نفعل هذا، حينئذ فقط يمكننا التقدم إلى الله. وكلما استعدت النفس بشكل أفضل، كانت الاستجابة لالتماساتها من الله سريعة، وزادت استفادتها من الحديث معه. وعلى الرغم من ذلك فإنه حتى بعد اتخاذ مثل هذه الخطوات، تظل الصلاة هبة من الروح القدس، الذي يصلي فينا، ويقودنا في الصلاة.

كانت كتابات أوريجانوس يقرأها الرهبان القدامى في مصر، والقواعد المتبعة في أقدم

الأديرة تبين تأثيره ولا سيما فيما يتعلق بموضوع الصلاة والتوبة.

ب- حض على الاستشهاد

تحمل المخطوطات والنسخ المطبوعة عنوان: حض على الاستشهاد (Exhortatio ad martyrium) ويطلق عليها كل من بامفليوس ويوسابيوس والقديس چيروم عنوان "عن الاستشهاد" من باب الإيجاز. وقد كتب أوريجانوس هذه الرسالة مع بداية اضطهاد مكسيمينوس ثراكس (Maximinus Thrax) في سنة ٢٣٥ م في قيصرية في فلسطين. والواقع أن هذه الرسالة وُجهت إلى الشماس أمبروزيوس والكاهن بروتيكتوس (Protectus)، وكانا من بين المسيحيين في تلك المدينة. وهي تتناول موضوعًا كان محببًا لقلب كاتبها طوال حياته. وقد كتب يوسابيوس عن صباه المبكر فقال: "حينما أضرمت شعلة الاضطهاد وغدت لهبًا حامي الوطيس، وتُوجت أعداد غفيرة بإكليل الشهادة، تملكت روح أوريجانوس رغبة مُلحّة للاستشهاد، فيما كان لا يزال صبيًا يافعًا، حتى أنه كان يتلهف لأن يدفع بنفسه إلى مكامن الخطر، ويندفع بكل سرعة نحو ساحة الاستشهاد. والواقع أنه لم يكن أمامه سوى بضع خطوات حتى تنتهي حياته، لو لم تتدخل العناية الإلهية والترتيب السماوي لصالح الخير العام وذلك من خلال والدته التي وقفت في طريق حماسته هذه. فقد لجأت في باديء الأمر إلى استعطافه بالكلمات ترجوه أن يرحم مشاعر الأم، وبعد ذلك، وحين علم أن والده قد قُبض عليه، وأُلقي به في السجن، وأن كيانه كله أصبح يتوق للاستشهاد، وإذ أدركت أنه أصبح أكثر تصميمًا على تنفيذ قصده مما كان عليه قبلاً، قامت بإخفاء كل ملابسه وبذلك ألقت على عاتقه ضرورة البقاء في البيت. وبالنظر إلى أنه لم يكن أمامه شيء آخر ليعمله، وحيث كانت تدفعه الحماسة التي زادت مع الأيام شدة، أرسل إلى أبيه رسالة عن الاستشهاد تحثه بكل قوة على التحمل، فكتب له العبارة التالية: "احرص على ألاَّ تغير رأيك من هذه الناحية".
(يوسابيوس: تاريخ الكنيسة ٦:٢:٢-٦).

كانت هذه أول نصيحة لأوريجانوس عن الاستشهاد. أما الكتاب الذي كتبه عن هذا الموضوع في سنة ٢٣٥م. فيبين أنه لم يفقد شيئًا من حماسته. ومع ذلك فإنه في الفصلان ٤٥ و٤٦ ذكر- ودون قصد- أن رغبته هذه في الاستشهاد لم يكن يشاركه فيها الجميع. كان ثمة البعض ممن ينظرون إلى أن ارتكاب بعض الأمور مثل الذبح للأوثان أو التضرع لأحد آلهة الوثن، أمر لا أهمية له، وآخرون لا يرون أية جريمة في الموافقة على الذبيحة التي تطلبها السلطات الوثنية ما دمت "تؤمن بقلبك". ولمثل هؤلاء كتب أوريجانوس رسالته.

تبدو مقدمة الرسالة وكأنها عظة. ويصف

الكاتب الشخصين اللذين يوجه إليهما الرسالة بما جاء في إشعياء (٢٨:٩-١١). ويقول لقد اختُبر إيمانهما، فوجدا أمينين وقد نصحهما بأن يثبتا في الضيقات. لأنه بعد فترة قصيرة من الآلام ستكون مكافأتهما أبدية (الفصلان ١ و٢). والاستشهاد واجب على كل مسيحي حقيقي لأن كل الذين يحبون الله يتمنون أن يتحدوا به (الفصلان ٣ و٤). ولن يدخل الحياة الأبدية السعيدة إلاَّ أولئك الذين يعلنون إيمانهم بكل شجاعة. (الفصل الخامس).

ثم في الجزء الثاني، يحذر من الردة وعبادة الأوثان. فأعظم خطية هي إنكار الإله الحقيقي وتعظيم آلهة زائفة (الفصل السادس). لأنه ليس من المعقول أن نعبد المخلوقات دون الخالق (الفصل السابع) والله يقصد تخليص النفوس من عبادة الأوثان (الفصلان ٨ و٩). والذين يرتكبون هذه الجريمة يدخلون في وحدة مع الأوثان، ولسوف يعاقبون بقسوة بعد الموت (الفصل العاشر).

ويحتوي الجزء الثالث على النصيحة الحقيقية التي تحض على الاستشهاد (الفصل الحادي عشر). ولن يخلص سوى أولئك الذين يحملون الصليب مع المسيح (الفصلان ١٢ و١٣). ولسوف تكون المكافأة عظيمة بالنسبة للممتلكات الأرضية التي تركوها وراءهم (الفصول ١٤-١٦). وبالنظر إلى أننا تبرأنا من الآلهة الوثنية حين اعتمدنا، لذلك فليس مسموحًا لنا بأن نحنث في وعدنا (الفصل السابع عشر). ولسوف يحكم العالم كله على سلوك الشهداء (الفصل الثامن عشر). ولهذا السبب علينا أن نتقبل جميع أنواع الاستشهاد حتى لا نعد ضمن الملائكة الذين سقطوا (الفصول ١٩-٢١).

أما في الجزء الرابع فيورد أمثلة من الكتاب المقدس على المثابرة والتحمل: فنذكر مثال أليعازر (الفصل ٢٢) والأبناء السبعة وأمهم البطلة والذين تحدث عنهم سفر المكابيين الثاني (الفصول ٢٣-٢٧).

ويتناول في الجزء الخامس ضرورة الاستشهاد وجوهره ونوعياته. والمسيحيون مضطرون إلى تحمل مثل هذا الموت لكي يعبروا لله عن شكرهم لكل النعم التي أعطاها لهم (الفصلان ٢٨ و٢٩). والخطايا التي ترتكب بعد قبول معمودية الماء لا يمكن أن تغفر إلاَّ بمعمودية الدم (الفصل ٣٠). ونفوس أولئك الذين يصمدون أمام كل تجارب الشيطان (الفصل الثاني والثلاثون) ويقدمون حياتهم لله كقربان طاهر، لا يدخلون النعيم الأبدي فحسب (الفصل الحادي والثلاثون). بل يستطيعون الحصول على المغفرة لكل من يصلون من أجلهم (الفصل الثلاثون). وكما أعان الله الفتية الثلاثة في أتون النار ودانيال في جب الأسود، فإنه لن يبخل بمعونة للشهداء (الفصل الثالث والثلاثون).

وليس الله الآب فحسب هو الذي يطلب مثل هذه التضحية، بل إن المسيح يطلبها أيضًا. فإذا ما أنكرناه، فلسوف ينكرنا في السماء (الفصلان ٣٤ و٣٥). ومن ناحية أخرى فهو سيقود من يعلنون إيمانهم إلى الفردوس (الفصل السادس والثلاثون). لأن الذين يكرهون العالم هم وحدهم الذين يرثون ملكوت السموات (الفصلان ٣٧ و٣٩). ولسوف يمنحون بركة لأولادهم الذين تركوهم هنا على الأرض (الفصل الثامن والثلاثون). ومن ناحية أخرى، من ينكر الابن ينكر الله الآب أيضًا (الفصل الأربعون).

غير أنه إذا ما اتبعنا مثال المسيح وقدَّمنا له حياتنا قربانًا فإن تعزياته تكون معنا (الفصلان ٤١ و٤٢). ولهذا السبب ينصح المسيحيين بأن يكونوا مستعدين للاستشهاد (الفصلان ٤٣ و٤٤).

أما الفصلان (٤٥ و٤٦) فيتناولان موضوعًا جانبيًا، إذ يبحث في موضوع بأي اسم نتضرع إلى الله. ويلخص الجزء الأخير من المقالة، النصائح والتحذيرات التي تحث على الشجاعة والمثابرة أثناء الحبس وفي الخطر مع التشديد على واجب كل مسيحي أن يصمد للتجربة في وقت الاضطهاد (الفصول ٤٧-٤٩). وثمة عزاء واحد: سوف ينتقم الله لدمائهم، إلاَّ أنهم بآلامهم سوف يفدون الآخرين (الفصل الخمسون).

وفي الخاتمة يرجو الكاتب أن يكون كتابه نافعًا لصديقيه، وإلاَّ فإنه نظرًا لأنهما مستعدان لينالا إكليل الشهادة، فيثبت أنه عمل لم يكن ضروريًا!

للرسالة أهمية كبرى كمصدر تاريخي للاضطهاد الذي شنَّه مكسميانوس ثراكس. وقد حفظ النص في ثلاث مخطوطات.

جـ- عن عيد القيامة

نفس المخطوطة التي تم العثور عليها في بلدة طرة في سنة ١٩٤١م، والتي تتضمن "مناقشة مع هيراقليدس"، تحتوي أيضًا على شذرات من رسالة لأوريجانوس بعنوان "عن عيد القيامة" (On Easter) والتي لا يُعرف عنها سوى النذر القليل.

د- رسائل

يذكر چيروم في ختام قائمته أربع مجموعات مختلفة من مراسلات أوريجانوس التي كانت موجودة في ذلك الحين في قيصرية. بلغت إحداها تسعة كتب، ولابد وأنها هي التي حررها يوسابيوس (تاريخ الكنيسة ٣:٣٦:٣)، والتي كانت تضم أكثر من مائة رسالة. ومن بين كل هذه الرسائل لم تتبق سوى رسالتين كاملتين.

(١) الرسالة الأولى: هي الفيلوكاليا "The Philocalia" وتعني محبة الصلاح أو الخير أو الجمال، وتتضمن في الفصل الثالث عشر رسالة وجهها أوريجانوس إلى تلميذه السابق غريغوريوس صانع العجائب (Gregory Thaumaturgos).

ويبدو أنها كتبت ما بين سنتي ٢٣٨م و٢٤٣م، حين كان أوريجانوس في نيقوميديا (بآسيا الصغرى). وفي عبارات أبوية ينصح المعلم تلميذه السابق بأن "يأخذ من الفلسفة اليونانية الأمور التي يمكن تعميمها أو تصلح لتكون دراسة تمهيدية للمسيحية.

وتختتم الرسالة بنصيحة حارة بألا يسترخوا أو يتهاونوا في قراءة الكتاب المقدس. وقد ظهرت لها مؤخرًا ترجمة بالعربية في مصر.

(٢) الرسالة الثانية: ونصها لا يزال موجودًا بكامله، وقد وُجهت إلى يوليوس أفريكانوس، وكانت ردًا على رسالة بعث بها هو إلى أوريجانوس، وهي أيضًا محفوظة. وقد اقتبس أوريجانوس حادثة سوسنة (Susanna) في إحدى المجادلات. وقد جذب يوليوس أفريكانوس الانتباه إلى حقيقة أن هذه الحادثة لم ترد في النص العبري لسفر دانيال. وثمة أسباب ترجع إلى اللغة والأسلوب وكذلك إلى النواحي البلاغية الأمر الذي يوضح تمامًا أنها لا تنتمي في الأصل إلى سفر دانيال، وعلى ذلك لا يمكن اعتبارها كتابية. أما أوريجانوس فقد دافع في رده بشدة وأظهر معرفةً واسعةً، وأثبت أن هذه القصة تنتمي إلى الكتاب المقدس وكذلك قصة البعل (Bel) والتنين. وصلوات عزريا، وترنيمة الحمد للفتية الثلاثة في أتون النار. فهي موجودة في الترجمة السبعينية، وكذلك في ترجمة ثيودوسيون. فضلاً عن ذلك فإن الكنيسة تحدد الأسفار القانونية للعهد القديم، ومن الأفضل أن تتذكر هذا القول:: "لا تنقل التخم القديم الذي وضعه آباؤك" (أم ٢٢:٢٨).

كُتبت هذه الرسالة في نحو سنة ٢٤٠م. في بيت صديقه أمبروزيوس في نيقوميديا.

جـ- ثمة رسائل عديدة أخرى لأوريجانوس، لكنها فُقدت، ومعرفتنا بها ترجع إلى الكتاب السادس من "التاريخ الكنسي" ليوسابيوس القيصري. ومن بينها رسالة للامبراطور "فيلبس العربي" (Philippus Arabs) وأخرى إلى زوجته سيڤيرا (Severa). ويذكر يوسابيوس عدة رسائل إلى البابا فابيانوس (Fabianus) (٢٣٦-٢٥٠م). (كواستن- مرجع سابق).

✢✢✢✢

ملامح من الفكر اللاهوتي عند أوريجانوس

أسَّس العلاَّمة أوريجانوس فكره اللاهوتي على أعلى وأسمى عقيدة في المسيحية أي "الله". وأول أعماله اللاهوتية "المباديء الأساسية" يبدأ بقوله: "إن الله روح، وأن الله نور. والله غير مولود. وهو غير مادي... فالله الآب كائن مطلق لا يُستقصى. إلاَّ أنه يمكن إدراكه من خلال اللوجوس، الذي هو المسيح". (المباديء الأساسية ١:٢:٨). ويمكن أيضًا إدراكه من خلال مخلوقاته، كما تعرف الشمس

بأشعتها:

كثيرًا ما تعجز عيوننا عن التركيز في طبيعة النور نفسه، أي في جوهر الشمس ذاتها: غير أننا حين نرى بهاءها أو أشعتها تنساب، ربما عبر النوافذ أو بعض الفتحات الصغيرة التي تسمح بدخول النور، هنا نستطيع أن نتأمل كيف أن مصدر هذا النور عظيم. وبنفس الطريقة أيضًا نجد أن أعمال العناية الإلهية وخلق هذا العالم كله إن هي إلاَّ نوع من الأشعة، إذا جاز لنا القول، تعبر عن طبيعة الله بالمقارنة مع جوهره وكيانه الحقيقيين. ولذلك فإنه، بالرغم من أن فهمنا قاصر في حد ذاته عن إدراك الله نفسه، في حالته الحقيقية، فإنه يعرف بأنه "خالق العالم" من أعماله الرائعة ومخلوقاته الجميلة.

وكان العلاَّمة أوريجانوس مهتمًا للغاية بضرورة تجنب أن ينسب أي صفات بشرية إلى الله. وهو يدافع عن طبيعة الله غير المتغيرة ولا سيما ضد مذهب وحدة الوجود ومبدأ الثنائية الذي يؤمن به الرواقيون، والغنوسيون، والمانويون.

١- الثالوث

كان العلاَّمة أوريجانوس يعرف تمامًا تعبير "الثالوث" وهو يرفض ويدحض أفكار الانتحاليين Modalistics. أما أنه يعلم مبدأ التابعية، فهذا ما قد أكده البعض ونفاه البعض الآخر. فالقديس چيروم لم يتردد في اتهامه بذلك، في حين أن كلاً من غريغوريوس صانع العجائب والقديس أثناسيوس قد برأه من كل شبهة. وكذلك الكتبة المحدثون من أمثال "رينون" Regnon "وبرات" Prat قد أبرأوا ساحته أيضًا.

وطبقًا لما يقوله أوريجانوس: انبثاق الابن من الآب ليس نتيجة عملية انقسام، بل بنفس الطريقة التي تنبثق بها الإرادة من العقل: "لأنه إذا كان الابن يعمل كل الأشياء مثل الآب، تكون صورة الآب قد تكونت في الابن، الذي وُلد منه، مثل عمل إرادته انبثق من العقل، ولذلك فإني مع الرأي القائل إن إرادة الآب يجب أن تكون وحدها كافية لوجود ما يريده. لأنه في ممارسته لمشيئته لا يستخدم أية طريقة أخرى سوى تلك التي أعلنت بمشورة إرادته. وهكذا أيضًا وجود الابن قد ولد منه (انبثق). لأن هذه النقطة، وقبل أي شيء آخر، يجب أن يقبلها أولئك الذين لا يُسلمون بأن هناك ما يمكن أن يكون غير مولود، أي لم يولد، سوى الله الآب فحسب... وبما أن عمل الإرادة ينبثق من الفهم، ولا شيء يعزل أي جزء، حيث لا يُفصل أو ينقسم عنه، وهكذا وبطريقة ما قيل إن الآب ولد الابن، صورته، وحيث أنه هو غير منظور بالطبيعة فقد ولد صورةً غير منظورة. لأن الابن هو الكلمة، ولذلك ليس لنا أن نفهم أي شيء فيه يمكن للحواس أن تدركه. فهو الحكمة، ولا يمكن أن تكون ثمة شبهة في أن يكون بها أي شيء مادي. فهو النور الحقيقي، الذي ينير كل إنسان آتيًا إلى العالم.

لذلك فإن مخلصنا هو صورة الإله غير المنظور، وهو الحق، الصورة التي بواسطتها نعرف الآب، الذي لم يره أحد إلاّ الابن، ومن أراد الابن أن يعلن له، (المبادىء الأساسية ١:٢:٦).

وهكذا أوضح أوريجانوس أن الابن انبثق من الآب، لا عن طريق الانقسام بل بعمل روحي. ونظراً لأن كل شيء أبَدي في الله، فإن عمل الولادة هذا أبَدى أيضاً. ولنفس السبب ليس للابن بداية. فلم يكن ثمة وقت لم يكن فيه الابن موجوداً. ويكاد يبدو كما لو أن أوريجانوس قد توقع دحض الهرطقة الأريوسية التي تقول بعكس ذلك تماماً من أنه كان ثمة وقت لم يكن الابن فيه. ونفس الأمر ينطبق على بنوية المسيح. ولذلك فالعلاقة بين الابن والآب، هي علاقة وحدة في الجوهر وفي هذا الإطار صاغ أوريجانوس العبارة التي أصبحت مشهورة في المجادلات حول شخص المسيح في مجمع نيقية (٣٢٥م).

وأي شيء آخر يمكننا افتراضه في النور الأبدي سوى أنه الله الآب، أما الذي لا يمكن إنكاره أبداً فهو أنه ما دام هو النور، فلا يمكن القول إن بهاءه (عب ١:٣) لم يكن معه في وقت من الأوقات، فلا يمكن تخيل النور دون بهاء، ولكن إذا كانت هذه حقيقة فلا يكن ثمة وقت لم يكن فيه الابن هو الابن، على أنه سوف يكون لا كما وصفنا النور الأبدي، غير مولود (لئلا نبدو. وكأننا نتحدث عن أساسين للنور)، ولكنه بهاء النور غير المولود، حيث أن هذا النور نفسه هو بدايته ومصدره، فقد وُلد منه في الحقيقة، غير أنه لم يكن هناك وقت لم يكن موجوداً فيه.

وهكذا الحكمة أيضاً، من حيث أنها منبثقة من الله، فهي مولودة من الجوهر الإلهي نفسه. ومع ذلك، فتحت تشبيه فيض جسدي، فهي أيضاً دعيت هكذا: "فإنها بخار قوة الله وصدور مجد القدير الخالص فلذلك لا يشوبها شيء نجس" (الحكمة ٧:٢٥).

وكل من هذين التشبيهين يوضح بجلاء كيف أن الابن والآب واحد في الجوهر. لأن تدفق جوهر من ذاته يعد مثل الزفير أو مثل عملية التنفس.

وهكذا كان تعليم أوريجانوس عن اللوجوس يشكل تقدماً رائعاً في تطور الفكر اللاهوتي، وكان له تأثير واسع المدى على التعليم الكنسي.

ومع ذلك، فثمة اتجاهان للفكر أصبحا واضحين بعد دراسة الفكر اللاهوتي لأوريجانوس. أحدهما يؤكد ألوهية اللوجوس، في حين أن الآخر يسميه "إله ثان". فالآب وحده هو الصلاح الأساسي، أما الابن فهو صورة الصلاح. ويقرر أوريجانوس: "فنحن الذين نقول إن العالم المرئي تحت رئاسة ذاك الذي خلق كل شيء فإننا بذلك نعلن أن الابن ليس أقوى من الآب، بل أقل منه. فأوريجانوس يرى أن الابن والروح القدس إن هما

إلاّ وسيطان بين الآب والمخلوقات:

"أما بالنسبة لنا فنحن من نؤمن بكلام المخلص الذي قال: "أبي أعظم مني". ولم يسمح بأن تطبق عليه صفة "صالح" بمعناها الكامل والحقيقي، بل عزا الصلاح إلى الآب ووجَّه له الشكر، وأدان الذي يفرط في تمجيد الابن- نحن نقول إن المخلص والروح القدس ليس لهما نظير وهما يسموان كثيراً جداً على كل المخلوقات، ولكن في نفس الوقت نقول إن الآب أعظم من هذين اللذين يسموان على كل المخلوقات حتى الأسمى منها. (Contra Cels 5,39, in Joh. 6,39,202).

ويمكن أن ندرك بسهولة من هذه الفقرة وفقرات أخرى مماثلة السبب في اتهام أوريجانوس بأنه يتبع مبدأ "التابعية". ومن الجلي تماماً أنه يفترض وجود نظام متدرج في الثالوث القدوس، ويعتبر الروح القدس في درجة أقل حتى من المسيح.

٢- دراسات عن شخص المسيح

يقدم أوريجانوس مفهوم نفس يسوع، وهو يرى أن هذه النفس التي كانت موجودة قبل الوجود بمثابة الحلقة التي تربط بين اللوجوس غير المحدود والجسد المحدود للسيد المسيح.

وجوهر النفس هذه، إذ أنها وسيطة بين الله والجسد- لأنه من المستحيل لطبيعة الله أن تمتزج مع جسد دون أداة وسيطة- لذلك ولد الإله الإنسان، كما سبق القول لكي يكون ذلكم الجوهر وسيطاً لذاك الذي لا تناقض مع طبيعته في أن يتخذ جسداً. غير أنه من ناحية أخرى، ليس بالنسبة لهذه النفس، كوجود طبيعي، ما يحول دون أن يحل الله فيها. ولذلك وعن استحقاق سمي أيضاً -مع الجسد الذي أخذه- ابن الله، وقوة الله، المسيح، وحكمة الله، إما لأنها كانت بالكامل في ابن الله، أو لأنها قبلت ابن الله بالتمام في داخلها.

وكان أوريجانوس أول من استخدم تعبير الله الإنسان، هذا التعبير الذي أخذ مكانه بين المصطلحات الخاصة بالفكر اللاهوتي المسيحي. وباتحاد نفس المسيح بالكلمة أصبحت غير قادرة على ارتكاب الخطية:

"أما وأن طبيعة نفسه كانت مثل نفوس الجميع فهذا ما لا يمكن إنكاره، وإلاّ ما كان يمكن أن تُسمى نفساً ما لم تكن كذلك بالفعل. غير أنه بالنظر إلى أن قوة الاختيار بين الخير والشر موجودة في الجميع، فإن نفس المسيح اختارت أن تحب البر، ولذلك فإنه بالنسبة لضخامة محبتها فقد تعلقت به دون تغيير أو انفعال، ولذلك فإن التمسك بالهدف بثبات وقوة المحبة، وحرارة المحبة التي لا يمكن أن تضعف، حطمت كل احتمالية للتغيير أو التبديل، وما كان في السابق يعتمد على الإرادة، تبدل بقوة طول الوقت وأصبح طبيعة، ولذلك يجب أن نؤمن أن في المسيح ثمة نفساً بشرية طبيعية،

دون افتراض أن لها ميلاً -احتمالاً- للخطية.

واتحاد الطبيعتين في المسيح هو اتحاد وثيق للغاية، لأن نفس المسيح وجسده شكلاً بعد الاتحاد كائنًا واحداً مع كلمة الله. وهكذا كان أوريجانوس يُعلِّم بتبادل الصفات المميزة. وعلى الرغم من أن المسيح يُعَرَّف باسم يشير إلى ألوهيته، إلاَّ أنه يمكن أن تنسب إليه السمات البشرية والعكس بالعكس.

"وابن الله الذي بوساطته خُلق كل شيء، دُعي يسوع المسيح وابن الإنسان -لأن ابن الله قيل إنه مات -وهذا بالإشارة على وجه الخصوص إلى تلك الطبيعة التي يمكن أن تخضع للموت، وقد سُمي ابن الإنسان، الذي أُعلن أنه سيأتي بمجد الآب مع الملائكة القديسين. ولهذا السبب نجد أنه في الكتاب المقدس كله، لا يأتي الحديث عن الطبيعة الإلهية بكلمات بشرية فحسب، بل إن الطبيعة البشرية ازدانت عندما خُلِعت عليها المهابة الإلهية.

٣- دراسة عن شخصية السيدة العذراء

يقول المؤرخ سوزومن Sozomen إن أوريجانوس استخدم كلمة "ثيؤتوكس" بالنسبة للعذراء.. وقد استخدم هذا اللقب في مدرسة الإسكندرية -لفترة طويلة- ليعبر عن الأمومة الإلهية لمريم. وقد بدأ هذا اللقب يكون محلاً للهجوم اعتباراً من النصف الأول من القرن الخامس في المجادلات النسطورية. وقد تم وضع تعريف له وتحديده في مجمع أفسس.

غير أن أوريجانوس يعلم أيضًا بأمومة مريم العامة "لا يستطيع أحد أن يفهم معنى إنجيل (القديس يوحنا) ما لم يكن قد استراح على صدر يسوع وتقبل مريم منه لتكون أمه هو أيضًا.

٤- دراسات حول الكنيسة

الكنيسة هي الجسد السري للمسيح. وكما تسكن النفس في الجسد، هكذا اللوجوس (المسيح كلمة الله) يسكن في الجسد، وهكذا فإن اللوجوس يعيش في الكنيسة كما يعيش في جسده. وهو أساس حياتها.

نحن نقول إن الأسفار المقدسة تعلن أن جسد المسيح الحي، ابن الله، هو كنيسة الله كلها، وأن أعضاء هذا الجسد -ككل- هم المؤمنون، لأنه كما أن الروح تحيي الجسد وتحركه، هكذا الكلمة أيضًا، توقظ وتحرك الجسد كله، الذي هو الكنيسة، إلى عمل مناسب، وفضلاً عن ذلك توقظ كل عضو ينتمي إلى الكنيسة على حدة، ولذلك فهم لا يعملون شيئاً بمنأى عن الكلمة.

وكان أوريجانوس أول من أعلن أن الكنيسة هي مدينة الله هنا على الأرض، حيث تقوم الآن ولفترة محدودة جنبًا إلى جنب مع الدولة العلمانية. وهي على هذا النحو لها طابع مسكوني، وقوانينها تتفق مع الدستور الراسخ في كل البلاد:

وما نعتقده هو أن "الكلمة سيسود على كل الخليقة الطبيعية، ويغير كل نفس إلى كماله هو، وفي هذه الحالة فإن كل واحد من خلال ممارسة قوته وحدها، فسوف يختار ما يريد، ويحصل على ما اختاره (Contra Cels. 8,72).

ولا يمكن أن يكون ثمة خلاص بدون هذه الكنيسة. والتعاليم والنواميس التي جاء بها المسيح إلى البشرية لا نجدها سوى في الكنيسة. مثل دمه الذي سُفك من أجل خلاصنا. ولهذا السبب لا يمكن أن يوجد إيمان خارج هذه الكنيسة. وإيمان الهراطقة لا يعد إيمانًا بل هو أمر اعتباطي.

٥- المعمودية والخطية الأصلية والغفران

يعترف أوريجانوس بالخطية الأصلية، وبمعمودية الأطفال. فكل إنسان مولود في الخطية، ولهذا كانت معمودية المولودين حديثًا تقليدًا اتبعه الرسل: "إذا كنت تريد أن تعرف ما شعر به قديسون آخرون فيما يتعلق بالميلاد بالجسد، فانصت إلى داود حين قال: "ها أنذا بالإثم صوِّرت وبالخطية حبلت بي أمي" (مزمور ٥١:٥)، حيث يثبت أن كل نفس مولودة بالجسد قد لوثت بوصمة الخطية والإثم" (In lev. hom. 8,3 spck).

ويرد أوريجانوس عن السؤال عن الغرض من معمودية الأطفال فيقول: "إن الكنيسة تسلمت من الرسل عادة إجراء المعمودية حتى بالنسبة للأطفال، لأن أولئك الذين أؤتمنوا على الأسرار الإلهية، يعرفون جيدًا أن الجميع ملوثون بالخطية الأصلية، والتي يجب أن تزال بالماء والروح" (In Rom. Com. 5,9 EH 249).

ويؤكد أوريجانوس في مناسبات عدة على أن المعمودية هي الطريق الوحيد لمغفرة الخطايا. إلاّ أنه ثمة وسائل عديدة لمغفرة الخطايا التي ارتكبت بعد المعمودية ويذكرها وهي: الاستشهاد، الصدقات، غفراننا لمن يسيئون إلينا، تجديد الخاطيء (طبقًا لما جاء في يعقوب ٥:٩)، والمحبة، ثم من خلال الندم والتوبة، ومن خلال الاعتراف بالخطايا أمام الكاهن، والكاهن هو الذي يحدد ما إذا كان المعترف يقر بخطاياه علانية أم لا. وهو يرى أن بعض الخطايا مثل خطايا الوثنية والزنى لا يمكن غفرانها عن طريق الصلاة وحدها. إذ يلزم توقيع عقوبة على الخاطيء كالحرم لمدة طويلة. وهو يذكر في مناسبات عديدة أن كل خطية قابلة للغفران.

٦- الأخرويات

يرى أوريجانوس في تعليمه عن الرد الشامل لكل الأشياء إلى حالتها الروحية الخالصة الأصلية، أن نفوس أولئك الذين ارتكبوا خطايا هنا على الأرض سوف تخضع لنار مطهرة بعد الموت، أما الأبرار فيذهبون إلى الفردوس. وأوريجانوس لا يعرف أي عقوبة في الجحيم أو أي نار أبدية. فكل الخطاة سوف يخلصون، بل حتى الشياطين

أنفسهم سوف يطهرهم اللوجوس. وسوف يتبع ذلك المجيء الثاني للمسيح وقيامة جميع الناس، لا في أجساد مادية، بل في أجساد روحانية، وسيكون الله الكل في الكل.

إن ذلك التجديد الشامل يجب ألا ينظر إليه على أنه نهاية العالم، بل يعتبر مرحلة من المراحل. وقد تأثر أوريجانوس بفكرة أفلاطون عن وجود العالم، فهو يرى أنه قبل أن يبرز هذا العالم إلى الوجود، كانت ثمة عوالم أخرى، وأنه بعد أن ينتهي هذا العالم سوف تكون عوالم بعده، وهذا يحدث في تعاقب لا حدود له. وعصيان الله ثم الرجوع إليه يتعاقبان مراراً وتكراراً.

٧- الأرواح السابقة الوجود

يرتبط تعليم أوريجانوس عن الأرواح السابقة الوجود بصفة وثيقة مع فكرته عن التجديد الشامل. فالعالم المنظور (الحاضر) قد سبقه عالم آخر. والأرواح البشرية السابقة للوجود الحالي إن هي إلاَّ أرواح سقطت وابتعدت عن الله في العالم السابق. ولذلك فهي الآن موجودة في أجساد مادية.

ويرى أوريجانوس أن كلمة "نفس" مشتقة من كلمة "بارد" فيقول: علينا أن نرى ما إذا كان كما سبق القول بالاسم نفسه، حيث سميت "النفس" anima لأنها أصبحت باردة عن وهج الأشياء العادلة، وعن الارتباط بالنار الإلهية، غير أنها لم تفقد القوة لاسترجاع نفسها إلى حالة التوهج التي كانت عليها في البداية. ويبدو أن النبي يشير إلى تلك الحالة بقوله "ارجعي يا نفسي إلى موضع راحتك" (مز ١١٦:٧). ويتضح من كل هذا أنه يجب استخلاص أن الذهن إذا سقط من منزلته أو سموه جُعل أو سُمي نفساً، وأنها إذا ما أُصلحت أو قُوِّمت، فإنها تعود إلى حالة الفهم التي كانت عليها قبلاً".

"فإذا كان الحال كذلك، فيبدو لي أن نفس فساد الفهم وسقوطه، لا يكون واحداً بالنسبة للجميع، إلاَّ أن التجديد في نفس ما إنما يصل إلى درجات أكبر أو أقل في حالات مختلفة، وأن ثمة أذهاناً معينة تحتفظ بشيء حتى من حيويتها السابقة، فيما أن حالات أخرى لا تحتفظ بشيء أو بقدر ضئيل منها. وفي حين أن البعض يوجدون في حياتهم في حالة نشاط فكري أكثر، نجد أن آخرين في حالة ذهنية أقل، والبعض يولدون متبلدي الذهن تماماً، وعاجزين كلية عن الاستيعاب. (De prince. 2,9,3-4).

وأليس يتطابق أكثر مع المنطق أن كل نفس ولأسباب معينة غامضة (أتكلم الآن طبقاً لرأي فيثاغورس وأفلاطون وإمبيدوكليس Empedocles، الذين يذكرهم دائماً كلسوس)، قدمت في جسد، وذلك طبقاً لاستحقاقها وأعمالها السابقة. (Conrta cels. 1.32).

٨- الكتاب المقدس

يؤمن أوريجانوس أن الكتاب المقدس ليس مجرد رسالة في العقيدة أو يرتبط بالنواحي الأخلاقية فحسب. بل يرى أنه يفوق ذلك بكثير.. وهو أكثر سمواً.. لأنه يعكس العالم غير المنظور.

وهو يضع مبدأين في رؤيته للكتاب المقدس. **المبدأ الأول:** الكتاب المقدس كلمة الله، لا كلمة ميتة حبيسة الماضي، بل كلمة حية موجهة بصفة مباشرة إلى إنسان اليوم. أما **المبدأ الثاني:** إن العهد القديم قد وضح في ضوء العهد الجديد، كما أن العهد الجديد لا يمكن سبر أغواره إلاَّ بدراسة العهد القديم. وهو يقول إن الكتاب المقدس يحتوي على تاريخ وأسرار ومعاني أخلاقية، وهي تناظر مكونات الإنسان الثلاثة. الجسد والنفس الروح، أو الدرجات الثلاث للكمال.

استخدم أوريجانوس التفسير الرمزي تفادياً للمواقف التي قد يتعرض لها من جرَّاء التفسير الحرفي. (De Princ. 4,16) وقد ذهب إلى حد أنه أكد أن **"كل ما جاء بالكتاب المقدس له معنًى روحي، لكن ليس كل ما ورد به له معنًى حرفي"**.

وكان نتيجة لتأثر أوريجانوس بفكر فيلو أنه كان يرى معنًى روحيًا في كل فقرة من فقرات الكتاب المقدس، وأن بعضًا من أساليبه الرمزية أصبح غير واقعي.

✢✢✢✢

التصوف في تعليم أوريجانوس

يعتبر العلاَّمة أوريجانوس أحد أعظم المتصوفين في تاريخ الكنيسة. وإن كان هذا الجانب في تعليمه قد أهمل طويلاً، إلاَّ أن الاهتمام به بدأ في إلقاء الضوء على هذا الجانب في تعليمه. ودعنا ندرس تلك النقاط الخاصة بالتصوف في أفكاره و تعليمه.

أ- رؤيته للكمال

ب- معرفة الذات

جـ- الطهارة والنقاوة

د- اعتزال العالم وممارسة النسك

هـ- الاتحاد السري باللوجوس

أ- رؤيته للكمال

بالقول: "على صورة الله خلقه" وحذف عبارة "كشبهه" لم يشرِ إلى شيء سوى أن الإنسان أخذ سمو "الصورة" عند خلقه، إلاَّ أن كمال "الشبه" قد تأجل لحين استكماله.. أي أنه على الإنسان أن يسعى ليكون على ذلك الشبه عن طريق جهوده الشخصية من خلال التمثل بالله. إن احتمالية الوصول إلى الكمال قد أعطيت له في البداية من خلال سمو "الصورة"، فإنه عن طريق السلوك قد يحقق بنفسه في النهاية "الشبه" الكامل. (De princ. 3.6.1).

ولكي يستطيع الإنسان تحقيق هدفه في أن

يكون على صورة الله فهو في حاجة إلى نعمة الله إلى جانب جهده الشخصي. وأفضل طريق لتحقيق الكمال المثالي هو التمثل بالمسيح.

ب- معرفة الذات

والخطوة الأولى على طريق الكمال لمن اختيروا للتمثل بالمسيح هو معرفة الذات. ما يجب أن نفعله، وما يلزم أن نقلع عنه فيقول:

"يجب أن تؤخذ ملاحظاتنا على أنها موجهة من "كلمة الله" إلى النفس التي هي في حالة من التقدم، ولكنها لم تبلغ بعد مستوى الكمال. ونظراً لتقدمها فإنها وصفت بأنها جميلة، غير أنه لكي تضمن وصولها للكمال فإن الضرورة تفرض أن يوجه لها هذا التحذير. لأنه ما لم تحصل على معرفة الذات بالأسلوب الذي فصّلناه آنفًا. وما لم تدرب نفسها بعناية على كلمة الله والناموس الإلهي، فإن مآلها أن تجمع على هذه النقاط آراء المعلمين المختلفين، وأن تتبع رجالاً، ليس في كلامهم أي تميز، ولا يتمتعون بحضور الروح القدس.. إنه لخطر عظيم بالنسبة للنفس أن تهمل معرفة وفهم ذاتها" (In Cant. 2,143-145).

جـ- الطهارة والنقاوة

يكون من شأن معرفة الذات وفحص الضمير التوصل إلى أنه ينبغي أن نحارب الخطية، فالخطية هي التي تحول بيننا والوصول إلى الكمال. وأن نحارب الأهواء الشريرة، والعالم لأنهما من أسباب الخطية. وهو لا يعارض الزواج، ولكنه يوصي بحياة العزوبية فحسب، لمن يتمثلون بالمسيح:

"وإذا قدَّمنا له عفتنا، أي طهارة أجسادنا، يعطينا طهارة الروح... وهذا هو نذر النذير، والذي يسمو على كل نذر. لأنه حين نقدم ابنًا أو ابنة، ماشية أو ضيعة فكل هذه خارج ذواتنا. أما الذي يقدم ذاته لله ويرضيه، لا عن طريق عمل آخر. بل عن طريق الإنسان ذاته، فهذا يعد أكثر النذور كمالاً، بل وأبرزها، وذاك الذي يفعل هذا يتمثل بالمسيح".

وأوريجانوس يمدح السيد المسيح لأنه هو الذي جاء بالبتولية إلى العالم، وهو يرى فيها نموذجًا للكمال، ومع ذلك، فمن يتمثل بالمسيح عليه أيضًا الانعزال عن أقاربه وعن كل الطموحات العالمية والممتلكات. وهذا وحده يمكنه أن يفسح مكانًا لله في قلبه، وبدون ذلك لا يمكن تحقيق أي ارتقاء داخلي.

د- اعتزال العالم وممارسة النسك

الانعزال التام عن العالم، لا يمكن أن يتحقق إلاَّ من خلال ممارسة النسك لفترات طويلة. ودراسة الكتاب المقدس ليلاً ونهاراً تساعد على التركيز على الأمور الإلهية. وكان يؤكد في عظاته على فضيلة التواضع، ويحذر من الكبرياء التي هي أصل كل خطية. ويبدأ الإنسان في التقدم والارتقاء (أو النمو) الداخلي عندما يدرك أنه يعيش لفترة

محدودة فحسب على الأرض، ثم بعد ذلك عليه أن يحارب إبليس لكي يظفر بالفضيلة. ووقت التقدم دائمًا ما يكون وقت الخطر، حيث تبدأ التجارب مع الوصول إلى البحر الأحمر، وبعد عبوره بنجاح، لا تكون النفس قد تحررت بعد، لأن ثمة تجارب جديدة يجب مواجهتها. وهذه هي الآلام الداخلية للنفس، التي تصاحب كل خطوة للأمام. ولهذا السبب يشير أوريجانوس في مناسبات عديدة إلى الحاجة لمثل هذه التجارب. ومع ازدياد الصراعات تزداد تعزيات النفس. وتزداد اشتياقاتها للسماويات وللمسيح، بحيث تمكنها من اجتياز كل الضيقات.. وتتلقى النفس موهبة الرؤى.. وتتكون من الاستنارة في الصلاة ومن قراءة الكتاب المقدس، والتي تكشف عن أسرار إلهية. وثمة ازدياد ثابت من هذه النعم الروحية، كلما سمت الروح حتى تصل إلى جبل تابور:

"ومع ذلك ليس كل من لديهم بصيرة يستنيرون بالمسيح بدرجة متساوية، فاستنارة كل إنسان تكون بقدر ما يمكن أن يتلقى من قوة النور، فحتى عيوننا الجسدية لا تتلقى نور الشمس بقدر متساوٍ، غير أنه كلما ارتفعت المستويات التي يصل إليها الإنسان، وكلما علت النقطة التي يرقب منها مشهد شروق الشمس، زاد شعور الإنسان بقوة نور الشمس وحرارتها. هكذا الحال أيضًا لروحنا، فكلما ارتفعت وسمت وتقدمت في اتجاهها نحو المسيح وزاد اقترابها من مجد نوره، زادت روعة استنارتها النهائية ببهائه.. وإذا ما تقدم إنسان إلى الدرجة التي تمكنه من الصعود معه إلى الجبل، كما فعل بطرس ويعقوب ويوحنا، فسوف لا ينال استنارة نور المسيح فحسب، بل أيضًا الاستنارة الناجمة عن صوت الآب نفسه (Gen. hom.1,7).

والغرض من هذه الرؤى تشديد النفس لمواجهة الضيقات المستقبلية. فهي واحات في صحراء المتاعب والتجارب. وقد حذَّر أوريجانوس من الاهتمام البالغ بالتجارب السعيدة. لأنها قد تأتي من الشيطان. (Num. hom 27,11).

هـ- الاتحاد السري باللوجوس

الخطوة التالية هي اتحاد النفس السري مع اللوجوس. فهو يتحدث أولاً عن ميلاد المسيح ونموه في قلب الإنسان التقي. إلاَّ أنه يفضل التعبير عن العلاقة القائمة بين النفس واللوجوس في شكل ارتباط سري. وقد امتزج التأمل الصوفي عن اللوجوس -عند أوريجانوس- بالتأمل الصوفي العميق في الصليب والمصلوب. فالإنسان الكامل لابد وأن يتبع المسيح في آلامه، بل وحتى الصليب. والشهيد هو التلميذ الحقيقي للمخلص، كما ذكر ذلك في كتابه "نصائح عن الاستشهاد". وبالنسبة لأولئك الذين يريدون أن يتمثلوا بالمسيح، ولا يستطيعون احتمال الاستشهاد الحقيقي، فلا يتبقى أمامهم سوى الموت الروحي عن الشهوات، وإنكار

الذات. والناسك والشهيد لكل منهما نفس المثل أي كمال المسيح. وقد تبنى أفكار ومعتقدات أوريجانوس الكتَّاب من الرهبان الأوائل، وأثره على تطور الحياة الرهبانية بعد ذلك، كان أثرًا مستمرًا له أهميته. (كواستن: المجلد الثاني).

✢✢✢✢

٥- ياراكلاس

أسقف الإسكندرية، والبابا الثالث عشر. عاش ياراكلاس (اركلاس أو هيراكلاس) Heraclas وامتد به العمر إلى أن بلغ ٩٠ سنة، مغطيًا الجزء الأكبر من القرن الثالث وجزءًا من القرن الرابع. ويذكر كروزل أنه أخ بلوتارك (موسوعة الكنيسة الأولى). عاش بالقرب من مدينة "الأسد" في دلتا النيل. استخدم اللغتين اليونانية والقبطية في سهولة. لذا فمن المحتمل أنه يكون مصريًا من عائلة كريمة ذات أصل أممي. كان أحد تلاميذ العلاَّمة أوريجانوس المشهورين، وبعد ذلك صار مساعدًا ثم خليفة له في رئاسته لمدرسة الإسكندرية، عندما لجأ أوريجانوس إلى فلسطين.

تُظهر معرفته الجيدة بالقبطية أنه كان على اتصال بتجمعات الناسكين الموجودين حول مدينته في الأماكن الخلوية. وسلوكه في حياة الرهبنة، ربما يكون أسبق لا فقط للأنبا أنطونيوس بل بولس الطيبي أيضًا.

كان علمه غزيرًا بدرجة كبيرة جدًا. فكان ملمًا بالكثير من العلوم اليونانية والمصرية، وعلى وجه الخصوص الطب. تفوق أيضًا في جمال خط اليد. وصفه المؤرخ يوسابيوس بأنه "كرس حياته لدراسة الكتاب المقدس، وهو أحد الرجال المتعلمين العظماء ولا يجهل الفلسفة".

كتب ياراكلاس سلسلة من الكتب عن الأسفار المقدسة باليونانية والقبطية، لم يتبقَ منها اليوم حتى عناوينها. وكتب في موضوعات أخرى مثل سر الزواج وعن الروح القدس. كما كتب "مزامير حديثة كثيرة"، وأشعار مسيحية كان تلاميذه وتابعيه يستخدمونها في اجتماعات العبادة.

اختير في عام ٢٢٤م خليفة للقديس ديمتريوس بابا الإسكندرية. وكانت تلك الفترة التي أصبح فيها بابا الإسكندرية لها أهمية خاصة، فقد احتمل الاضطهاد، وكان يفتقد المدن والقرى في أنحاء البلاد يشدد المؤمنين. وقيل إن البابا حثَّ العلاَّمة أوريجانوس أن يعود إلى الإسكندرية إلاَّ أن الأخير اعتذر بأن مدرسة الإسكندرية قد استقرت وأن مدرسة قيصرية (بفلسطين) تحتاج إلى رعايته.

استطاع البابا ياراكلاس أن يجذب إلى الإيمان المسيحي المؤرخ المعروف يوليوس أفريكانوس (أو أفريقانوس) -وهو كاتب تاريخ العالم حتى عام ٢٢١م- في أثناء زيارته للإسكندرية.

كان ياراكلاس شديد الحدة، ربما لتأثره

بالاتجاهات النسكية. فهو يرى أن اقتناء فضيلة ضبط النفس، يتطلب فرض أصوام شديدة والامتناع عن الزواج. يبدو أن آراءه عن ضبط النفس لا تتفق مع ضبط النفس الكتابي، إذ يبدو أنها تتفق وبدعة الثنائية في تكوين الإنسان (وهي التي تقول إن الإنسان يتكون من جسد مادي شرير، وروح غير مادية خيِّرة).

على كل حال يربط يراكلاس ضبط النفس بمفهوم أوريجانوس عن الأشياء المادية، وهذا المفهوم يختلف عن المفاهيم الأخرى، إذ يرفض الإيمان بقيامة الأجساد وانحصارها في قيامة الروح فحسب، وأيضًا في رفض فكرة الفردوس المحسوس.

لم يتبع يراكلاس تعليم أوريجانوس عن الثالوث، فلم يؤمن بالخضوع أو تابعية الابن للآب. لكنه سقط في بدعة أخرى، وهي أن الروح القدس ظهر للكي صادق ملك ساليم في العهد القديم.

ومن بين آرائه أيضًا يرى أن الأطفال حتى الذين اعتمدوا ليس من المؤكد أن يفوزوا بالحياة الأبدية، إذا ماتوا قبل أن يكتسبوا القدرة على التفكير وبالتالي المقدرة على الجهاد. ويجد البعض في تفسير هذا الرأي أنه يعبر عن اعتقاده الشخصي بالوجود السابق للنفوس.

دُعى الرهبان التابعين له وأتباعه الآخرين اليراكيين، وقد انتقدهم بشدة أبيفانيوس -وغيره- وقد خصص لهم أبيفانيوس فصلاً كاملاً في الرد عليهم.

ويذكر كروزل أنه عند استشهاد يراكلاس أن أوريجانوس كان قريباً منه لحظة استشهاده.

(موسوعة الكنيسة الأولى).

✢✢✢✢

٦- ديونيسيوس

أ- أسقفًا للإسكندرية

ب- اهتداؤه إلى الإيمان

جـ- يغادر الإسكندرية

د- كتاباته

أ- أسقفًا للإسكندرية

ولد القديس ديونيسيوس (Dionysius) بالإسكندرية في نحو عام ١٩٠م، من أبوين وثنيين غنيين. كان والده من أتباع مذهب الصابئة يعبد الكواكب. وكان ديونيسيوس قبل التحاقه بالإكليروس يعمل طبيبًا، وكان يحظى بمكانة اجتماعية رفيعة. وانتخب أسقفًا في نحو سنة ٢٤٧ أو ٢٤٨م. ويؤكد المؤرخ يوسابيوس القيصري على أنه كان تلميذًا لأوريجانوس. فلدى مغادرة أوريجانوس للإسكندرية تبعه يراكلاس Heraclas رئيساً لمدرسة اللاهوت. ثم عقب وفاة الأسقف ديمتريوس أصبح أسقفًا للإسكندرية، وخلفه في

كلا المركزين، ديونسيوس (٢٤٨-٢٦٥م). (موسوعة الكنيسة الأولى. مرجع سابق، ويوسابيوس- تاريخ الكنيسة- مرجع سابق).

خلع القديس أثناسيوس على ديونيسيوس لقب "معلم الكنيسة الجامعة"، كما دُعي: "ديونيسيوس الكبير" بسبب ما عاناه من ضيقات محتملاً ذلك في شجاعة وثبات، ولغيرته على الكنيسة لا على المستوى المحلي فحسب، بل على المستوى المسكوني أيضًا.

ب- اهتداؤه إلى الإيمان

يبدو أنه اهتدى إلى الإيمان نتيجة قراءاته الواسعة، وبحثه عن الحقيقة، ذلك أنه كتب في رسالة إلى فليمون القس الروماني ما يلي:

"أما بالنسبة لي، فقد قرأت كتابات الهراطقة، وتقاليدهم ودنست عقلي لفترة وجيزة بأفكارهم البغيضة، ومع ذلك فإنني اكتسبت منهم ميزة وهي إنني استطعت أن أفند أفكارهم بنفسي، وقد ازددت لهم كرهًا". والواقع أن أحد الإخوة وكان من الشيوخ حاول إثنائي خشية أني قد أنغمس في حمأة قذارة شرهم، وكان يقول ذلك عن إخلاص، وهذا ما توسمته فيه. غير أن رؤيا من قبل الله شددتني، وصدر إليَّ الأمر بكل وضوح: اقرأ كل ما يمكن أن تصل إليه يدك. لأنك تستطيع أن تمحص كل شيء وتمتحنه، فإن هذه العطية هي سبب إيمانك منذ البداية" (كواستن، ويوسابيوس تاريخ الكنيسة ٧:٧:١-٣).

جـ- يغادر الإسكندرية

كانت رسالة البابا ديونيسيوس صعبة آنذاك، ألا وهي الحفاظ على الكنيسة وسط موجات مستمرة من الاضطهادات. ففي عام ٢٥٠م بدأ اضطهاد ديسيوس (أو دكيوس) Decius للكنيسة، ويتضح ذلك من رسالة أرسلها البابا إلى ديمتريوس وديديموس، وكذلك من رسالته إلى فابيوس أسقف أنطاكية، وفيها يذكر شهداء من رجال ونساء، صغار، وكبار، عذارى، وأمهات، جنود وشرفاء جُلدوا وماتوا بالنار والسيف. وإن كان البابا نفسه لم يستشهد، وكان في اعتقاده أن السيد المسيح قد حفظه إلى زمن آخر. (يوسابيوس ٢:٧).

وعندما هرب من رجال الوالي، واتهم عندئذ بالجبن كتب في رسالة له إلى أحد أساقفة الأقاليم يدعى جرمانيوس يدافع فيها عن نفسه قائلاً: "أتحدث كمن هو في حضرة الله، إنه يعلم أني لا أكذب، إنني لم أهرب بدافع من نفسي، أو بدون إرشاد إلهي، وحتى قبل هذا، وفي نفس الساعة التي بدأ فيها ديسيوس اضطهاده أرسل جنديًا يبحث عني. وكنت في الدار أربعة أيام أنتظر قدومه، لكنه تجوَّل يبحث عني في كل موضع ظن أني مختبيء فيه. ولم يتصوَّر أني أبقى في الدار في الوقت الذي فيه يجري البحث عني. وبعد أربعة

أيام أمرني الله أن أغادر الدار مع جمع من الإخوة. أما كون هذا قد تم بعناية إلهية فواضح مما حدث بعد ذلك إذ ربما كنت نافعًا لبعض الأشخاص" (يوسابيوس ٦:٤٠:١-٣).

أخيرًا قبض الجند عليه وعلى من كانوا معه وأرسلوه إلى السجن، وإذ سمع المسيحيون بذلك انطلقوا إلى السجن، ولما رآهم الجند هربوا تاركين الأبواب مفتوحة، فأخرج المؤمنون البابا من هناك.

وفي عام ٢٥٧م حدث أيضًا اضطهاد أثاره الامبراطور ڤاليريان فاستدعى الوالي البابا ديونيسيوس مع بعض الكهنة والشمامسة، وطلب إليه أن يترك عمله. فأجابه البابا: "ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس، فنفاه إلى قرية صحراوية تسمى خفرو. وهناك استطاع أن يبشر بين الوثنيين، مما جعل الوالي ينفيه إلى صحراء ليبيا. وهناك أيضًا استمر عمله الكرازي بين الوثنيين. بل وأجهد نفسه في خدمة كنيسته بالإسكندرية (بالرسائل) ليحفظ الخدمة هناك. (ج. و. وند: تاريخ الكنيسة الأولى وحتى عام ٥٠٠م: ص ٦١). أيضًا حدثت في عهده اضطرابات أخرى إذ هوجمت مدينة الإسكندرية من الجنوب بواسطة قبائل بربرية.

كذلك أعلن والي مصر اميليونس (Aemilionus) نفسه امبراطورًا في الإسكندرية ، فنشبت لذلك حرب مدنية (أهلية) انتهت بأن أسره القائد الروماني ثيؤدوسيوس. وفي هذه الحرب دُمرت المدينة، وحلَّت مجاعة شديدة، وانتشرت أوبئة كثيرة وقد تحدث البابا عن هذه الاضطرابات في رسالته الفصحية الدورية في عام ٢٦٣م جاء فيها: "قد يبدو أن الوقت غير مناسب للعيد فنحن لا نرى إلاَّ الدموع. الكل ينوح، والعويل يُسمع كل يوم في المدينة بسبب كثرة الموتى. لقد حلَّت الحرب وحدثت المجاعة، الأمرين اللذين تحملناهما سويًا مع الوثنيين.. لكننا فرحنا بسلام المسيح الذي وُهب لنا نحن وحدنا" (يوسابيوس ٧:٢٢).

كان البابا ديونيسيوس يواجه مشكلة المرتدين في أعقاب كل اضطهاد. وكان يضمهم إلى الكنيسة، وكان يمنع -غالبًا- إعادة معموديتهم، حتى الهراطقة والمنشقين ممن عادوا إلى الإيمان.

كان يتمتع ديونيسيوس بالمعرفة والعلم إلى جانب اعتداله مما جعله موضع تقدير من حوله. وطلبوا منه أن يتدخل في كل الصراعات الهامة التي ثارت في الكنيسة في أيامه. فقد توسط في النزاعات التالية:

أ- توسط في النزاع الحاد الذي قام بين (كبريانوس) أسقف قرطاجنة و(اسطفانوس) أسقف روما، وذلك بسبب معمودية الهراطقة. فكبريانوس يرى أن معمودية المنشقين والهراطقة باطلة، لأنهم خارج الكنيسة، ولا خلاص خارج الكنيسة، وبالتالي يجب إعادة المعمودية التي تمت بيد الهراطقة. أما اسطفانوس فقد رأى أن كل

معمودية تتم باسم الثالوث القدوس صحيحة حتى إن تمت بيد هراطقة. لهذا فلا تعاد معمودية الراجعين إلى الكنيسة من الهراطقة. إنما يكتفي بوضع الأيدي والصلاة عليهم. وقد ساعد على زيادة حدة هذه المشكلة ظهور بدعتين. بدعة نوفاتيانوس الأسقف الروماني الدخيل القائل بعدم قبول توبة جاحدي الإيمان ووجوب إخراج الذين تعمدوا بيد الهراطقة من الكنيسة، بل وعماد الذين تساهلوا في قبول الهراطقة التائبين.

وبدعة فيلوكسينوس الذي علّم بالصفح عن الذين أنكروا الإيمان بمجرد شفاعة المعترفين عنهم.

وقد خاطب استفانوس أسقف روما فرمليانوس أسقف قيصرية كبّادوكية. وإذ لم يستجب الأخير لطلبه عقد استفانوس مجمعًا في عام ٢٥٤م قطع فيه فرمليانوس ومن وافقه من أساقفة كيليكية وغلاطية، ثم هدد كبريانوس أسقف قرطاجنة بالقطع. أما كبريانوس فبدوره عقد مجمعًا حكم فيه بضرورة عماد الهراطقة ومن تعمّد على أيديهم. وبعث مع أساقفة أفريقيا رسالة أخوية إلى الأسقف استفانوس يدعونه للاتحاد معهم، فلم يقابل حاملي الرسالة، بل وبعث إليهم برسالة يلقب فيها كبريانوس "بالرسول الغاش والنبي الكذاب"، ورد كبريانوس من جانبه برسالة إلى أساقفة أفريقيا يقول فيها عن اسطفانوس أنه "صديق الهراطقة وعدو المسيحيين".

وكاد الشقاق يتزايد ويستفحل لولا تدخل البابا ديونيسيوس السكندري فكتب رسالة إلى الأسقف الروماني استفانوس يظهر فيها توحد الكنائس في الشرق، وأن الكل متفقون في الرأي بفرح، وطلب إليه ألا يسبب شقاقًا. وكان ديونيسيوس يشارك استفانوس في الرأي، إلاَّ أنه لم يكن يشاركه عنفه وحدته ولا محاولة فرض رأيه على الجميع. فإنه كان قد قرر ألا يعيد معمودية الهراطقة والمنشقين، إلاَّ أنه يجب ألا يقطع علاقته بالكنائس الأخرى التي تعيد المعمودية حاسبًا أن الأمر يترك لكل كنيسة (كبريانوس: الرسالة: ٧٥).

غير أن الكنيسة في الشرق والغرب استقرت فيما بعد- على رأي كبريانوس، أي اعتبار معمودية الهراطقة والمنشقين غير قائمة وذلك في مجمع نيقية المسكوني الأول.

ذكر القمص مرقس داود في حشايا ترجمته لكتاب تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري أن ديونيسيوس قد سجن أثناء اضطهاد ديسيوس، ونفى في اضطهاد ڤاليريان، ولكنه عاد مرة أخرى إلى الإسكندرية في عهد جالينوس.

ب- مع نيبوس أسقف أرسينوي

(راجع بند د- كتاباته ١- "عن الوعود")

جـ- مع الهرطوقي سابيليوس أسقف بطوليمايس

تتلمذ سابيليوس على يد نويتوس الهرطوقي،

وكان أسقفًا على بطوليمايس (ميناء يتبع المدن الخمس الغربية بليبيا). أخذ سابيليوس عن نويتوس أن الله أقنوم واحد، أعطى لبني إسرائيل الناموس في العهد القديم بصفته الآب، وصار إنسانًا في العهد الجديد بصفته الابن. وحلَّ في الحاضر على الرسل في عُلية صهيون بصفته الروح القدس. (راجع الفصل الخاص بالهرطقات، وكنيسة سورية بالجزء الثالث من الموسوعة).

قاوم البابا ديونيسيوس هذا الضلال وحرم سابيليوس في مجمع عقده بالإسكندرية في عام ٢٦١م. بعد أن فنَّد تعاليمه المضلة. فالتجأ أتباع باسيليوس إلى الأسقف الروماني ديونيسيوس الذي كان شابًا قليل الخبرة فعقد مجمعًا حرم فيه بابا الإسكندرية. فبعث البابا برسالة له أوضح فيها ما عسر على فهم الأسقف الروماني، فاستراح الأخير إليها. ومقت هذه الرسالة على ما يسميه المؤرخون "نزاع الديونيسيين". بل وقد عاون البابا الروماني فيما بعد بابا الإسكندرية في دحض بدعة بولس السميساطي (أو الساموساطي) أسقف أنطاكية.

- بولس السميساطي (الساموساطي)

ينسب بولس إلى ساموساطا Samosata بلدة في سورية. وكان يشغل فيما بين عامي ٢٦٠-٢٧٠م مكانة رفيعة في أثناء حكم الملكة زنوبيا ملكة بالميرا- كان ينوب عنها. كما كان أسقف كنيسة أنطاكية. ويرى م. سيمونيتي M. Simonetti أن سلوك بولس هذا كان يجاري عمله العام بأكثر مما يتفق ومنصبه الكنسي. ولم تلقَ تعاليمه القبول بل رفضتها الكنيسة. ولم تُجد معه محاولات عديدة لإثنائه عن تعاليمه التي لا تتفق وتعاليم الكنيسة. وعبثًا حاول مجمع أنطاكية (أو ربما مجمعان)، الذي عُقد بدعوة أساقفة المدن المجاورة، رده إلى العقيدة القويمة. ولكن أدانه بالهرطقة مجمع أنطاكية الذي عقد في سنة ٢٦٨م. وقد حدثت مناظرة بين الأسقف بولس والكاهن مَلكيون Malchion، وقد عزل المجمع الأسقف بولس من منصبه الكنسي. وقد شكَّل أتباعه طائفة، كانت لا تزال قائمة حتى مجمع نيقية ٣٢٥م. غير أنها كانت أقل أهمية.

إن ما كتبه يوسابيوس عن تعليم بولس الساموساطي لم يكن واضحًا. وقد جاء في حواشي تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري- ترجمة القمص مرقس داود أن بولس السميساطي أعاد بدعة أرتيمون والتي تقول بأن المسيح لم يكن إلاَّ إنسان، ولكنه ممتلىء بقوة إلهية من وقت ميلاده، لا من وقت معموديته فحسب (كما كان يدَّعي الإبيونيون). وقال إن الابن ولد من الروح القدس. وقد أنكر أقنوم "الكلمة" كما أنكر أقنوم "الروح القدس"، واعتبرهما مجرد قوتين في الله (كقوتي العقل والتفكير في الإنسان). إلاَّ أنه كان يعتقد أن "الكلمة" حَلَّ في المسيح بقدر أكبر مما

حلَّ في الرسل والأنبياء السابقين. وأن المسيح صار "مُخَلِّصا للجنس البشري لأنه لم يقترف خطية، ولأنه تغلب على خطية أجدادنا.

وحال مرض ديونيسيوس بينه وبين حضور مجمع أنطاكية الذي عقد في نحو سنة ٢٦٥م، وقد توفى في نحو ذلكم التاريخ. وقد خلعت عليه الأجيال لقب "ديونيسيوس الكبير" لشجاعته وثباته في المعارك والمتاعب التي صادفته في حياته. وكان من رجال الكنيسة البارزين. وقد وصل نفوذه بعيدًا خارج حدود أبروشيته. وتبين الرسائل التي كتبها الدور الحيوي الذي قام به في جميع المجادلات العقيدية في ذلكم الوقت. وكان كاتبًا لعدد كبير من الكتابات التي تعالج مسائل عملية وأخرى تتعلق بالعقيدة. ومما يؤسف له أنه لم تتبق من أعماله العديدة سوى شذرات صغيرة، ومعظمها حفظها يوسابيوس الذي خصص له الكتاب السابع من تاريخ الكنيسة.

د- كتاباته

كتب البابا ديونيسيوس الإسكندري (١٩٠-٢٦٨م) الكثير لكن للأسف لم يتبق منها إلاَّ شذرات حفظت في كتابات يوسابيوس وأثناسيوس وغيرهما. وكما يقول "نيل" Neale: "فقدان كتابات ديونيسيوس هي إحدى الخسائر العظمى التي لحقت بالتاريخ الكنسي" (Holy Eastern Church, Vol I. p. 84). ويتجه في كتاباته إلى الجانب العملي مع أسئلة خاصة بالتعليم. ورسائله تظهر أنه قام بدور إيجابي في المناقشات العقيدية في عصره (كواستن جـ١ صـ ١٠٢ مرجع سابق).

١- *"عن الوعود"*

صدر لديونيسيوس كتابان يحملان عنوان "عن الوعود" أو "المواعيد". ويذكر يوسابيوس أن ديونيسيوس كتبهما للرد على تعليم نيبوس Nepos، وهو أسقف أرسينوى (الفيوم حاليًا)، كان يقول بأن الوعود التي قطعت للقديسين يجب تفسيرها على نهج مصطبغ أكثر بالصبغة اليهودية، وافترض أن ثمة نوعًا من الحكم الألفي على الأرض يكرس للانغماس في الشهوات الجسدية. معتقدًا -على سبيل المثال- أنه يقيم رأيه استنادًا إلى ما جاء في سفر رؤيا يوحنا، ولذلك كتب كتابًا اتخذ له عنوانًا: "دحض أقوال المجازيين". وقد هاجمه ديونيسيوس في كتابيه الصادرين بعنوان "عن الوعود"، ذلك أنه في الكتاب الأول يعرض رأيه الخاص فيما يتعلق بهذا التعليم، وفي الكتاب الثاني يتناول "رؤيا يوحنا اللاهوتي".

وكان الأسقف نيبوس أسقفًا على أرسينوي Arsinoe. وقد استخدم رؤيا يوحنا اللاهوتي لتكوين آرائه الخاصة بالحكم الألفي حيث رفض شرح أوريجانوس المجازي. وقد حقق هذا الكتاب نجاحًا عظيمًا، حتى بعد موت نيبوس، ولذلك نتجت عن هذا الكتاب انقسامات كما ارتدت كنائس

بكاملها. مما دعا ديونيسيوس للتوجه إلى أرسينوي ومكث هناك ثلاثة أيام متتالية محاولاً تصحيح ما كُتب، وفي النهاية أقنع ديونيسيوس راعي هذه الحركة وقائدها كوراسيون Coracion على ألا يتمسك بها بعد لأنه اقتنع بالحجج التي سيقت ضدها. ثم بعد عودته إلى الإسكندرية أراد أن يواصل تلك المناقشة والجدل بكتابيه "عن الوعود. ومن المثير أنه في دحضه لأفكار نيبوس أنكر أن الرسول يوحنا هو كاتب سفر الرؤيا المعروف باسمه!

٢- عن الطبيعة

تبين الاقتباسات التي ضمنها يوسابيوس في مؤلفه "إعداد للإنجيل" أن ديونيسيوس كان على معرفة جيدة بالفلسفة اليونانية، وكان كاتبًا مقتدراً. وفي كتابه "عن الطبيعة"، الذي كتبه في شكل رسائل أرسلها لشاب اسمه تيموثاوس، يفند مادية الأبيقوريين القائمة على نظرية الذرات لديموقريطس. وأسلوبه في هذا الكتاب يشهد بأسلوب مقنع جداً لنظام الكون والعناية الإلهية، وذلك ضد التفسير المادي للعالم.

٣- دحض ودفاع

يخبرنا المؤرخ يوسابيوس القيصري أن هذا الكتاب الذي صدر في أربعة أجزاء موجه إلى سميه في روما، البابا ديونيسيوس (٢٥٩-٢٦٨م). وكان بابا روما قد دعا أسقف الإسكندرية لكي يشرح عقيدته في تعليم الثالوث القدوس، فأجاب ديونيسيوس على ذلك بكتابه "دحض ودفاع"، وقد أوضح فيه التعليم القويم. ويبدو أن إيضاحاته أزالت شكوك روما. ولم يتبق من ذلكم الكتاب سوى شذرات في كتابات يوسابيوس وأثناسيوس.

٤- رسائل

كانت رسائله مصدراً هامًا لتاريخ حياته وللفترة التي عاش فيها. ولهذا السبب كان يوسابيوس يستخدمها كثيراً في كتابه "تاريخ الكنيسة". ولا توجد من بين رسائله سوى اثنتين بكاملهما. أما بالنسبة لبقيتها فلا توجد سوى بضعة شذرات منها. ومع ذلك، فإنها تشير إلى التأثير الواسع النطاق للكاتب، والتنوع العظيم لاهتماماته.

أ- الرسالة إلى نوفاتيان

إن الانشقاق الذي أحدثه نوفاتيان حفَّز ديونيسيوس على كتابة عدة رسائل، ناشد فيها نوفاتيان وأتباعه العودة إلى القطيع وطلب من السلطات اتخاذ قرارات معتدلة لأولئك المنشقين إبان اضطهاد ديسيوس. وثمة رسالة قصيرة وجهها إلى نوفاتيان، البابا الزائف، محفوظة بكاملها وتستحق أن نوردها فيما يلي:

ديونيسيوس إلى نوفاتيان.. تحية

إذا كنت قد اقتُدت بدون رغبتك كما تقول،

فبمقدورك إثبات ذلك بعودتك برغبتك. ذلك أنه ينبغي على الإنسان أن يحتمل أي شيء، وكل شيء، وألا يُحدث انقساماً في كنيسة الله، والاستشهاد في سبيل تجنب الانقسام ليس أقل مجداً من تجنب الوثنية، بل يفوقه في رأيي. لأنه في بعض الحالات يستشهد الإنسان في سبيل نفسه فقط، غير أنه في الحالات الأخرى يستشهد من أجل الكنيسة كلها. وإذا قمت الآن بإقناع الإخوة على الاجتماع على رأي واحد، فإن عودتك تكون أعظم من سقطتك، ولن تحاسب على إحداها لكنك ستكافأ عن الأخرى. غير أنهم إذا لم يطيعوك، ولم يكن لك سلطان عليهم، فيتوجب عليك أن تنقذ نفسك بأي وجه كان. وأصلي إلى الله لكي يكون النجاح حليفك، وأن تخلص.

سلام لك في الرب،

ب- الرسالة إلى باسيليوس

الرسالة الأخرى التي بقيت بكاملها هي إحدى رسائله إلى باسيليوس أسقف بنتابوليس Penta Polis (وهي المدن الخمس الغربية وتوجد بليبيا). وهي ترد على عدة أسئلة سبق أن وجهها الأسقف إلى ديونيسيوس تتعلق بمدة الصوم الكبير، وأسئلة أخرى. وهذه الرسالة محفوظة في مجموعة "رسائل كنسية قانونية" للكنيسة اليونانية والتي تشكل أحد مصادر الشريعة الشرقية.

جـ- الرسالة إلى فابيوس

هذه الرسالة الموجهة إلى فابيوس Fabius أسقف أنطاكية، على الرغم من أنه لم يتبق منها سوى مقتطفات في كتابات يوسابيوس، إلاَّ أن لها أهمية خاصة بالنسبة لتاريخ الكفارة والقربان المقدس. ويتناول ديونيسيوس في هذه الرسالة المشكلة الخاصة بالغفران بعد الارتداد أثناء الاضطهاد.

د- رسائل بخصوص الأعياد

كان من عادة أساقفة الإسكندرية حتى القرن التاسع أن يرسلوا كل سنة إعلانات لجميع كنائس مصر عن تاريخ عيد القيامة وبداية الصوم الذي يسبقه. وكان هذا يتم في صيغة رسالة رعوية تحث الكنيسة على مراعاة الصوم الكبير وعيد القيامة بكل عناية. وعرف عن ديونيسيوس السكندري أنه أول أسقف بعث بمثل هذه الرسالة.

وإلى جانب رسائل ديونيسيوس التي سبق ذكرها، كتب في ذلك الحين أيضاً الرسائل المتعلقة بالأعياد والتي لا تزال باقية، ويذكر فيها عبارات تتناسب بنوع خاص مع مناسبة جليلة مثل عيد القيامة. ومن بين هذه الرسائل أرسلت واحدة إلى جلاقيوس، وأخرى إلى دوميتيوس، وديديموس، أوضح فيها أيضاً الأوقات التي ينبغي فيها الاحتفال بعيد القيامة. غير أنه لم يتبق من هذه

الرسائل سوى بعض الشذرات فقط. وقد انتهز ديونيسيوس الفرصة لمناقشة الموضوعات الكنسية الهامة في ذلك الحين.

هـ- رسائل أخرى

ثمة رسائل أخرى عديدة يذكرها يوسابيوس القيصري في كتابه تاريخ الكنيسة منها رسالة كتبها ديونيسيوس ضد سابيليوس ورسالة إلى أمون، أسقف كنيسة برنيكي، وأخرى إلى تلسفورس، وواحدة إلى يوفرانور، وأخرى إلى أمون ويوفورس وزيستوس أسقف روما. (راجع يوسابيوس: تاريخ الكنيسة ٧: ٢٦:١).

✢✢✢✢

٧- ثيوناس

ثيوناس Theonas (أو ثيؤناس) أسقف الإسكندرية (البابا ١٦)، خلف مكسيموس Maximus على كرسي الإسكندرية في الفترة من نحو ٢٨١ أو ٢٨٢م-٣٠٠م، وقد عيَّن أكيلا Achillas رئيسًا لمدرسة الإسكندرية، ورسم كلاً من بطرس الذي خلفه وبيريوس (يوسابيوس- تاريخ الكنيسة ٣٢:٣٠) ويذكر إ. برنزڤالِّي E. Prinzivalli عن الرسالة التي قيل إنها حملت اسمه إلى كل من الامبراطور دقلديانوس ولوقيانوس أنها محض زيف (موسوعة الكنيسة الأولى- مرجع سابق). واشتهر بتشييده كنيسة فخمة على اسم السيدة العذراء بالإسكندرية.

كتاباته:

له رسالة باللاتينية إلى شخصًا يسمى لوكيانسوس ومذكورة في باترولوچيا ميني مجلد (١٠) صفحات ١٥٧٤-١٥٦٧ . ويذكر كتاب تاريخ البطاركة أنه قد كرس قبله شخص اسمه ببنودة استمر ستة أشهر، عقد ضده مجمعًا وأسقطه لكونه قد خصى نفسه. (الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة ج ١ الأنبا إيسيذيروس).

✢✢✢✢

٨- فيلياس الأسقف والشهيد

وصفه المؤرخ يوسابيوس القيصري في كتابه بأنه "رجل اشتهر بمحبته لوطنه، وبالخدمات التي أداها لبلاده، وبمعرفته بالعلوم الفلسفية" (تاريخ الكنيسة ٨:٩:٧).

كان القديس فيلياس (Phileas) أسقفًا في أوائل القرن الرابع على تمويس أو تمويه (Thmuis) وهي قرية تمى الأمديد (مركز السنبلاوين). ونحن نعرف عن ظروف استشهاده من الرسالة التي أرسلها لأبروشيته عن حادثة القبض عليه و إيداعه السجن وعن العذابات التي لاقاها الشهداء الإسكندريون، وقد ذكر يوسابيوس المؤرخ تلك الرسالة في كتابه (تاريخ الكنيسة ٨:١٠:٢-١٠).

قبض عليه وأودع السجون -نحو خمس مرات- في أعقاب اضطهاد دقلديانوس بقليل في سنة ٣٠٤م وفي السجن كتب آراءه في موضوع مسامحة المرتدين وأرسلها إلى البابا بطرس. واستشهد بعد ذلك بفترة قصيرة في ٤ فبراير سنة ٣٠٦م. في عهد والي مصر كلافديوس كولكيانوس Culcianus. وكانت مقاومته لإنكار الإيمان قوية، كما كان رفض الاعتراف بآلهة المضَطَهِدِين عظيماً أيضاً.

كتاباته:

نعرف نصين لفيلياس في شكل رسائل في باترولوچيا ميني مجلد ١٠ .

النص الأول: رسالة إلى رعيته عن شهداء الإسكندرية ويذكر منها يوسابيوس أجزاءً كثيرة في كتابه تاريخ الكنيسة. ويصف فيلياس في هذه الرسالة العذابات الوحشية غير الإنسانية التي يتعرض لها الشهداء.. ونقتبس من هذه الرسالة بعض العبارات التالية:

- "إن الشهداء المباركين الذين كانوا معنا، إذ كانت أمامهم كل هذه الأمثلة، والنماذج المباركة المعطاة لنا في الأسفار المقدسة لم يترددوا مطلقًا، بل ثبَّتوا أعين نفوسهم بإخلاص نحو الله العلي، وإذ ركَّزوا تفكيرهم في الموت من أجل المسيحية، ثبتوا في دعوتهم في عزم وصبر".

- "وإذا كان هؤلاء الشهداء حاملو المسيح غيورين أيضًا للمواهب الأفضل تحملوا كل المحن وكل أنواع المؤامرات والتعذيب لا مرة واحدة فقط، بل بعضهم مرتين، ولا بالكلام فقط بل بالأعمال".

- "ولما كانوا يؤمرون بأن يختاروا إما الإعفاء من التعذيب إن لمسوا الذبائح الدنسة، وبذا ينالون منهم الحرية اللعينة، أو الحكم عليهم بالموت إن رفضوا أن يذبحوا، فإنهم كانوا لا يترددون، بل كانوا يسارعون إلى الموت في ابتهاج.. لقد عرفوا أن ربنا يسوع المسيح تأنَّى من أجلنا لكي يقطع كل خطية، ويمدنا بوسائط دخول الحياة الأبدية".

النص الثاني: وهي الرسالة المرسلة إلي ميليتوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط)، وقد كتبها أربعة من الأساقفة المصريين: اسيخيوس، باخوميوس (أب الشركة)، ثيودوروس (تلميذه) وفيلياس، وهم يوجهونها إلى ميليتوس لكي يعبروا عن عدم موافقتهم له على عمله الجائر. حيث قام بجمع حشود ورسم كهنة في أماكن ليست تابعة له. ومن الواضح أنها كتبت ممن وضع اسمه، لسبب التواضع، في آخر الأسماء، أي فيلياس.

يرجع زمن الكتابة إلى فترة سجنه الأخيرة أي في سنة ٣٠٤م.

بقيت الرسالة باللاتينية، وفي نصها الأصلي أضاف ملحوظة هامة جداً وهي أن ميليتوس لم

يضع في اعتباره توصيات الأساقفة الأربعة". نفس الأمر الذي ذكر في رسالة بطرس الإسكندري فيما بعد. (باترولوچياميني مجلد ١٠).

✣✣✣✣

٩- أمونيوس

- من هو؟
- أعماله

من هو؟

يبدو أن أمونيوس Ammonius كان معاصراً لأوريجانوس. وقد عرَّفه يوسابيوس بطريق الخطأ- كما يرى كواستن- بأنه أمونيوس سكاس Saccas من شيعة الأفلاطونية، وقد كرر چيروم نفس الخطأ. غير أن "سكاس"- وتعني "حمَّالاً" كما يقول س. ليلاَّ S. Lilla في موسوعة الكنيسة الأولى أنها كلمة مقحمة أضيفت للعديد من الأسماء.

أعماله

وقد كتب أمونيوس كتاباً بعنوان "تناغم بين موسى والمسيح"، لعله كتبه بُغية إثبات وحدة العهدين القديم والجديد، الأمر الذي ينكره كثيرون من شيعة الغنوسيين. وإنه لمن المحتمل أن يكون أمونيوس، هو نفسه "أمونيوس السكندري"، الذي يذكره يوسابيوس في رسالته إلى كبريانوس باعتباره مؤلف كتاب "صوغ الأناجيل" أو "التناغم بين الأناجيل" على أساس نص إنجيل متى، وكان چيروم مقتنعاً بهذا التعريف.

✣✣✣✣

١٠- بسينوسيريس

عاش بسينوسيريس الكاهن في وقت الاضطهاد الكبير الذي شنَّه دقلديانوس. وكانت خدمته تتركز في إحدى الواحات بالصحراء الغربية.

بقيت له رسالة قصيرة، وبالرغم من أنها رسالة بسيطة، إلاَّ أن لها قيمة كبيرة جداً وذلك لأنه كتبها بيده شخصياً (وهي من الرسائل القليلة في القرون الأولى) ولأنها تحتوي على معلومات نادرة وغير معروفة عن العلاقات بين المسيحيين في ذلك العصر. ففي هذه الرسالة يرد بسينوسيريس الكاهن على زميل له في الكهنوت يسمى أبولونوس، كان هذا قد أرسل إليه خطاباً يوصيه فيه بالاهتمام بسيدة كان الوالي قد نفاها بسبب إيمانها إلى الصحراء الكبرى. وفي رده يصف له أحوال السيدة وإنها في سلام لأن الحرَّاس الموكلين بحراستها، والذين يقومون بدفن الموتى في نفس الوقت هم رجال صالحون ومؤمنون، وقد حرروا المرأة من قيودها، وهي الآن في انتظار وصول ابنها لاستلامها.

وقد وجدت هذه الرسالة مكتوبة على ورقة بردي في الصحراء الكبرى في سنة ١٨٩٧م.

✢✢✢✢

١١- ثيوغنوستوس

أ- رئاسته لمدرسة الإسكندرية

ب- أعماله اللاهوتية

أ- رئاسته لمدرسة الإسكندرية

لا يذكر يوسابيوس أو چيروم عن ثيوغنوستوس (ثيؤغنوستوس Theognostus) أي معلومات. والمعلومات التي لدينا ترجع إلى فيليب الذي من صيدون، وهو يُرجع رئاسته لمدرسة الإسكندرية للاهوت بعد بيريوس أي في نحو سنة ٣٠٠م. غير أن هذا التاريخ المتأخر يبدو غير مقبول. ويؤرخ لرئاسته لمدرسة الإسكندرية عادة بعد ديونيسيوس وقبل بيريوس أي في المدة من (٢٦٥-٢٨٠م) تقريباً. (راجع موسوعة الكنيسة الأولى- مرجع سابق).

ب- أعماله اللاهوتية

والعمل الوحيد الذي أشار إليه فوتيوس Photius حيث أشار إلى كتابه Hypotyposeis (وتأتي بمعنى الأُطر أو النماذج) ويقع في سبعة أجزاء، ويعالج مسائل عديدة: الله الآب، وخلق العالم، الابن، الروح القدس، المخلوقات الروحية الأخرى، وتجسد الابن. وقد ربط فوتيوس بين هذا الكتاب وكتاب المبادىء الأساسية لأوريجانوس، وهو العمل الذي يتصل بمناقشة خاصة بالله والعالم. أما الجزازات القليلة التي ظفرت بالنجاة فقد ذكرها القديس أثناسيوس، وغيره. وكلها تبرهن على أن أفكار ثيوغنوستوس تقترب كثيراً من أفكار أوريجانوس، وأن كتاب ثيوغنوستوس يتشابه كثيراً في المبنى والمعنى مع كتاب أوريجانوس.

أما أسلوب ثيوغنوستوس فقوي وخالٍ من الحشو، ويتسم بالجمال في استخدامه للغة اليونانية الفصحى، وبطريقة لا يتخلى فيها عن سمو اللغة في سبيل الوضوح والدقة. ومن وصف فوتيوس يتضح تماماً أن كتب ثيوغنوستوس هي نوع من البحث العقيدي الشامل (راجع كواستن- مرجع سابق). وقد امتدح فوتيوس سعة اطلاعه وروح التقوى التي يتمتع بها، إلاَّ أنه وبَّخه على آرائه الخاطئة فيما يتعلق بالابن، والروح القدس، والمخلوقات العاقلة، التي هي في الحقيقة آراء أوريجانوس.

وقد اكتشف دايكامب Diekamp شذرة صغيرة من الكتاب الثاني، في مخطوطة البندقية، ويعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر الميلادي.

✢✢✢✢



١٢- بيريوس
(أوريجانوس الصغير)

أ- نبذة عن حياته

ب- أعماله

أ- نبذة عن حياته

الكاهن السكندري بيريوس Pierius الذي خلف ثيوغنوستوس في رئاسة مدرسة الإسكندرية، كان معاصراً للأسقف ثيوناس Theonas أسقف الإسكندرية (نحو سنة ٢٨١-٣٠٠م). اتسمت حياة الكاهن بيريوس بالفقر الشديد، وبمعرفته الغزيرة بالعلوم الفلسفية. وكان جاداً في تفسير الأمور الروحية، وكذلك في المناقشات العامة في الكنيسة. وقد ذكر عنه القديس چيروم أنه سُمي "أوريجانوس الصغير"، وأنه نزع إلى الفقر اختياراً، وكان معروفاً بضبط النفس، وبمعرفته التامة بفن الجدل.

وقد عرفه فوتيوس شخصياً، وامتدح عظاته لوضوحها ولما تحتويه من أفكار جديدة. ولكن لسوء الحظ فقد نسخ منها جزئين صغيرين فقط، الأول عن إنجيل لوقا، والآخر عن سفر "هوشع" يبدو أنه لعظة ألقيت في مناسبة عيد القيامة.

قضى الأب بيريوس بقية حياته بعد اضطهاد دقلديانوس في روما بحسب ما ذكره چيروم، وهذا لا يتعارض مع ما ذكره فوتيوس: "طبقاً لما يقوله البعض، إنه استشهد، وثمة البعض الآخر يقول إنه أمضى بقية حياته في روما بعد زمن الاضطهاد. ومن الأرجح أن كلا الأمرين صحيح. فقد عُذب في اضطهاد دقلديانوس، إلاَّ أنه لم يتوفَ في أثناء ذلكم الاضطهاد". ونظراً لأنه كتب عن حياة بامفيليوس Pamphilius الذي توفى في سنة ٣٠٩م، فلابد وأنه كان على قيد الحياة حتى تلك السنة على الأقل.

ب- أعماله

يذكر القديس چيروم أن للأب بيريوس "رسائل كثيرة في شتى الموضوعات"، ويخص بالذكر الرسالة الطويلة "عن هوشع" التي سبق أن ذكرناها. ويبدو أن چيروم يقصد "عظات" بكلمة رسائل التي استخدمها. ولاسيما أنه ذكر أن الرسالة "عن هوشع" ألقيت عشية عيد القيامة.

أما فوتيوس فقد ذكر أنه قرأ عملاً لبيريوس، الذي قيل إنه استشهد مع أخيه إيزيدور Isidor، وأنه كان يُدَرِّس اللاهوت للشهيد بامفيليوس، كما كان رئيساً لمدرسة الإسكندرية. وذكر أن ذلك العمل يضم اثنتى عشرة عظة. والأسلوب واضح جزل، سلس وليس به أي تعقيد. ويتميز هذا العمل بثراء ما ورد به من حجج، غير أنه يضم الكثير من التعليم غير المعروف أو المألوف للكنيسة المعاصرة، ولكنها ربما كانت تتمشى مع تعاليم قديمة. وتعاليمه عن الثالوث تتفق ورأى الكنيسة باستثناء

بعض الأفكار، فهو يؤكد على وجود جوهر لله وطبيعتين، وهو يستخدم هذين التعبيرين بمعنى أقانيم، وذلك كما هو واضح مما جاء قبل الفقرة وبعدها، وليس بالمعنى الذي يقول به أتباع أريوس- أما فيما يتعلق بالروح القدس فإن آراءه خطيرة ومرفوضة إذ أنه يقول إن مجد الروح القدس أقل من مجد الآب والابن. وفي الفقرة الخاصة بإنجيل لوقا يفهم منها أن كرامة أو عدم كرامة الصورة هي كرامة أو عدم كرامة الأصل. وقد ألمح بما يتفق مع فكرة أوريجانوس (غير المقبولة) أن الأرواح لها وجود سابق. ويذكر فيلبس سيديتس Sidetes ثلاثة مؤلفات لبيريوس هي: "عن إنجيل لوقا" وعن "والدة الإله"، "وحياة القديس بامفيليوس".

أقيم ثيوناس أسقفًا خلفا للأسقف مكسيموس الذي ظل في الأسقفية ثماني عشرة سنة بعد وفاة ديونيسيوس، وفي تلك الفترة اشتهر القس أكيلا الذي أقيم في الإسكندرية في نفس الوقت الذي أقيم فيه بيريوس. ظل ثيوناس في الأسقفية تسع عشرة سنة ثم أقيم بطرس أسقفًا في الإسكندرية.

✢✢✢✢

١٣- تريفون

كان تلميذًا للعلاَّمة أوريجانوس. ولا يذكر المؤرخ يوسابيوس القيصري عنه شيئًا. لكن يذكره يرونيموس، ويعرف رسائله العديدة إلى معلمه أوريجانوس، وأبحاثه الكثيرة وبخاصة عن موضوع ذبيحة الخطية (عدد ١٩) وموضوع ذبيحة إبرام (تكوين ٢٢). ولكن لم يتبقَ شيء من كتاباته.

✢✢✢✢

١٤- أمبروزيوس

كان أمبروزيوس (أو امبروسيوس أو أمبروزو Ambrose) صديقًا لأوريجانوس. وكان من أثرياء الإسكندرية، وقد قادته ثقافته واهتماماته إلى شيعة فالنتينيانوس. ولكن أوريجانوس رده إلى التفكير القويم. كان أمبروزيوس يفتقد إلى الغذاء العقلي، وقد وجد ضالته في أستاذه أوريجانوس. وقد وفر لأوريجانوس كل الوسائل المتاحة والمصادر التي تمكنه من الاستمرار في أعماله الفكرية، وكان لحث أمبروزيوس المتواصل لأوريجانوس أن أطلق عليه الأخير "الحاكم الثاني بعد الله". وقد تبع أوريجانوس إلى قيصرية مع كل أهل بيته. وكما ذكر چيروم فإنه أصبح خادمًا (شماسًا) هناك. وقد أهدى إليه أوريجانوس العديد من أعماله، ولاسيما في كتابه "حض على الاستشهاد" حيث لقى أمبروزيوس اضطهادًا وعذابًا في عهد مكسمينوس ثراكس (سنة ٢٣٥م). وطبقًا لما ذكره چيروم فإن أمبروزيوس توفى قبل أوريجانوس. وكانت له زوجة وأولادٌ.

١٥- البابا بطرس *خاتم الشهداء*

أ- لمحة عن حياته

ب- أعماله

أ- لمحة عن حياته

أنتُخب القديس بطرس أسقفًا للإسكندرية في سنة ٣٠٠م، بعد أن كان رئيسًا لمدرسة الإسكندرية للاهوت. وقد سجن خلال الاضطهاد الشديد الذي شنه دقلديانوس، ولكن أُطلق سراحه في سنة ٣٠٦م، ثم سجن مرة أخرى، واستشهد في سنة ٣١١م بقطع رأسه. وقد عظم يوسابيوس المؤرخ القيصري مدحه.

وكما يقول يوسابيوس: بعد أن ظل ثيوناس Theonas أسقفًا للإسكندرية وخدم بكل جهد مدة تسع عشرة سنة، خلفه بطرس أسقفًا للإسكندرية، وكان هو أيضًا له مكانته البارزة الخاصة مدة اثنتى عشرة سنة كاملة. وقد ترأس الكنيسة مدة لا تقل عن ثلاث سنوات كاملة قبل الاضطهاد، أما بالنسبة للمدة الباقية من عمره فقد اتسمت بالزهد الشديد حتى استشهد.

في أثناء سجن القديس بطرس أخذ ميليتوس (أو ملاتيوس) Melitius، أسقف ليكوبوليس Lycopolis كل الحقوق الأسقفية، وحل محل القديس بطرس في كنيسته. وفي مجمع عقد بالإسكندرية في نحو سنة ٣٠٥م أو في نحو سنة ٣٠٦م عَزَل القديس بطرس ذلكم المغتصب وذلك بعد أن أُدين بجرائم كثيرة، ولا سيما تقديمه ذبائح للآلهة.

ميليتوس، *الانشقاق الميليتي*

حدثت الانشقاقات الميليتية نتيجة الاضطهاد الذي وقع في مصر من سنة ٣٠٣م-٣١٢م. وكان ذلك يرجع إلى الآراء المتضاربة حول معاملة المسيحيين الذين ارتدوا خلال الاضطهاد وطلبوا عودتهم إلى الكنيسة.

وفيما كان الاضطهاد مستمرًا. كان بطرس أسقف الإسكندرية لا يزال في السجن مع أساقفة آخرين. كان ميليتوس أسقف أسيوط يمثل التيار المتشدد تجاه المرتدين، وكان هذا على العكس من الموقف المعتدل الذي تبناه بطرس. ووصل الأمر إلى الانقسام، حين شرع ميليتوس يرسم أساقفة للكراسي التي أصبحت شاغرة نتيجة لسجن أو غياب شاغليها. برغم أنه سبق أن ذبح للآلهة وسجد لأصنامهم.

وإذ أُطلق سراح بطرس -بصفة مؤقتة قبل إعادة سجنه مرة أخرى ثم استشهاده- اتَّخذ إجراءات شديدة ضد المنقسمين. وقد نظَّم المنقسمون أنفسهم وأقاموا كنيسة مستقلة خاصة بهم. إذ كان عددهم قد أصبح كبيرًا مما شجعهم على الانفصال. واستمر الانقسام على عهد كل من أكيلا وألكسندروس، خليفتي بطرس. وقد ظهر

الانقسام، في بعض الأماكن -على الأقل- كما لو كان معارضة أولية من أهل البلاد الأقباط ضد العنصر الهيلّيني (سيمونيتي: موسوعة الكنيسة الأولى).

وقد اتخذ مجمع نيقية في سنة ٣٢٥م إجراءات خفيفة ضد الانفصاليين. وكان أن احتفظ ميليتوس بمنصبه شريطة ألا يقوم برسامات أخرى. وقد احتفظ أساقفة وقسوس وشمامسة آخرون بمناصبهم بعد أن تم وضع الأيادي عليهم من جديد بمعرفة الأسقف ألكسندروس. إلاَّ أنه عند وفاة ألكسندروس في سنة ٣٢٨م سعى الميليتيون لاعتراض طريق انتخاب أثناسيوس، واستمرت المعركة بينهم. وكان أثناسيوس شديداً في مواجهة أولئك المنقسمين. ووجه ضرباته بنوع خاص ضد الأسقف أريوس والقس اسخيراس. وإذ كان ميليتوس قد توفى، قاد چون أركاف الميليتيين حيث هاجموا أثناسيوس مرتين (٣٣٢-٣٣٤م) باتهامه بالعنف أمام قسطنطين، ولكن دون جدوى. وفي مجمع صور في ٣٣٥م تحالفوا مع اليوسابيين. وكان موقف أرسانيوس وأسخيراس حاسمًا في إدانة أثناسيوس وعزله.

غير أن الأحداث اللاحقة قد شهدت بروز أثناسيوس بطلاً للكنيسة ومدافعًا عن الإيمان القويم. فذوى الميليتيون وفقدوا أهميتهم.

وعلى أثر ذلك بدأ ميليتوس الانقسام الذي نُسب إليه. والذي استمر عدة قرون. ولم ينجح حتى مجمع نيقية في تسوية هذا النزاع. وكان أريوس أحد أتباع ميليتوس، بل ومن أكثر المشايعين المتحمسين له.

ب- أعماله

لم يذكر يوسابيوس المؤرخ شيئًا عن كتابات القديس بطرس، ولعل ذلك يرجع إلى أن بطرس كان ضد أوريجانوس. ومما يؤسف له أنه لم يتبق من كل كتاباته ورسائله اللاهوتية سوى بعض الشذرات الصغيرة.

١- عن الألوهية

وهذا العمل يركز على ألوهية السيد المسيح ضد تعليم التابعية. وقد جاء في إحدى المخطوطات "الكلمة صار جسداً"، "ووجد في الهيئة كإنسان، غير أنه مع ذلك لم يكن دون لاهوته". ولذلك فإن أعمال مجمع أفسس (٤٣١م) تحتوي على ثلاثة اقتباسات من كتابات القديس بطرس عن ألوهية السيد المسيح.

٢- عن مجيء مخلصنا

يحتمل أن يكون مضمون ذلك العمل مطابقًا لكتابه "عن الألوهية". ويقول القديس بطرس في اقتباس ليونتيوس البيزنطي: "هذه الأمور وأمثالها، وكل الآيات التي أظهرها (السيد المسيح) والمعجزات التي عملها تثبت أنه الله ظهر في الجسد. ولذلك تم إيضاح الأمرين، أي أنه إله بالطبيعة وأنه إنسان بالطبيعة".

٣- عن الروح

وهذا الكتاب -في جزءين على الأقل- كُرس للرد على نظرية أفلاطون عن سبق وجود الروح والتي علَّم بها أوريجانوس.

٤- عن قيامة الأموات

من المرجح أنه كان تفنيداً لرأي أوريجانوس، حيث عارض أوريجانوس في رأيه: أن الحالة الروحية التي ستكون عليها الأجساد عند القيامة هي الحالة التي كانت عليها في حياتها على الأرض. وتوجد من هذا العمل سبع شذرات فحسب. ويحتمل أنه كان رسالة بمناسبة عيد القيامة.

٥- عن الكفارة

ويسمى أيضًا "الرسالة القانونية". وتحتفظ الكنيسة الشرقية بأربعة عشر قانونًا هي كل ما تبقى من هذا العمل. ونظراً لأن العبارة التي يستهل بها أول قانون هي: "بالنظر إلى أن الفصح الرابع للاضطهاد - أي على بداية الاضطهاد- قريب، نُسب تاريخ الكتاب إلى سنة ٣٠٦م. وتشير كل الاحتمالات أنه كان رسالة عيد القيامة. وفيه يوضح ما يجب أن يفعله أولئك الذين أنكروا الإيمان ومن ارتدوا، حيث قام بتقسيمهم إلى فئات، فمثلاً أولئك الذين لم يستسلموا إلاَّ بعد عذابات أليمة ومحن فظيعة فإن الوقت الذي انقضى يعد كافياً للتكفير عن ذلك الفعل، ويجب أن يُسمح لهم بالعودة إلى شركة القديسين. والقوانين لا توافق على تصرف أولئك الذين ذهبوا بأنفسهم إلى السلطات طالبين الاستشهاد، وذلك لأنهم لم يتصرفوا بحكمة، كما أن تصرفهم هذا يتعارض مع المثال الذي وضعه لنا الرب يسوع المسيح والرسل من بعده.

٦- عن قيامة المسيح

من المحتمل أن يكون هذا العمل رسالة عيد القيامة أيضًا. فنعرف من جزازة لمؤرخ سكندري أن بطرس أملى رسالة عن عيد القيامة لشخص اسمه تريسينيوس Tricenius. ومن المحتمل أنها رسالة لأسقف مصري يحمل نفس الاسم.

٧- الرسالة إلى السكندريين

توجد رسالة مقتضبة لها أهمية كبرى بالنسبة لتاريخ انفصال ميليتوس، يحذر فيها القديس بطرس الأمناء في أبروشيته ضد ميليتوس، ويرجح أنها كُتبت بعد وقت قصير من بداية الاضطهاد.

كما كتب أربعة من الأساقفة المصريين رسالة وهم: الأساقفة هيسيكيوس، وباخوميوس، وثيودورس، وفيلياس، وجهوها إلى ميليتوس حيث اعترضوا فيها بشدة ضد الرسامات التي قام بها في كنائسهم. وقد اكتشفت الرسالة التي كتبها القديس بطرس والرسالة التي كتبها الأساقفة الأربعة في مخطوطة قديمة في الفصل الخاص

بفيرونا الذي كتبه سيبيو مافاي Scipio Maffei. (م. سيمونيتي: موسوعة الكنيسة الأولى).

✢✢✢✢

١٦- هيسيكيوس

عاش في الإسكندرية في نحو سنة ٣٠٠م، ويبدو أنه من أصل سكندري. ومن المثير أن نعرف أنه خلال القرن الرابع لم تستخدم كنائس مصر التنقيح الذي أجراه أوريجانوس على الترجمة السبعينية، وإنما كانت تستخدم ذلكم الذي أجراه هيسيكيوس Hesychius. وقد تعرض هيسيكيوس لنقد شديد من قبل چيروم واعتبر أن عمله من الأعمال الأبوكريفية (المشكوك في صحتها).

ولا نستطيع التأكيد إن كان هيسيكيوس الذي نحن بصدد الحديث عنه هو من ذكره يوسابيوس المؤرخ والذي أُستشهد مع بطرس السكندري في أثناء اضطهاد دقلديانوس. وكثيرون يخلطون بينه ومن سموا بنفس الاسم في خلال القرنين الخامس والسادس.

✢✢✢✢

١٧- ألكسندروس

أسقف الإسكندرية والبابا التاسع عشر. وهو الخصم الأول لأريوس. لا تتوفر لنا معلومات عن زمان ومكان مولده، غير أننا نعرف أنه خلف أرشيلاوس (أرخيلاوس) على كرسي الإسكندرية في سنة ٣١٣م وحتى عام ٣٢٨م. ظهرت في وقت رئاسته الكهنوتية مشاكل كثيرة التعقيد، وقد واجهها بحكمة وحزم. وهذه المشاكل عالجها -فيما بعد- المجمع المسكوني الأول وهي: تحديد زمان عيد الفصح، الانشقاق الميليتاني، بدعة أريوس.

اعتاد الأسقف ألكسندروس أن يناقش الكهنة التابعين له الموضوعات اللاهوتية والتفسيرية، وفي إحدى هذه المناقشات مع أريوس (وكان أحد كهنة الإسكندرية) رأى في كلامه اتجاهات لتقليل شأن الابن. وبعد كثير من المناقشات معه، ظل أريوس على آرائه. لذلك دعا ألكسندروس أريوس إلى مجمع محلي لمحاكمته. وكان ذلك في الإسكندرية في سنة ٣١٨م. ثم في بداية عام ٣٢٥م انعقد مجمع آخر في أنطاكية أدان أيضًا تعليم أريوس. ووافق على حكم مجمع الإسكندرية عليه. وفي نفس العام انعقد المجمع المسكوني الأول بنيقية، وكان ألكسندروس أحد رؤسائه الثلاثة. وحُكم على أريوس بإجماع كل الحاضرين. ولُقِّب ألكسندروس في هذا المجمع "بالمحارب الشجاع عن العقائد الإنجيلية" والمحامي عن "العقائد الرسولية". نظرًا لدفاعه القوي عنها. وتوفى في سنة ٣٢٨م.

ولم يتبق لنا من إنتاجه اللاهوتي سوى ما يلي:

١- رسالة إلى ألكسندروس أسقف القسطنطينية: عن البدعة الأريوسية.

٢- رسالة دورية إلى المحبوبين المكرمين العاملين في الكنيسة الجامعة في كل مكان.

٣- رسالة عن تجريد (حرم) أريوس والذين معه.

٤- رسالة إلى أسقف مدينة كينوبوليس (ايجلوناس).

وترجع أهمية الرسائل الأربع إلى ما تتضمنه من معلومات عن البدع الأريوسية حيث يتكلم فيها عن ظهور هذه الهرطقة المشينة المحاربة للمسيح، ويدحض تعليمها، مؤكداً أن البشر يقدرون أن يكونوا أبناء الله بالتبني، أما المسيح فهو ابن الله بالطبيعة. وما دام الكلمة مولوداً منذ الأزل، فإن الآب كان أبًا منذ الأزل، والابن كذلك كان ابنًا منذ الأزل.

لم يفهم الأريوسيون هذه الفكرة اللاهوتية الهامة إذ ظنوا أنه عندما يتكلم عن شخصين غير مولودين إنما يتكلم عن إلهين اثنين.

٥- مقالة عن النفس والجسد وآلام السيد (بالسريانية واللاتينية والقبطية).

ويذكر في هذه المقالة ملاحظات عن النفس والجسد بطريقة سيكولوچية خاصة. ويبرهن على ضرورة آلام الرب من أجل خلاص الإنسان.

ومن معلومات أبيفانيوس نعلم أن ألكسندروس كتب نحو ٧٠ رسالة بقيت منها المذكورة بأعلاه فقط.

الباب الثاني

كنيسة شمالي أفريقيا

أ- التقسيم الإداري

في أثناء الحروب البونية، أطلق الرومان اسم أفريقيا على المنطقة الخاضعة لحكم قرطاجنة (بتونس). ومنذ القرن الأول الميلادي قسمت الإدارة المدنية إلى ثلاث مناطق:

١- ولاية أفريقيا وتمتد من مذبح فيليني Phile-ni إلى عنابة Annaba.

٢- ولاية نوميديا انفصلت عن ولاية أفريقيا في سنة ٣٧م، وعاصمتها لامبيسس Lambaesis (وهي حاليًا تازولت Tazzoult في الجزائر) وحكمها ممثل لفيلق أوغسطس.

٣- ولاية موريتانيا احتلها الرومان في سنة ٤٠م، وكانت تمتد حتى ساحل الأطلنطي. ولكنها انقسمت إلى منطقتين امبراطوريتين، قيصرين وعاصمتها قيصرية (شرشال) وتنجيتانا وعاصمتها (تنجبيير). ويبدو أن الاحتلال الروماني كان محدودًا بالشريط الساحلي، واستمرت تحكمها الأسر المحلية حتى غزو الوندال Vindals .

وقد أعاد دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) تقسيمها مرة أخرى وأصبحت التقسيمات المدنية لأفريقيا تشمل المناطق التالية:

(١) تريبوليتانا Tripolitana وتشمل المنطقة المحيطة بطرابلس من كيرنايكا Cyrenaica (القيروان) وحتى بحيرة تريتونس Triton (شط الجريد).

أفريقيا

أطلق الرومانيون -قديماً- على قارتنا "أفريقيا" (أفريكا، Africa) وهي ربما تكون مأخوذة من الكلمة اللاتينية "أبريكا" (Aprica) وتعني مشمسة أو "مغمورة بالشمس"، أو ربما تكون مأخوذة من الكلمة اليونانية (أفريك Aphrike) وتعني (البلاد) غير الباردة. على أن أفريقيا لم تطلق أساساً سوى على شريط الساحل الشمالي من القارة والذي كان ينظر إليه في الواقع على أنه امتداد لأوربا نحو الجنوب. وقد أطلق الرومانيون الذين حكموا -لفترة من الزمن- المناطق الشمالية من ساحل البحر المتوسط، على المناطق التي تقع إلى الجنوب من مستوطناتهم "أفريجا" (Afriga) أو "أرض الإفريج"، وهو اسم مجتمع البربر الذي يقع جنوبي قرطاجنة. وثمة تفسير آخر يُطرح أحياناً وينسب الاسم إلى منطقة مثمرة، وهي "تونس" الآن، وكانت تعني "سنابل القمح". وكلمة أفريقيا هي تعريب لكلمة أفريكا Africa. (راجع دائرة المعارف البريطانية).

(٢) بيزاسينا من بحيرة تريتونس إلى الحرية Horrea (هرجلا).

(٣) المنطقة الخاضعة للوالي الروماني وهي من الحرية إلى طبراكا (طبرق في تونس).

(٤) نوميديا انقسمت إلى المنطقة المحيطة بسرتا وعاصمتها سرتا وسميت فيما بعد قسنطينة، وميليتاريس وعاصمتها لامبيسس.

(٥) موريتانيا سيتيفنسس وعاصمتها سيتيفيس Sitifis (أو Setif).

(٦) موريتانيا قيصرين وعاصمتها قيصرية.

وكانت الحكومة المدنية لكل ولاية تعهد إلى والٍ أو حاكم تابع للحاكم العام لأفريقيا، أما الحكومة العسكرية فتخضع لكونت أفريقيا. واعتبرت موريتانيا تنجيتانا تابعة لأسبانيا.

ب- المسيحية في شمالي أفريقيا

ثمة نظريتان متعارضتان عن نشأة المسيحية في أفريقيا وهما:

الأولى: يرى البعض أن المسيحية عرفت طريقها إلى أفريقيا من الشرق عن طريق مصر وليبيا.
الثانية: أما البعض الآخر فيرى أنها جاءت عن طريق روما. وليس هناك ما يؤيد إحدى النظريتين بطريقة حاسمة (ق. ساكسر- موسوعة الكنيسة الأولى).

على الرغم من افتقارنا إلى مصادر مكتوبة إلا أن الدليل المستمد من الآثار يوحي بأن الكنائس في شمالي أفريقيا بدأت منذ وقت مبكر. (عزيز سوريال عطية- موسوعة الأديان).

كان ثمة مركزان واضحان قاما على الشواطيء

الجنوبية للبحر المتوسط في القرن الأول من الكرازة بالمسيحية. كان أحد المركزين في كيرانايكا Cyrenaica (القيروان) وكان واقعًا تحت تأثير كنيسة الإسكندرية. أما الآخر فكان في قرطاجنة (بتونس) وليس من شك في أنه كان معرضًا للوقوع تحت تأثير كنيسة روما- المجاورة له عبر البحر.

يربط التقليد بين ظهور المسيحية في كيرانايكا (القيروان) ودخول المسيحية مصر على يد مرقس الرسول، ووجود عدد كبير من اليهود في تلك المنطقة حتى قبل ميلاد المسيح من المؤكد أنه كان من شأنه قيام اتصالات مع أورشليم إبان القرن الأول. ومساهمة الليبيين وجموع من القيروان في المجادلات الدينية أكده ما جاء في سفر أعمال الرسل (٢:١٠، ٦:٨ و٩).

وفضلاً عن ذلك، فقد كشفت الحفائر الأثرية عن وجود مقابر تحت الأرض في القيروان الأمر الذي يثبت تطور كنيسة منظمة لها علاقات بالمسيحية السكندرية وذلك قبل القرن الثالث.

أول ذكر عن وجود كنيسة في قرطاجنة، كان في سنة ١٨٠م، حين أعلن ترتليانوس أن كنيسته الوطنية تنتمي مباشرة إلى الكنيسة في روما. والكنيسة التي أنجبت خلال القرن الثاني عملاقًا عظيمًا في مجال الفكر اللاهوتي المسيحي مثل ترتليانوس لابد وأنه كانت لها جذور عميقة في القرن الأول. والمسيحية في قرطاجنة كانت قوية ذات أساس راسخ حتى أنه كان لها تأثير عظيم على المجادلات اللاهوتية إبان السنوات العديدة التالية في العالم المسيحي سواء في الغرب أو الشرق (د. عزيز سوريال عطية- موسوعة الأديان).

١- المسيحية في المدن الخمس

تطلق المدن الخمس (بنتابوليس) على أقصى الجزء الشرقي من ليبيا. وينبع اسم هذه المنطقة من المدن الخمس اليونانية في كيرانايكا (القيروان) وهي:

(١) مدينة برنيس أو برنيقة (بنغازي)،

(٢) مدينة توشيرا (طوكرة).

(٣) بتولمايس (تولميتا) أو طُلميتة.

(٤) مدينة أبولونيا (سوسة أو مرسى سوسة)،

(٥) مدينة سيرين (قريني) (عين شحات) أو سيرينة كما أسماها الرومان.

ملحوظة: مدينة بتولماس (طُلمية) حلت محل مدينة برقة (المرج الحالية) نحو سنة ١٦٣ق.م- (راجع د. ميخائيل مكس اسكندر -تاريخ كنيسة بنتابوليس المدن الخمس الغربية) .

كان تاريخ المدن الخمس Pentapolis محكومًا بثلاثة مراكز للجذب، وهي نفسها كانت مكامن الخطر: البحر المتوسط، ومصر، والصحراء التي

سكنتها قبائل البربر وكانت لهم علاقات قوية، غالبًا يسودها السلام ولكنها لم تخلو من العداوات. وبالإضافة إلى المدن اليونانية المجاورة للبحر وتتمتع بخصوصية، سيطر اليونانيون على المناطق الساحلية. وفي شمالي أفريقيا، كانت المدن الخمس هي الرابطة التي تربط أقصى الغرب (على الساحل الشمالي لأفريقيا) والعالم اليوناني الشرقي. وفيما وراء حدود فيلاينورم Philaenorum (منطقة رأس العلى) تنفصل ليبيا ذات المدن الخمس عن تريبوليتانا، حيث كان يبدأ الغرب اللاتيني.

أصبحت كيرانايكا البطلمية ولاية رومانية في سنة ٧٤ق.م. ثما اتحدت تحت حكم أوغسطس في سنة ٢٧ق.م.، وضُمت إلى ولاية كريت. وخلال سيادة أوغسطس على الجزء الشرقي من كيرانايكا انفصلت وضُمت إلى مصر تحت اسم مارماريكا (سميت ليبيا الصغرى في التاريخ لاحقًا) وكولاية منعزلة، سميت ليبيا العظمى أو ليبيا ذات المدن الخمس، وذلك في عهد دقلديانوس. وانفصلت عن كريتا بين سنتي ٢٩٣م، ٣٠٥م وشكلت جزءًا من أبروشيات الشرقيين، حيث كان الولاة يقيمون في أنطاكية بسورية على نهر العاصي. ولكن لا يوجد مصدر قديم يقدم لنا دراسة شاملة عن تاريخ المدن الخمس لاحقًا. والمعلومات نادرة نسبيًا، ويجب جمعها من مختلف الكاتبين، فيما عدا الفترة الخاصة بتاريخها في نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس حيث غطاها سينيسيوس في أعماله، وسينيسيوس هو أسقف بتولمايس (طرابلس)، ومطران المدن الخمس منذ عام ٤١٢م. (د. عزيز سوريال عطية- الموسوعة القبطية).

المدن الخمس والإسكندرية

الموقع الجغرافي للمدن الخمس ربط هذه المدن برباط وثيق مع مصر بأكثر مما ربطها بقرطاجنة وبقية الولايات الغربية في شمالي أفريقيا. كذلك كانت للقوافل التجارية نفس الدور في الإسهام في قيام العلاقات بين مصر والمدن الخمس.

طبقًا للتقليد، فإن مرقس الإنجيلي كان مواطنًا يهوديًا من القيروان، جاء إلى الإسكندرية عن طريق المدن الخمس (راجع كنيسة الإسكندرية). وبعد أن وضع حجر الأساس للكنيسة الجديدة في مصر عاد إلى القيروان للكرازة فيها. وقد قضى مجمع نيقية (٣٢٥م) بأن تخضع القيروان لكنيسة الإسكندرية. والبطريرك القبطي يحمل اسم الخمس المدن الغربية في لقبه باعتبارها تابعة للكنيسة في مصر. وعلينا أن نفترض أنه كان ثمة تدفق مستمر للشخصيات الكنسية للكرازة بين القطرين، على غرار التفاعل الذي كان بين قرطاجنة وروما. وقد سَهَّل العنصر اليوناني السائد في كل من القيروان والإسكندرية عملية الاتصال بينهما.

كان معظم رجال الدين في كيرانايكا

(القيروان) يتلقون تعليمهم في الإسكندرية، وكانوا يتلقونه فيما مضى في مكتبة الإسكندرية، وبعد ذلك في مدرسة اللاهوت. وكان الأسقف سينيسيوس القيرواني يمثل الثقافة السكندرية- من جهة الفكر الفلسفي واللاهوتي- في المدن الخمس.

٢- المسيحية في قرطاجنة

من الصعوبة تحديد تواريخ معينة بالنسبة لدخول المسيحية القسم الغربي من شمالي أفريقيا، على الرغم من أنه يمكننا افتراض أن الكرازة بالإنجيل قد وصلت إليها بصفة مبدئية من روما. وهذا ما يؤكده ما تبين بعد ذلك من صلات وثيقة مع كرسي روما. وأول سجل كامل قام به الرومانيون والذي كشف عن وجود كنيسة منظمة ومتطورة ظهر قبل نهاية القرن الثاني بعقد أو عقدين. وكانت المسيحية متركزة في قرطاجنة والمناطق المتاخمة لها من الشرق والغرب. وهذا يتضمن مناطق تريبوليتانا (طرابلس الحالية) والمستعمرات، ونوميديا، وموريتانيا قيصرين، وموريتانيا تنجيتانا، وتغطي تقريبًا مناطق طرابلس وتونس والجزائر وشمالي المغرب. ولابد أن انتشار المسيحية كان قد تم بسرعة بين سكان قرطاجنة غير أنها لم تجد لها جذوراً على الإطلاق بين البربر، الذين ظلوا خارج حظيرة الحضارة الرومانية. وكانوا محاصرين، بشكل منتظم، من قبَل الكنيسة. وقد بلغ وضع الكنيسة درجة عالية من التطور إبان القرون القليلة التالية. وذلك بفضل عدد من الأشخاص الذين ظلت لمساهمتهم للفكر والثقافة المسيحيتين أثرًا باقيًا للمسيحية في قرطاجنة على الرغم من اختفائها بعد خمسة قرون. وقد تعرضت الكنيسة في قرطاجنة في أيامها الأولى للاضطهاد وأسهمت بنصيبها الكامل في الاستشهاد. وقيل إن نامفامو Namaphamo من نوميديا كان أول من استشهد في سبيل الإيمان، وربما كان من أصل قرطاجني. ومع ذلك فإن الغالبية من شهداء قرطاجنة كانوا من الوطنيين الذين أخذوا الجنسية الرومانية أو من المستوطنين الرومانيين. ولقد نمت الكنيسة على الرغم من الاضطهاد.

جـ- المجامع

ذكر كبريانوس مجمعين عُقدا قبله. مجمع أغريبينوس بقرطاجنة نحو سنة ٢٢٠م عن معمودية الهراطقة. والآخر عقد في أثناء خدمة دوناتس سلف كبريانوس، وكان موضوعه خلع الأسقف بريڤاتوس (Privatus) أسقف لامبيسس. وقد انعقد في أثناء خدمة كبريانوس سبعة مجامع. كان أكثرهم أهمية المجمع الذي انعقد في سنة ٢٥١م وكان عن مشكلة الانقطاع عن الكنيسة في أثناء اضطهاد ديسيوس. وفي ١ سبتمبر سنة ٢٥٦م، حيث قرروا إعادة معمودية الهراطقة والمنقسمين،

وذلك على خلاف عادة كنيسة روما، حيث اجتمع (٨٧) أسقفًا، الذين وصلت إلينا أعمالهم. كما وصلت إلينا قرارات تلك المجامع التي انعقدت بعد كبريانوس من خلال المجموعات القانونية في العصور الوسطى. أما المشكلة الخطيرة للدوناتية، ومشكلة الانقسامات التي أثارها اضطهاد دقلديانوس فقد وجدت طريقها إلى الحل في سنة ٤١١م في مجمع عُقد لمناقشتها، وقد طبعت أعماله. وهذه المستندات هي مرآة جيدة تعكس الحياة المسيحية في أفريقيا في ذلكم الوقت. فأعمال تلك المجامع أعطتنا بعض الأفكار عن المناطق الجغرافية وتزامن انتشار المسيحية فيها. فقد حضر (٧٠) أسقفًا مجمع أغريبينوس في نحو سنة ٢٢٠م، كما حضر (٨٧) أسقفًا في مجمع ١ سبتمبر سنة ٢٥٦م، وفي الوقت الذي حدث فيه انتشار كبير للمسيحية كان عدد الأساقفة نحو (٦٠٠) أسقف. وكان انتشار المسيحية جهة الشرق أكبر منه جهة الغرب. وكان ثمة بعض الأبروشيات جنوبي تونس وقنسطينة: كابسا، وتامالولا، وڤيسيرا (بسكرا). (ف. ساكسر- موسوعة الكنيسة الأولى).

مجمع سِرتا

انعقد في ٥ مارس سنة ٣٠٥م في سرتا Cirta في نوميديا (الآن قسنطينة في الجزائر). وكان قد اجتمع أحد عشر أسقفًا لاختيار أسقف جديد لسرتا. وقد اعترف معظم الحاضرين أنهم تخلوا عن الكتاب المقدس أثناء اضطهاد دقلديانوس، والتمسوا الغفران. وكان أكبر الأعضاء سنًا ورئيس المجمع هو سكوندس (Secundus) من تجيسيس (Tigisis) الذي وقع في نفس الخطأ أيضًا. لذلك قرر أنه ينبغي على كل واحد أن يقدم إلى الله حسابًا عن أعماله فيما يتعلق بهذا الموضوع (كما ذكره القديس أغسطينوس). وإذ تمت مسامحتهم اختاروا الشماس سلوانس (Silvanus) السرتي أسقفًا. وقد أصبح كثيرون من هؤلاء الأساقفة ومن بينهم سلوانس، قادة لطائفة الدوناتية.

د- اللغة

ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الإنجيل -في البداية- كان يُكرز به باللغة اليونانية سواء في أفريقيا أو في روما (كواستن). والمعلومات التي يمكن أن نثق فيها ترجع إلى أواخر القرن الثاني الميلادي. حيث كانت الكنيسة في أفريقيا في ذلك الوقت تتحدث بلغتين هما اليونانية واللاتينية. ونجد أن أربعة من أعمال ترتليانوس نشرت في بداية الأمر باليونانية، ويبدو أنه هو الذي وضع كتاب Passio Perpetuae et Feliciatatis والذي ظهر باللغتين، حيث ظهرت أعماله باللاتينية بعد ذلك. وكذلك رؤى ساتوروس يبدو أنها كتبت في الأصل باليونانية، ومنذ نحو عام ١٨٠م كتبت أعمال الشهداء الصقليون باليونانية. أما رسائل الرسول بولس فقد نشرت في ذلك الوقت باللاتينية. وبعد

ذلك بوقت قصير استخدم كبريانوس في نحو سنة (٢٥٠م) النسخة الرسمية للكتاب المقدس باللاتينية. بالإضافة إلى ذلك فإن أعمال وآلام الاستشهاد لكبريانوس (٢٥٧-٢٥٨م) وأعمال يعقوب وماريانوس (٢٥٩م)، ولوكيوس ومانتانوس (٢٥٩م)، مكسيميليان (٢٩٥م) ومارسيللوس، وشهداء أبيتينا وفيلكس التيبيوكي وكريسبينا (٣٠٤م)، كلها من بين أفضل النصوص اللاتينية التي من هذا النوع. وكانت أفريقيا مهد أفضل الكتابات الأدبية المسيحية باللاتينية متمثلة في ترتليانوس (في القرنين الثاني والثالث) وكبريانوس (توفى في ١٤ أكتوبر ٢٥٨م)، وأغسطينوس (توفى في ٢٨ أغسطس ٤٣٠م) (ف- ساكسر موسوعة تاريخ الكنيسة الأولى).

أول ترجمة لاتينية للكتاب المقدس

تتمثل أقدم وثيقة عن أفريقيا في كتاب صادر عن "سيللي" بعنوان "أعمال الشهداء"، وقد حكم على سيللي بالإعدام في ١٧ يوليو ١٨٠م. وهذا العمل يقدم لنا أقدم دليل على ترجمة جزء من العهد الجديد. إذ يوضح أنه عندما مثل الشهداء أمام محكمة الوالي ساتورنينسوسي. يشهد ترتليانوس بوجود ترجمة لاتينية كاملة للكتاب المقدس. وإن كان ليس لها صفة رسمية، وكانت موضع نقده في بعض المناسبات. ومع ذلك فإن كنيسة أفريقيا يبدو أنه كانت لديها نسخة لاتينية للأسفار المقدسة المعترف بقانونيتها في نحو سنة ٢٥٠م. ويتضح ذلك من التزام كبريانوس بها في جميع كتاباته. وقد شملت مجموعتين اقتباسات عديدة من الأسفار المقدسة. ويبدو أنه قبل أن تتبنى روما اللغة اللاتينية لغةً للعبادة، كانت أفريقيا قد اتخذت مثل هذا التغيير (كواستن- مرجع سابق).

إسهامات كنيسة شمالي أفريقيا

لم يكن للكنيسة في الغرب إسهاماتها العلمية بقدر ما كان للكنيسة في الشرق. فكانت الكنيسة في مبدأ أمرها يهودية، وكانت قبل مجمع نيقية يونانية وبعد مجمع نيقية رومانية، في مجموعها. وقد كتب أوائل كُتَّاب الكنيسة باليونانية وهم كليمندس، وهرماس، وإيريناوس، وهيبوليتس. وبدأت الكنيسة في استخدام اللاتينية في ختام القرن الثاني، ولم يحدث ذلك في إيطاليا وإنما كان في شمالي أفريقيا، ولم يكن في روما بل في قرطاجنة. ويقول "شاف" إن ذلك الإسهام لم يكن عن طريق فيلسوف أو مفكر عرف الإيمان المسيحي، وإنما كان عن طريق رجال عمليين من محامين وأدباء. ولم تظهر تلك الأدبيات بالتدريج وإنما ظهرت دفعة واحدة وكان لها طابع واضح ومتميز، مع اتجاه واقعي قوي. كما قدمت الكنيسة في شمالي أفريقيا للكنيسة في الغرب الكتاب المقدس في ترجمته الأولى إلى اللاتينية وهي ما يسمى بالترجمة "الإيطالية"، وكانت هذه الترجمة هي الأساس لترجمة چيروم والمعروفة بالڤولجاتا (Vulgata)، ومازالت حتى الآن تعتبر النسخة المعتمدة في روما. على أنه من المحتمل وجود عدة ترجمات أخرى باللاتينية لأجزاء من الكتاب المقدس في الغرب قبل چيروم.

هـ- الكنيسة تواجه الأخطار

يشهد الكاتبون الأفريقيون للمعركة العنيفة التي خاضتها الكنيسة ضد العدو الخارجي متمثلاً في الاضطهادات الدموية، والعدو الداخلي المتمثل في المجادلات الهرطوقية. ونستشعر دائمًا في كتابات سيللي وترتليانوس وكبريانوس وأرنوبيوس ولاكتانتيوس الهجوم على الوثنية.

كانت الحرب الداخلية أكثر خطرًا على الكنيسة من الاضطهادات. فكانت ثمة شيع عديدة للغنوسية، كأتباع ڤالنتينوس وأتباع ماركيون. وكان اهتمام كبريانوس بوحدة الكنيسة اهتمامًا كبيرًا. فقد ناضل ضد الانشقاقات التي تزعمها كل من نوڤاتيان وفيليسيميوس ومع ذلك نجده على وشك الانفصال عن روما في مواجهة مريرة مع البابا استفانوس حول صحة معمودية الهراطقة.

و- اختفاء المسيحية من شمالي أفريقيا

يندهش دارسو تاريخ كنيسة شمالي أفريقيا للاختفاء المفاجيء للمسيحية هناك. فمنذ نحو أواخر القرن الثاني عشر وحتى عصرنا الحديث لا يوجد في ليبيا مسيحي واحد. ومن المعروف أن المدن الخمس الغربية ارتبطت بكنيسة الإسكندرية منذ البداية. والقديس مرقس الرسول الذي قام بالكرازة في مدينة الإسكندرية بحسب التقليد (ارجع إلى كنيسة الإسكندرية في موضعها من هذا المجلد)، وكان مسقط رأسه مدينة القيروان. وكما سبق أن قلنا جعل مجمع نيقية (٣٢٥م) المدن الخمس الغربية تابعة لكنيسة الإسكندرية (د. عزيز سوريال عطية: تاريخ الكنيسة الشرقية).

يرى د. عزيز سوريال أن السبب في اختفاء المسيحية من بنتابوليس يرجع إلى هجمات البربر الذين كانوا يهتمون بالنهب والسلب، غير عابئين بأن يتحضروا، ودون أن يهتموا بالدخول إلى حظيرة الإيمان المسيحي، وكانت لهم ممارساتهم الوثنية الخاصة بهم. وبمجيء العرب هاجر اليونانيون من سكان المنطقة، وبقى العرب والبربر (المرجع السابق).

غير أن الدراسة التي يقدمها د. ميخائيل مكس اسكندر عن ذلكم الموضوع يذكر فيها أن ثمة عناصر عديدة مجتمعة قد ساهمت في اختفاء المسيحية من بنتابوليس، ونحن نذكرها هنا إجمالاً.

تأثرت الطبيعة في برقة تأثرًا كبيرًا بالعديد من الكوارث الطبيعية.. من زلازل وجفاف.. وغيرها.. وقد خلَّفت وراءها أثرًا سيئًا، فضلاً عما عانته تلك المنطقة من غزوات البيزنطيين والفرس. وقد فرض كل غازٍ الضرائب المرهقة على أهل البلاد. فضلاً عمَّا لاقوه من عذابات واضطهادات.. فوصل الاقتصاد إلى حالة متردية. وكان من السهل آنئذ على العرب أن يفتحوا البلاد، ويذكر د. ميخائيل مكس نقلاً عن بتلر قوله: "إن كثيرين قد أسلموا، ليس كما قال المؤرخون المسيحيون بقصد الدنيا

وزينتها، ولكن طمعًا في مساواتهم بالفاتحين، حتى يكون لهم ما للمسلمين من امتيازات (اقتصادية)، أو ينجون من الجزية". وقد فرضت الضرائب آنذاك حتى على الرهبان. (د. ميخائيل مكس: تاريخ كنيسة بنتابوليس).

كذلك فإن الانقسامات التي نشأت فيما بين المسيحيين أنفسهم، بين أتباع الطبيعتين (كنيسة بيزنطة) وأتباع الطبيعة الواحدة (كنيسة الإسكندرية)، كان من شأنها إحداث صدع هائل، فضلاً عن الاضطهاد البيزنطي. ويذكر د. ميخائيل مكس نقلاً عن المؤرخ جيبون مقتل نحو ربع مليون قبطي وليبي من أصحاب الطبيعة الواحدة على يد الحاكم والبطريرك الملكاني أبوليناريوس (٥٥١م) بالإضافة إلى الفارين إلى الصحراء. وقد شدَّد العرب بعد ذلك من قبضتهم وسعوا إلى جذب المزيد من المسيحيين إلى ديانتهم بكافة الوسائل (المرجع السابق).

كما يرد بعض الباحثين اختفاء المسيحية من بنتابوليس إلى عدم تعمق المسيحية في نفوس أهلها، وإلى عدم وجود القيادات الدينية الحكيمة التي تأثرت بشدة بالهرطقات باستثناء بعضهم مثل سينيسيوس (٣٧٠م) وسيداريوس.

إبَّان الفتح العربي لبرقة حدثت الهجرة في اتجاهين عكسيين. فقد هاجرت كثير من الجاليات الأجنبية التي كانت تقيم هناك كالبيزنطيين والرومانيين، وكانوا يشكلون غالبية المسيحيين. في نفس الوقت الذي تدفقت فيه الهجرات من الشام والعراق واليمن والحجاز إلى شمالي أفريقيا بأعداد كبيرة. ومع مرور الوقت أصبحت اللغة العربية هي اللغة السائدة بين السكان (حتى بين البربر أنفسهم في وقت لاحق). وبدون شك ساهم ذلك في محو آثار المسيحية هناك.

وبخروج الجاليات التي كانت تتحدث اليونانية، لم يعد لتلك اللغة وجود. أما البربر الذين عرفوا طريقهم إلى المسيحية في وقت متأخر (قبل الفتح العربي بوقت قصير، فلم يكونوا يعرفون اللغة القبطية، التي كان يصلي بها الكهنة الأقباط ممن أرسلتهم كنيسة الإسكندرية، كما أن أولئك الكهنة لم يكونوا يتقنون اليونانية التي كان بعض البربر من المسيحيين يعرفونها. وكان ذلك من أكبر المعوقات التي وقفت في طريق تعليم البربر لمبادئ المسيحية، ونتيجة لذلك لم تكن ثمة فرصة لتتمكن المسيحية من قلوب البربر. وهكذا نجد أن ثمة أسبابًا عديدة تزامنت واجتمعت من أجل اختفاء المسيحية. في وقت مبكر من بنتابوليس بشمالي أفريقيا. (ارجع إلى كتاب: تاريخ كنيسة بنتابوليس: المدن الخمس الغربية: د. ميخائيل مكس اسكندر).

✢ ✢ ✢ ✢ ✢

✢ ✢ ✢ ✢

ز- الكاتبون

١- ترتليانوس ٢- كبريانوس

٣- أنوبيوس ٤- لاكتانتيوس

✢ ✢ ✢ ✢

١- ترتليانوس

أ- حياته

ب- أعماله

جـ- كتابات مفقودة

د- كتابات موضع شك

هـ- ملامح من فكره اللاهوتي

أ- حياته

إن القليل الذي نعرفه عن حياة كوينتوس سبتميوس فلورنس ترتليانوس Quintus Septimius Florens Tertullianus مصدره ما كتبه هو عن نفسه في أعماله، وما ذكره عنه چيروم. تاريخ ميلاده ووفاته غير معروفين. ونستطيع أن نؤكد في ثقة أن نشاطه الأدبي كان في السنوات الأخيرة من القرن الثاني والعقدين الأولين من القرن الثالث. وكما يقول عنه چيروم فإنه كان من شمالي أفريقيا، من مواطني قرطاجنة، ولد نحو سنة ١٥٥م، (كواستن- مرجع سابق). أما دكتور عزيز سوريال عطية فيرى أنه ولد نحو سنة ١٦٠م (موسوعة الأديان)، ولكن شاف يرى أنه ولد نحو سنة ١٥٠م. كان أبوه قائد مائة بكتيبة الوالي. وكان والداه وثنيين. كان أحد البارزين في القانون، حقق لنفسه شهرة بالغة من عمله بالمحاماة في روما. قال عنه يوسابيوس إنه يعرف على نحو دقيق القوانين الرومانية (تاريخ الكنيسة ٢:٢). ومن المرجح أنه هو القاضي ترتليانوس الذي تضمنت مجموعة القوانين المعروفة بعنوان "Corpus Civilis" بعضاً من كتاباته. ولكنه بعد أن عرف الإيمان المسيحي في نحو سنة ١٩٣م، أقام في قرطاجنة. وسخَّر كل معرفته القانونية والأدبية والفلسفية لخدمة الإيمان المسيحي، ثم أصبح قساً، طبقاً لما ذكره چيروم. إلاّ أن كلاً من شاف وب. سينيسكالكو يشك في ذلك (راجع تاريخ الكنيسة لشاف - مرجع سابق- موسوعة الكنيسة الأولى). لكن لا يخفي على أحد دوره البارز في التعليم. وقد واصل كتاباته الأدبية عبر السنوات ١٩٥-٢٢٠م. ومعظم أعماله التي كتبها إبان هذه الفترة كان لها تأثيرها الدائم على الفكر اللاهوتي المسيحي. وانضم علانية إلى المونتانيين Monta-nists في عام ٢٠٧م، وأصبح رئيساً لطائفة خاصة منهم، ونسبت إليه فسميت "بالترتليانوسية"، واستمرت في قرطاجنة حتى زمن القديس أغسطينوس. وتاريخ وفاته مجهول.. ولابد أنه كان

بعد سنة ٢٢٠م، ويذكر د. عزيز سوريال أن ذلك كان في نحو سنة ٢٢٥م. (موسوعة الأديان).

كان ترتليانوس أول من كتب باللاتينية من آباء الكنيسة (موسوعة الأديان)، وباستثناء القديس أغسطينوس كان ترتليانوس من أهم كاتبي الكنيسة الأوائل ممن كتبوا باللاتينية. فإلى جانب معرفة ترتليانوس العميقة بالفلسفة والقانون والآداب اليونانية واللاتينية فإنه كان نشيطًا دؤوبًا مثابرًا، كما كان بليغًا بلاغة فائقة. وعزمه لم يَلن في مواجهة الهراطقة. وكل كتاباته دفاعية. (كواستن- مرجع سابق).

إننا لا نعرف بالتحديد كيف عرف طريقه إلى الإيمان المسيحي، ومن الجلي أن السبب لم يكن مقارنة دقيقة للنظم الفلسفية المختلفة، كما كان الحال بالنسبة للقديس يوستينوس. ولكن يبدو أن بطولة المسيحيين في أوقات الاضطهاد كان لها أثرها البالغ عليه أكثر من أي شيء آخر، ذلك أنه كتب في إحدى رسائله يقول:

"كل إنسان في مواجهة هذه المحنة الرهيبة يشعر بأن شيئًا من الشك بدأ يخامره، ويرغب بكل حماسة أن يكتشف ماذا وراء هذا الموضوع، ومن اللحظة التي يكتشف فيها الحقيقة يبدأ هو نفسه في اعتناقها". والحقيقة كانت الموضوع العظيم في دفاعه عن المسيحية ، وفي هجومه على الوثنية والهرطقة. وقد وردت كلمة الحقيقة في أحد كتبه (١٦٢) مرة. وقد كتب يقول: "حين أقام المسيح الديانة الجديدة، فقد استهدف بذلك أن يقود البشرية فإله المسيحيين هو الإله الحقيقي. والذين يجدونه يجدون الحق كله. الحق هو ما يكرهه الشياطين، ويعارضه الوثنيون، وما يتألم المسيحيون ويموتون في سبيله. الحقيقة هي التي تفصل المسيحيين عن الوثنيين" (كواستن- مرجع سابق).

إننا نلمس في كتاباته شعورًا دينيًا عميقًا، ولهفة جامحة إلى الأمانة. وليس من الصواب تقديم ترتليانوس على أنه محام ومن رجال البلاغة ممن يميلون إلى السفسطة ذلك لأنه يتكلم بإخلاص. وهو عنيد في دفاعه عن الروح الديني، فيقول: "إنه من حق كل إنسان أن يختار دينه. وليس ثمة شك من أنه كان على استعداد للموت في سبيل إيمانه. ففي كلماته في كتاب "Apology" أي "الدفاع" عَبَّر عن رغبته القوية في الاستشهاد. وهو ضد الهرب أثناء الاضطهاد، وهو بهذا الاعتقاد الراسخ يُظهر ما كان يتمتع به من إخلاص. وكان يعرف نقائصه أيضًا، فحين كتب عن الصبر كان يشعر وكأنه مثل المريض الذي يتحدث عن الصحة، لأنه هو نفسه كان مريضًا دائمًا بحمى عدم الصبر.

تزوج ترتليانوس وأشار إلى زوجته في كتابه "Aduxorem"(١:١) ولا يمكن تحديد تاريخ محدد لذلك (قبل عام ١٩٧م). (موسوعة الكنيسة الأولى).

ويذكر شاف أنه كان لترتليانوس نظرة رائعة عن حياة الأسرة المسيحية. وكان يرفض الزواج الثاني، وقد نصح زوجته بألا تتزوج ثانيةً إذا ما توفى قبلها، أو على الأقل ألاّ تتزوج شخصًا غير مؤمن. إلاّ أنه في وقت لاحق وضع الزواج الثاني على نفس مستوى الزني.

ب- أعماله

١- الكتابات الدفاعية.

٢- كتابات ضد الهرطقات.

٣- كتابات أخلاقية أو عملية .

٤- الكتابات المونتانية.

٥- كتابات مفقودة .

٦- كتابات موضع شك .

تمهيد

تميز ترتليانوس بأسلوب خاص. وقد تبع التقليد الأدبي السائد في عصره، وتمثل كتاباته نماذج عديدة من معرفته بالأساليب البلاغية. كان متأثرًا بطريقة الخطباء اليونانيين، التي تفضل العبارات الموجزة والقصيرة على الجمل الطويلة، والزاخرة بالأسئلة أو الأسلوب الاستفهامي حيث تُتبع بإجابات محددة. واستخدم كثيراً أساليب الطباق والتورية، وقد صاغ أساليب جديدة ونحت تعبيرات لم يسبقه إليها أحد منذ أن كان تاسيتوس يفعل ذلك. وقد أدى استخدامه للتعبيرات التي تحتوي على معانٍ عديدة إلى أن قدرًا من الغموض كان يشوب أعماله. وساهم بحاسته الفنية بالنسبة للغة الكنسية الأولى. وستظل أعماله مصدراً أساسيًا لمعرفتنا باللغة اللاتينية المسيحية. فهي تضم عدداً كبيرًا من التعبيرات اللاهوتية الجديدة التي استخدمها المفكرون اللاهوتيون الذين جاءوا بعده . ولهذا السبب دُعي ترتليانوس "مبتكر اللغة اللاتينية الكنسية". ويرى كواستن أن هذه مبالغة، ولا تنصف تأثير أقدم ترجمات الكتاب المقدس العميقة والباقية إلى الآن، حيث أن كثيراً من الكلمات التي كان من المعتقد أن مبتكرها هو ترتليانوس سبق أن استخدمها أ. كولبنج A. Kolp-ing، وقد تبرهن ذلك من خلال دراسات حديثة. ومع ذلك فإنه حتى مع هذه التحفظات فمازال يتبقى الكثير مما هو من ابتكار ترتليانوس ويحفظ له مكانة بارزة في تاريخ الأدب المسيحي اللاتيني.

يرى "شاف" أن ترتليانوس كتب باليونانية واللاتينية فيما بين عامي ١٩٠م و٢٢٠م. وأن كتبه الأولى كانت باليونانية، أما كتبه الأخرى باللاتينية فقد فُقدت. ومعظم ما تبقى منها قصيراً، إلاّ أنها كثيرة وتمس كل مناحي الحياة الدينية تقريبًا.

النصوص المعترف بها

يذكر كواستن أنه توجد على الأقل ست مجموعات من أعمال ترتليانوس منذ بداية العصور الوسطى وهي تحتوي على النصوص التي يعترف بها التقليد.

أ- مجموعة Corpus Masburence

يرجح أنها ظهرت كمجموعة قبل سنة ٤٩٤م. ونحن نعرف نصوصها من خلال طبعة سيجيز موند جيلينيوس (Sigismund Gelenius) (بازل: ١٥٥٠م)، والتي اعتمدت على Codex Mesnartiann وMasburensis ، والأخيرة تحتوي على اثنتى عشرة رسالة وهي غير موجودة الآن.

ب- مجموعة Corpus Trecense

هي أصغر المجموعات الست. ويعتقد كرويمان (Kroymann) أن ڤنسنت ف. لِرنس Vincent F. Lerins بدأ ترجمتها (توفى في سنة ٤٥٤م).

جـ- مجموعة The Corpus Agobardinus

يرجح أن زمانها يرجع إلى نفس زمن المجموعة الأولى. وقد حفظت تلك المجموعة في مخطوطة أجوباردينوس، وهي تضم واحداً وعشرين كتاباً من كتب ترتليانوس. أما مخطوطة Parisinus Latinus والتي تسمى أجوباردينوس (أ) على اسم مالكها الأول أجوبارد Agobard رئيس أساقفة ليون (٨١٤-٨٤٠ م.) فإنها لا تضم سوى ثلاثة عشر كتاباً، وبعضها غير كامل.

د- مجموعة Corpus Cluniacense

يرجح أن زمان جمعها يرجع إلى منتصف القرن السادس، حيث جمعت في أسبانيا. وتضم أكبر تصنيف لأعمال ترتليانوس حيث تحتوي على سبع وعشرين رسالةً. وهي تضم كتابات ترتليانوس ضد الهراطقة، والتي لا توجد في أي من المجموعات الأخرى.

هـ- ثمة مجموعة أخرى لا تنتمي إلى أي من المجموعات الأربع السابقة، ولم تكن معروفة حتى وقت قريب. حيث اكتشف السويدي جويستا كلايسون (Gosta Claesson) -أحد علماء فقه اللغة- في إحدى المخطوطات بمكتبة الفاتيكان عدداً من المقتطفات المأخوذة من كتابات ترتليانوس. وتتطابق الترجمات في عدد من المواضع مع مخطوطة تريسنسز Tre-censis إلا أنها في مواضع أخرى تظهر استقلالية مما يشير إلى حتمية وجود مجموعة خامسة.

و- ثمة اكتشاف مدهش للغاية في هولندا إذ نشر كل من أ. پ. ڤان شيلفجارد (A.P. Van Schilfgaard) وليفتينك (Lieftinck) جزازة من

(De Spectaculis) كانت محفوظة في أرشيف كيبل Keppel، ومحفوظة الآن في مكتبة ليدن Leiden. وهي مأخوذة عن مخطوطة ترجع إلى القرن التاسع. وتعرض نصًا غير موجود في أي من المجموعات السابق الإشارة إليها.

وثمة مخطوطات أخرى لم يعد لها وجود الآن إلا أنها معروفة لنا من خلال أقدم النسخ المطبوعة، وهي هامة أيضًا لتاريخ النص (كواستن- مرجع سابق).

تصنَّف كتابات ترتليانوس إلى أربع فئات هي:

١- دفاعية

٢- ضد الهرطقات

٣- أخلاقية أو عملية

٤- رسائل مونتانية

١- *الكتابات الدفاعية لترتليانوس*

في الكتابات الدفاعية لترتليانوس نجد أن كتابي Ad nationes وكتاب The Apologeticum ينتمي كل منهما للآخر. وكلاهما كتب في سنة ١٩٧م، ويعرضان لنفس الموضوع، ومع ذلك فإن كتاب Apologeticum يمثل الصيغة الأكثر اكتمالاً. ونظرًا لبعض الإشارات الواضحة إلى ثورة أبينوس ضد سبتيميوس ساويرس Septimius Severus والمعركة الدامية بمدينة ليون Lyons التي أعقبتها في ١٩ فبراير سنة ١٩٧م. فإنه يمكن اعتبار أن Ad nationes قد كتب قبل The Apologeticum.

(أ) إلى الوثنيين

تتكون الرسالة إلى الوثنيين (Ad nationes) من كتابين، أولهما يستهل بتوضيح أن الإجراء القضائي ضد المسيحيين لم يكن غير معقول فحسب، بل كان يتناقض مع كل مباديء العدالة. وهذا التجاوز للقانون أو التغاضي عنه يرجع إلي الجهل، وكذلك يرجع إلى حقيقة أن الوثنيين لا يعرفون ما يدينونه (١-٦). أما في الفصول (٧-١٩) فيدحض الكاتب الافتراءات المعتادة، ويثبت أنها غير صادقة، إلا أنه يضيف قوله، إنه حتى لو كانت صادقة، فإنها لا تعطي الوثنيين الحق في إدانة المسيحيين، لأن الوثنيين أنفسهم يرتكبون جرائم أسوأ. وفيما يظل الكتاب الأول دفاعيًا، فإن الكتاب الثاني يعد أكثر عدوانية.

(ب) كتابات دفاعية

تعد الكتابات الدفاعية "Apologeticum" أكثر أعمال ترتليانوس أهمية. وهي تختلف بشكل جوهري عن كتابه إلى الوثنيين، على الرغم من أنها تشابهه في المضمون. فالكتابات الدفاعية لها خطة، كما أنها تتميز بوحدة أكبر مما هو الحال في كتاب "إلى الوثنيين". ويبدو الأخير بالأحرى كمجموعة من المواد، لا كتاب متكامل. كما أن الكاتب يبدي

تحفظاً في كتابه "Apology" بأكثر مما هو الحال في كتابه إلى الوثنيين، وذلك لاختلاف من يخاطبهم في كلا العملين. فكتاب "إلى الوثنيين" كما يظهر من عنوانه، استهدف به العالم الوثني بصفة عامة، في حين أن كتاب "Apologeticum" كان موجهاً إلى حكام الولايات الرومانية، الذين يهاجمهم، ولو أنه يحاول أيضاً إقناعهم. ويواجه اتهامات الوثنيين ضد الديانة الجديدة، حيث يدافع عن أخلاق المسيحيين ويوضح تعليمهم في ذات الوقت الذي يهاجم سلوك وعقائد الأمم (موسوعة الكنيسة الأولى).

يرى ترتليانوس أن الجهل هو السبب في كراهية المسيحيين واضطهادهم فيقول في المقدمة:

"إن الحق يعرف أنها (أي المسيحية) غريبة على الأرض ومن السهولة أن تجد لها أعداءً بين من لهم ولاءً آخر، غير أنها تعرف أن جنسها، بيتها، رجاءها، مكافأتها، مجدها، كل هذه إنما تكون في السماء. وفي خضم ذلك تجدها شغوفة بأمر واحد- وهو ألاَّ تدان دون أن تُعَرف. والإجراءات تعد سامية في محيطها ولكن ما الخسارة التي ستعانيها إذا ما سُمعت الحقيقة؟

والإجراء الذي تتخذه السلطات في المحاكمات يتعارض مع كل السوابق، ومع كل مباديء العدالة، بل إن الوثنيين أنفسهم ليس بمقدورهم إعطاء سبب معقول يبرر كراهيتهم للاسم "مسيحي"، وقيمة كل التشريعات البشرية تعتمد على أخلاقياتهم وغاياتها. وبناء على ذلك، لا يمكن أن تكون المسيحية ضد قوانين الدولة. فضلاً عن ذلك فإن الفحص أثبت أن الأباطرة الأشرار فحسب هم الذين كانوا يصدرون تشريعات ضدها. أمثال هؤلاء كانوا دائماً مضطهدينا، وكانوا غير عادلين، سيئي السمعة، الذين أنتم أنفسكم اعتدتم على إدانتهم، أما أولئك الذين ينتقدونهم على هذا النحو، فاعتدتم أن تُصلحوهم.

هذه الحقيقة تلقي الضوء على قيمة هذه التشريعات. وفضلاً عن ذلك، يثبت التاريخ أن القوانين يمكن إلغاؤها وقد أُلغيت بالفعل".

وقد اشتملت المقدمة على الفصول الستة الأولى. ثم يتناول ترتليانوس الجرائم السرية (الفصول ٧-٩).. ثم يعرض بتوسع للجرائم العامة التي اتُهم بها المسيحيون. فاتهموهم بأنهم يقتلون الأطفال لتقديمهم ذبائح وبغشيان المحارم.. وهي جرائم لم ترتكب قط. وطوال تلك الفترة كانت الشائعات هي المصدر الوحيد للجرائم المنسوبة إلى المسيحيين. إلا أن الوثنيين أنفسهم كانوا يرتكبون هذه الفظائع. أما الأكثر خطورة فهي الاتهامات الخاصة باحتقار ديانة الدولة، والخيانة العظمى. وقد أظهر ترتليانوس براعة في الدفاع -كمحام- ضد هذه الجرائم.

"إن المسيحيين يوقرون خالق العالم، الإله الحقيقي الوحيد الذي أعلن عن ذاته في الأسفار

المقدسة، ولذلك فإنه من الظلم اتهامهم بالإلحاد، بالنظر إلى أن ما يدعونها آلهة الوثنيين، ليست في الواقع آلهة، لأنها لا تزيد عن البشر الموتى. ولذلك فلا غرابة من السخرية من هذه الآلهة. وهذا الاعتراف بأن تلك التي يدعونها آلهة، ليست بآلهة، وردهم بأنه ليس هناك سوى الإله الواحد الذي نعبده، يكفي تماماً لدحض الاتهام بالخيانة والموجَّه لنا، ولاسيما بالنسبة لديانة روما. فإذا لم تكن آلهة بالقطع، إذاً فهي ليست قطعًا ديانة، وإذا لم تكن ديانة لأنها بالقطع ليست آلهة، إذاً نحن بالقطع لسنا مذنبين بالإساءة إلى ديانة. وعلى النقيض من ذلك فإن اللوم يرتد عليكم، لأنكم بعبادة شيء باطل، وإهمالكم الديانة الحقة، والإله الحقيقي، وفوق كل ذلك، بهجومكم عليها، فإنكم تقترفون ضد الله جريمة المروق والزندقة".

وهنا يطالب ترتليانوس بحرية العقيدة فيقول: "تأملوا هذا لأنه قد يشكل أيضًا جزءًا من الاتهام بالمروق- إلغاء حرية العقيدة، منع إنسان من اختيار إلهه، بحيث إني لا أعبد من أريد، بل أُجبر على عبادة من لا أريد، وما من أحد يرغب في قبول عبادة عن طريق القهر..، إننا وحدنا الذين يُحرَّم علينا أن يكون لنا دين من اختيارنا. نُتهم بأننا نُسيء إلى الرومانيين -ونحن لسنا من الرومانيين- لأننا لا نعبد آلهة الرومانيين. ونشكر الله لأنه إله الجميع، وأننا جميعًا له، سواء قبلنا ذلك أم رفضنا. غير أنه في نظركم فإنه من المشروع عبادة أي شيء مهما كان طالما أنه ليس الإله الحقيقي- كما لو أنه ليس إله الكل الذي نحن جميعًا له".

بعد ذلك يدحض ترتليانوس الاعتقاد العام القائل بأن الرومانيين يحكمون العالم لأنهم يوقرون الآلهة. فالإله الحقيقي وحده هو الذي يوكل السلطة الشاملة لمن يختاره. وليس العناد هو الذي يمنع المسيحيين من عبادة آلهة الدولة، بل إدراكهم بأن هذه عبادة شياطين. ولذلك فإنهم لن يقدموا ذبائح حتى من أجل الامبراطور. ولاسيما أن هذه الآلهة المزعومة عاجزة عن مساعدته، ورفضها لا يمكن أن يعد جريمة. بل على النقيض من ذلك، فإنهم يُصلّون إلى الإله الحقيقي من أجل الحاكم. وهنا يُرجع ترتليانوس كل سُلطة إلى الله فيقول:

"لأننا من أجل سلامة الامبراطور -نتضرع إلى الله، الإله الحقيقي، الإله الحي، الذي يفضل الأباطرة أنفسهم أن يساعدهم هو دون أية آلهة أخرى. وهم يعرفون من الذي أعطاهم الامبراطورية، وكبشر يعرفون من الذي أعطاهم حياة، إذ يشعرون أنه هو وحده الله الذي يسيطر عليهم دون سواه".

ولكي يبين أن المسيحيين ليسوا أعداءً للدولة ولا للجنس البشري، وأنه من الظلم الحكم بعدم مشروعية الاختلاط بينهم، قدَّم ترتليانوس وصفًا رائعًا للعبادة المسيحية فيقول:

"نحن مجتمع له شعور ديني مشترك. لنا وحدة في النظام، ورجاء مشترك. ونحن نلتقي في الاجتماعات أو الكنائس لكي نتقدم إلى الله في الصلاة، نجمع أنفسنا في حضرته، والله يُسر بذلك. ونحن نصلي أيضًا من أجل الأباطرة، ومن أجل وزرائهم، ومن أجل من هم في السُلطة، ومن أجل خلاص العالم، من أجل السلام على الأرض، ومن أجل تأجيل النهاية. نحن نلتقي لكي نقرأ كتاب الله، لنرى ما إذا كان ثمة شيء في طبيعة الأزمنة يدفعنا إلى التطلع إلى المستقبل أو أن نفتح أعيننا على الحقائق. وعلى أية حال، فإننا بهذه الأقوال المقدسة، فإننا نغذي إيماننا، ونرفع رجاءنا، ونقوي ثقتنا، فضلاً عن أننا ندعم تعليمنا بإطاعة وصايا الله. ورؤساؤنا هم شيوخ من الشخصيات المشهود لهم. أناس وصلوا إلى هذا الشرف ليس مقابل ثمن، بل بشخصياتهم لأنه لا شيء يخص الله يُعطى بثمن. حتى وإن كان ثمة صندوق من نوع ما، فإنه لا يجمع حصيلته من رسوم دخول، كما لو كانت الديانة تخضع لعقد. فكل رجل يقدم مرة في الشهر ما يقدر عليه، وإذا ما رغب في ذلك لأنه ليس أحد مجبراً على ذلك، لأنها تقدمة اختيارية. ويمكنك أن تسميه صندوق أعمال المحبة. لأن متحصلاته لا تصرف على الولائم أو الحفلات التي تقدم فيها المشروبات والمأكولات، بل تنفق على إطعام الفقراء، ودفن موتاهم، كما تنفق على الأطفال اليتامى الذين لا مأوى لهم، كما على العبيد الذين وصلوا إلى مرحلة الشيخوخة، أو المسجونين، والمعوزين شريطة أن يتم ذلك بغية محبة الله. وأعمال المحبة هذه (حيث إنها كذلك) تُعَد علامة لنا في نظر البعض حيث يقولون: "انظروا كيف يحبون بعضهم بعضًا - لأنهم هم أنفسهم يكرهون بعضهم البعض- وكيف أنهم على استعداد لأن يموت كل منهم في سبيل الآخر، أما بالنسبة إليهم، فإنهم على استعداد لأن يقتلوا بعضهم البعض".

أما في القسم الختامي (٤٦-٥٠) فإن ترتليانوس يدحض الفكرة القائلة بأن المسيحية إن هي إلا مجرد فلسفة جديدة. فالمسيحية أكبر بكثير من أن تكون مجرد تخمين عن أصل الإنسان. فالمسيحية إعلان إلهي. إنها الحق الذي أظهره الله. ولهذا السبب لا يمكن لمضطهديها القضاء عليها. لأن ذلك هو الطُعم الذي يجذب الناس إلى ديانتنا. فعددنا يزداد كلما قتلتم منا الكثيرين. فدماء المسيحيين إن هي إلاَّ بذار.

ونفهم من بعض فقرات في كتاب يوسابيوس المؤرخ القيصري "التاريخ الكنسي" أن كتاب ترتليانوس "Apologeticum" قد تُرجم إلى اليونانية، ولعل ذلك كان بعد ظهوره مباشرة. والترجمة - التي من المرجح أنها تمت في فلسطين- اختفت بعد ذلك بزمن طويل، غير أن وجودها يشير إلى أهمية عمل ترتليانوس. وكتابه Apologeticum يعد -بإجماع الآراء- درة وتاج كل أعماله الفكرية.

نظرًا للأهمية البالغة لكتاب Apologeticum، فإننا نجد كثيرًا من الاقتباسات مأخوذة منه وتظهر في أعمال كل من كبريانوس، لاكتانتيوس وچيروم، ولكنه استبعد أساسًا من المجموعات الأربع السابق ذكرها. وقد أضيف في وقت لاحق إلى مخطوطة Montepessulanus، وبذلك تم إدماجه -بمعرفة نسَّاخ لاحقين- في أعمال ترتليانوس. وتحتفظ بنصه مالا يقل عن ست وثلاثين مخطوطة وتشكل ما يعرف باسم (Vulgata recensio)، وقد استخدم هوپ (Hoppe) اثنين منها لطبعته الجديدة في (CSEL). إلا أنه يوجد نص آخر يختلف اختلافًا بيِّنًا عن Vulgata recensio وهو يقوم على أساس مخطوطة Fuldensis والتي اختفت تمامًا، والتي لا نعرف عنها سوى أنها كانت تضم Apologeticum و Adversus ludaeos ومع ذلك فقد وجدها في Fulda في خريف سنة ١٥٨٤م، حيث اطلع عليها فرانسيسكوس موديوس (Franciscus Modius) وقارنها بطبعة دو لابار De La Barre، وسجل ما لا يقل عن تسعمائة اختلاف. ثم أضافها فرانسيسكوس يونيوس Franciscus Junius كملحق للجزء الثاني من كتابه "ترتليانوس" الذي كان تحت الطبع في ذلك الوقت. وظهر في سنة ١٥٧٩م في فرانيكر Franeker . ثم أعيد طبعها بمعرفة ڤالتزنج Waltzing في متحف Belge (١٩١٢).

وجد "هوب" Hoppe في مكتبة بريمن Bremen Stadtbiblio thekو مخطوطة (C48) والتي تعيد على صفحاتها أرقام (١٣١-١٤٦) بداية مقارنة موديوس، والاختلافات للفصول (١-١٥). وقد اكتشف أ. سوتير A. Souter في مكتبة Kantons-bibtio thek بزيورخ مخطوطة Rhenauglensis والتي تحتوي على شذرة من Apologeticum (في الفصول ٣٨ و٣٩ و٤٠) ، وثبت أنه إن لم تكن تلك نسخة Fuldensis فإنها بكل تأكيد شاهد للتقليد الخاص بالنص... ومن هذا عرفنا أنه كانت في القرن العاشر ثمة مجموعتين مختلفتين من المخطوطات الأولى تمثلها Vulgata recensio والأخرى تمثلها Fuldensis.

(جـ) شهادة النفس

كان من عادة الفلاسفة الهيلِّينيين من أمثال بوسيدينيوس وفيلو وكريسيبوس وسينيكا وغيرهم، أن يستخلصوا معرفة الله من العالم الكبير Macrocosm، ومن الإنسان بوصفه صورة للعالم الصغير Microcosm، من الكون الكبير، والعالم الصغير للنفس البشرية. وقد اتبع ترتليانوس هذا النهج. ونعرض فيما يلي ملخصًا لما جاء في الفصل السابع عشر من كتابه Apologeticum:

"أتفضل أن تحصل على الدليل من أعمال يديه، العديدة جداً، والعظيمة للغاية والتي تضمك كما تعينك. والتي تعمل كلها من أجل سعادتك، وتبعث فيك الرهبة من الله. أم تفضل أن تحصل عليه من شهادة النفس ذاتها؟ على الرغم من أنها تحت

عبودية شديدة الوطأة للجسد، وعلى الرغم من أنها كثيراً ما تضل نتيجة العادات الفاسدة. وعلى الرغم من وهنها نتيجة الشهوات والأهواء، وعبوديتها للآلهة الزائفة، فإنها حين تعود إلى ذاتها، فإنها تشعر كما لو كانت عائدة من تخمة أو نوم أو مرض، ولكنها حين ترجع إلى حالتها الصحية الطبيعية تراها تتحدث عن الله، ولا تستخدم أية كلمة أخرى لأن هذا هو الاسم الصحيح للإله الحقيقي. "الله العظيم"، الله الصالح. وبحسب ما يعطي الله! تجدها الكلمات التي تتردد على كل لسان. وهذه تحمل أيضًا الشهادة بأن الله قاض، حيث تهتف: "الله يرى"، "إني أسلم نفسي لله"، و "الله سوف يكافئني". ويالها من شهادة نبيلة بأن النفس بطبيعتها مسيحية!". (١٧:٤-٦).

وتلك الحجة التي نجدها في Apologeticum تم التوسع فيها وعولجت في عمل خاص تحت عنوان "شهادة النفس" وقد كُتبت في سنة ١٩٧م، وهي نفس السنة التي كُتب فيها Apologeticum.

والطابع الدفاعي الذي تتسم به هذه الرسالة واضح من محاولة الكاتب استخدام النفس التي لم تفسدها التربية، كشاهد على وجود الله وصفاته، وعلى الحياة بعد الموت، وعن الثواب أو العقاب في العالم الذي هو ما بعد الموت. وتتكون هذه الرسالة من ستة فصول.

وعلى النقيض من الآباء المدافعين اليونانيين يشدد ترتليانوس على عقم اللجوء إلى الفلسفة. فالطبيعة في نقائها وبساطتها تعد شاهداً للحق أفضل من كل تعليم فيقول: "أنت (أيها النفس)، كما أعرف جيداً لست مسيحية، لأن الإنسان يصبح مسيحياً، ولا يولد مسيحيًا" (الفصل الأول). وعبارة (anima naturaliter christiana) "أي النفس بطبيعتها مسيحية" لا تشير بداهة إلى أية معرفة بالله، وإنما تعني بالأحرى الإدراك التلقائي للخالق بشكل مباشر من الكون، ومن الاختبار، ومما تثبته أمارات الإعجاب التي تصدر عن الناس يوميًا. وهكذا فإن الفطرة السليمة تعرفنا بوجود "الكائن الأسمى". وقد اختلف النقاد في حكمهم على هذه العبارة القصيرة، فقد بدت ضعيفة عند البعض، بينما وجدها آخرون نفيسة للغاية. فمن بين كل أعمال ترتليانوس كانت هذه أعمقها، ولاقت أكبر استحسان، والدلائل التي ذكرها قد تكون غير كافية، إلا أن البرهان النفسي يلقى الاقتناع به حتى من القاريء الحديث.

(د) إلى سكابولا

كتب ترتليانوس إلى سكابولا Scapula الوالي (٢١١-٢١٣م) خطاباً مفتوحًا. كان سكابولا واليًا لأفريقيا، بدأ يضطهد المسيحيين، وبالغ في ذلك حتى إنه كان يلقي بهم للوحوش الضارية أو يحرقهم حتى الموت. ويبدو أن ترتليانوس كتب له

ذلك الخطاب في سنة ٢١٢م، لأنه يشير إلى الكسوف الكلي الذي وقع في ١٤ أغسطس سنة ٢١٢م، كعلامة على الغضب الإلهي. ويأتي في خمسة فصول.

كتب ترتليانوس: "إنه حق جوهري للإنسان، أو امتياز طبيعي أن كل إنسان يؤدي العبادة طبقًا لمعتقداته: ذلك أن ديانة إنسان لا تضر، ولا تساعد إنسانًا آخر. ومن المؤكد أنه ليس من الديانة في شيء أن تفرض الديانة فرضًا".

يشدد ترتليانوس في المقدمة إنه لم يكتب رسالة لدافع شخصي، ولا كإنذار عن الاضطهادات، بل كان دافع كاتبها المحبة المسيحية لأعدائه والاهتمام بهم. وإجبار المسيحيين على تقديم الذبائح أمر غير معقول ويتناقض مع الحقوق الأساسية لحرية الضمير والفكر. فالمسيحيون ليسوا أعداءً لأحد ولاسيما امبراطور روما، الذي يعرفون أنه معين من قبل إلههم ولذلك ليس أمامهم سوى أن يحبوه ويبجلوه، وفضلاً عن ذلك عليهم بالضرورة أن يطلبوا سلامته وسلامة الامبراطورية التي يحكمها طالما بقى العالم، لأن روما ستستمر. وفي الفصل الثاني يعرض للصلوات والذبائح التي ترفع من أجل سلامة الامبراطور، ولكنها ترفع إلى الله الذي يعبده المسيحيون، وطبقًا للطريقة التي أوصى بها الله، وفي صلاة بسيطة. لأن الله خالق الكون ليس في حاجة إلى روائح ودماء، لأن هذه طعام الشياطين.

إنه لما يحزن المسيحيين أنه ما من دولة تسفك دم المسيحيين وتمضي بلا عقاب لهذا الإثم. وتوجد بالفعل علامات على غضب الله الوشيك. ويتوقع ترتليانوس موضوعًا أفاض لاكتانتيوس الحديث فيه في كتابه "موت المضطهِدِين" حيث أشار إلى موت بعض حكام المقاطعات الذين شعروا في ساعاتهم الأخيرة بذكريات أليمة لخطيتهم المتمثلة في اضطهاد أتباع المسيحيين (الفصل الثالث).

أما الفصل الرابع فيُستهل بتحذير واضح: "نحن الذين بلا خوف، لا نسعى لكي نُخيفك، إلا أننا نريد خلاص كل الناس لو أمكن وذلك بتحذيرهم من مغبة محاربة الله". (وقد اقتبس هذا باليونانية مما جاء في سفر الأعمال" لئلا توجدوا محاربين الله" (أعمال ٥:٣٩). ويمكن للولاة دائمًا أن يزاولوا واجبهم وذلك في إطار تذكرهم لمتطلبات النواحي الإنسانية. ويتصرف سكابولا ضد التعاليم التي سبق أن أصدرها بنفسه إن أجبر المسيحيين على إنكار المسيح.

أما في الفصل الأخير فإنه يحذره أن ينقذ قرطاجنة، إن لم يكن يريد إنقاذ نفسه. فالقسوة لا تنفع، بل سوف لا تؤدي إلاَّ إلى زيادة عدد المؤمنين فيقول:

"ولا سيد لنا سوى الله، وهو قبلك، وهو ليس بخفي عنك، ولست بمستطيع أن تلحق به أي أذى.

غير أن الذين تعبدهم أنت أسياداً، إن هم سوى بشر، وسيأتي اليوم الذي من المحتم أن يموتوا فيه. غير أن هذا المجتمع لن يموت، وكن على ثقة من أنه في الوقت الذي يبدو فيه وكأنه قد انهار، سيبني فيه ليصبح ذا قوة أعظم. لأن كل الذين شهدوا الصبر النبيل الذي تحلى به شهداؤه يساورهم الشك، وتأخذهم الرغبة الحميمة لفحص هذا الموضوع، وحالما يعرفون الحقيقة يسرعون بقيد اسمهم كتلاميذ له". (الفصل الخامس)

(هـ) ضد اليهود

كان الدافع وراء كتابة هذا الموضوع، هو النزاع الذي نشب بين أحد المسيحيين، وأحد اليهود الدخلاء، ذلك النزاع الذي استمر طيلة النهار وحتى المساء. حيث "بدأت سحابة ما تلقى بظلالها على الحقيقة".

كتب ترتليانوس: "لذلك كان من دواعي سرورنا- أن ذاك الذي لم يمكن توضيحه بالكامل بنداً بنداً نتيجة الضوضاء والتشويش الذي نتج عن النزاع- أن نرى أنه يجب أن ندقق النظر فيه بكل عناية، وأن القلم يجب أن يحدد المسألة المطروحة، بهدف قراءتها. وكان هدف الفصول الثمانية الأولى أن تبين أنه بالنظر لابتعاد إسرائيل عن الرب ورفضها نعمته، فلم يتبق للعهد القديم أي نفوذ سوى أنه يجب تفسيره روحياً، ولهذا السبب دُعي الأمميون (الفصل الأول).

وكان الناموس موجوداً قبل موسى- ذاك الذي أعطاه الله لجميع الأمم. ولقد سُن التشريع أولاً لآدم وحواء في الجنة، وكان هذا بمثابة الرحم لكل المبادىء الإلهية القاطعة. وفضلاً عن ذلك فإن ناموس اليهود المكتوب على ألواح حجرية، جاء بعد ذلك الذي لم يكن مكتوباً، الذي هو ناموس الطبيعة. وبناء على ذلك لم يكن السابق ضرورياً للخلاص، فالختان (الفصل الثالث)، وحفظ السبت (الفصل الرابع)، والذبائح القديمة (الفصل الخامس)، كلها أُبطلت، والناموس القائل عيناً بعين خضع لناموس المحبة. ومعطي هذا العهد الجديد، الذي هو كاهن الذبيحة الجديدة، والذي يحفظ السبت الأبدي كان قد ظهر بالفعل (الفصل السادس)- المسيح الذي تنبأ عنه الأنبياء باعتباره الملك الأبدي لملكة أبدية (الفصل السابع). كما تنبأوا عن زمن ولادته، وعن آلامه، وخراب أورشليم الذي تنبأ عنه دانيال (الفصل الثامن)". ويعد كتاب يوستينوس "حوار مع ترايفو" (Trypho) هو المصدر الرئيسي لهذا القسم.

أما الفصول (٩-١٤) فيعرض فيها البراهين على أن النبوات المسيانية قد تحققت في مخلصنا (المسيح). ويرى كواستن -بل ويؤكد- أنها منحولة، فهي مجرد اقتباسات من الجزء الثالث من كتاب ترتليانوس "في مواجهة المارقيونية"، وتمثل محاولة ضعيفة لإتمام العمل.

٢- كتابات ضد الهرطقات

أ- وصف الهراطقة

توضح رسالة De Praescriptione haereticorum حرم (استبعاد) الهراطقة معرفة ترتليانوس العميقة بالقانون الروماني بأكثر مما توضحه كل أعماله الأخرى. وكان من المفترض أن تنهي الرسالة النزاع بين الكنيسة وجميع الهراطقة، وذلك بتقديم الحجة الفنية والقانونية، أي الاعتراض القانوني الذي بواسطته يرغب المدَّعى عليه إبطال القضية بالصيغة التي قدمها بها المحامي. وهذا ما يؤدي إلى رفض تام للقضية. وهذا الاعتراض القانوني يجب أن يقدم كتابة بالصياغة القانونية. فطبقًا لما يقوله ترتليانوس، فإن الخصم لا يستطيع استخدام الأسفار المقدسة -وهي موضع النزاع بين الكنيسة وخصومها- لسبب بسيط هو أن الكتاب المقدس ليس كتابه.

ولذلك نأتي إلى (أساس) موقفنا، لأنه عند هذه النقطة التي نستهدفها، والتي من أجلها كنا نعد في مستهل خطابنا الذي أكملناه للتو (الفصول ١-١٤) -حتى نستطيع الآن أن ننضم إلى موضوع النزاع الذي يتحدانا به خصومنا. لقد قدَّموا الأسفار المقدسة، وهم بوقاحتهم هذه تمكنوا في الحال من التأثير على البعض. ومع ذلك، فإنه في المواجهة نفسها فإنهم ينهكون القَوى، ويصيدون الضعيف، ويصرفون المتقلقلين وقد تملكهم الشك. ولذلك فإننا عارضناهم بالنسبة لهذه الخطوة قبل أي شيء آخر. وهكذا لم نسمح لهم بأية مناقشة للأسفار المقدسة.

وإذا كانت تلك هي مصادرهم، وقبل أن يتمكنوا من استخدامها، فيجب أن يُعرف بكل وضوح من الذين يمتلكون الأسفار المقدسة، حتى لا يُسمح لأحد باستخدامها (تفسيرها) ولاسيما أولئك الذين ليس لهم الحق إطلاقًا في هذه الميزة.

لقد أقر الرسول بولس (ارجع إلى تيموثاوس الأولى ٦: ٣و٤، تيطس ٣: ١٠) على استبعاد الهراطقة من استخدام الأسفار المقدسة (الفصل السادس عشر)، لأنهم لا يستخدمونها بل يسيئون استخدامها (الفصل السابع عشر). فثمة خطر عظيم يلحق بضعيف الإيمان من أية مناقشة من الأسفار المقدسة مع أمثال أولئك الناس، ولا يأتي الإقناع إطلاقًا للمنشق من خلال عملية كهذه (الفصل الثامن عشر). والكتاب المقدس لا ينتمي إلا لمن لديهم قانون الإيمان، والسؤال الذي يبرز الآن هو: مما، وعلى يد من، ومتى، وإلى من سُلِّم هذا القانون والذي بمقتضاه يصبح الناس مسيحيين؟ لأنه حيثما يتضح ذلك، سيتضح القانون والإيمان المسيحيان الحقيقيان. وستتضح الأسفار المقدسة الحقيقية وتفسيراتها أيضًا. وكذلك كل التقاليد المسيحية (الفصل العشرون). وقد وضع ترتليانوس قاعدتين للحرم -كما بيَّن ج. شتيرنمان

K. Stirnimann– واللتين تجـردان جـمـيع النظم الهرطوقية من أساسها.

القاعدة الأولى للحرم: أرسل المسيح تلاميذه باعتبارهم الكارزين بالإنجيل، ولهذا السبب ليس أحد بخلاف الذين عينهم السيد المسيح يجب قبوله ككارز له.

القاعدة الثانية للحرم: قام الرسل بتأسيس الكنائس، وأعلنوا لهم الأناجيل، وفوضوهم بإعلانه للآخرين. ولهذا السبب فإن هذا الذي كرزوا به – وبعبارة أخرى ذاك الذي أعلنه لهم المسيح– لا يمكن، – وهذا ما يجب أن أقول أنا به أيضًا– أن يتم إثباته بشكل صحيح، إلاَّ بواسطة نفس هذه الكنائس التي أسسها الرسل بأنفسهم. في حين أن كل تعليم يجب أن يحكم عليه مقدمًا بأنه زائف. إذا ما كان به أي تعارض مع الحق الذي تنادي به الكنائس ورسل المسيح والله (الفصل الحادي والعشرون). إلا أن ترتليانوس يعلن أنه على استعداد لأن يفسح المجال لفترة للجانب المعارض (الفصل الثاني والعشرون) .

وقد أجاب عن سؤالين ، أولاً : لم يكن التلاميذ ناقلين أمناء للحق من ناحية أنهم كانوا يجهلون أشياء معينة ، أو أنهم لم يوصلوا كل ما كانوا يعرفوه للجميع (الفصول ٢٢ – ٢٦) ، ثانياً : إن الكنائس لم تكن أمينة فى تسليم وديعة الإيمان (الفصل السابع والعشرون) . إنه لمن الوقاحة الاعتقاد أن الإعلان الإلهى اضطر أن ينتظر بعض الهراطقة ليحرروه ، وأن الإنجيل خلال هذه الفترة قد حُرِّف . فى كل الأحوال ، لابد أن يعلو الحق على الباطل ، والوجود السابق لوجود الكنيسة يعد دلالة على نقائها (الفصل التاسع والعشرون) . والمثل الذى ذكره السيد المسيح يتحدث عن البذار الجيدة قبل أن يتحدث عن الزوان ، الذى لا نفع منه ، الأمر الذى يشير إلى أن ما قُدم أولاً كان من الرب وكان حقاً ، أما الذى قُدِّم بعد ذلك فهو غريب وزائف .

ومبدأ أولوية الحق، والتأخير النسبي للباطل يقف في مواجهة كل الهرطقات (الفصل الحادى والثلاثون) . ولم تتسامح الكنيسة إطلاقًا بالنسبة لأي تغيير في الأسفار المقدسة، في حين أن المعارضة عبثت بها وحرفتها (الفصل الثامن والثلاثون). إلاَّ أنه لا يوجد سوى خلاف بسيط بين المنشقين حول الموضوعات المتعلقة بالإيمان والوثنية. كلاهما معولان للهدم والتخريب، وكلاهما مولود من الشيطان (الفصل الأربعون). وسلوك الهراطقة مشين، لأنهم فقدوا مخافة الله (الفصول ٤١–٤٤). وثمة قول في الخاتمة (الفصل الرابع والأربعون) يشير إلى أن كتاب حرم الهراطقة (De Praescriptiene) لا يشكل سوى مقدمة عامة يجب اتِّباعها في المستقبل القريب بمعالجة واضحة للأخطاء المختلفة: وبالنسبة للموضوع الراهن، فالواقع أن رسالتنا قد اتخذت بالأحرى موقفًا عامًا

ضد الهرطقات (مبينة أنه يجب) دحضها جميعًا على أساس إدانة محددة وعادلة وضرورية، دون أية مقارنة بالأسفار الإلهية. أما بالنسبة للهرطقات الأخرى، فإذا سمحت نعمة الله، فلسوف نعد إجابات عن سن هذه الهرطقات في رسائل منفصلة.

ويعد كتاب "حرم الهراطقة" هو أكثر كتابات ترتليانوس من حيث الاهتمام والتميز والقيمة. وقد اكتسبت الأفكار الرئيسية لهذه الرسالة إعجابًا شديداً في ذلك الحين. ولا نعرف على وجه التحديد تاريخًا لها، إلا أنه يمكن ردها إلى الفترة التي كان يتمتع فيها بأفضل علاقة بكنيسته، وربما كان ذلك في نحو عام ٢٠٠م.

وقد أُضيفت في نهاية الكتاب عدة فصول (الفصول ٤٦-٥٣) وتضم اثنتين وثلاثين هرطقة.

ب- ضد مارقيون

(يمكن الرجع إلى الفصل السادس من الجزء الأول الخاص بهرطقات قبل عصر نيقية لدراسة فكر مارقيون).

تعد هذه الرسالة أطول أعمال ترتليانوس، وهي إحدى "الرسائل المنفصلة" التي كتبت ضد هرطقات معينة، والتي وعد بها في خاتمة رسالته "حرم أو استبعاد الهراطقة" التي سبق وأن درسناها. ولرسالة ضد مارقيون أهميتها البالغة لأنها تشكل المصدر الرئيسي لمعرفتنا بهرطقة مارقيون. وهي تتكون من خمسة كتب.

في **الكتاب الأول** كتب ترتليانوس: "لقد أعلنت الحقيقة المسيحية بكل جلاء هذا المبدأ: الله لا يكون هو الله إن لم يكن واحداً، لأننا وعلى وجه صحيح للغاية نؤمن ونؤكد أنه لا وجود لمن لا يوجد كما ينبغي.. وهذا الكائن الذي هو (الكائن الأسمى)لابد وأن يكون متفرداً، وذلك بألا يكون ثمة مساوٍ له وبذلك لا ينقطع أن يكون الكائن الأسمى".

إن ترتليانوس يدحض فكرة الثنائية بين إله العهد القديم وإله العهد الجديد، تلك الفكرة التي نادى بها مارقيون. ويخلُص إلى أن خالق العالم هو الإله الصالح، وهو ما يوضحه في **الكتاب الثاني**.

أما في **الكتاب الثالث** فيرد ترتليانوس على الادعاءات التي قال بها مارقيون عن شخص السيد المسيح، فيفند ادعاءاته بأن المسيا الذي تنبأ عنه العهد القديم لم يأتِ بعد، فيوضح ترتليانوس أن المسيح الذي جاء إلى الأرض هو المخلص الذي تنبأ عنه الأنبياء، والذي أرسله الخالق.

أما في **الكتابين الرابع والخامس** فيعرض تعليقًا نقدياً على العهد الجديد الذي جمعه مارقيون. فيثبت أنه لا تعارض بين العهد القديم والعهد الجديد، بل إنه حتى نصوص العهد الجديد التي اختارها مارقيون تدحض تعاليمه الهرطوقية.

والرسالة طُبعت ثلاث طبعات ، ويقول ترتليانوس إنه أضاف الكثير في التنقيح الأخير

(وطبقاً لما يقوله العالم Gilles Quispel العالم البارز فى تاريخ الأديان بجامعة انترخت فى هولندا، بأنه يتألف من الكتابين الرابع والخامس). إذ يبدو أن الطبعة الأولى لم تكن تتضمن سوى الكتاب الأول ، أما الطبعة الثانية فيُفترض أنها تتناول الموضوع بكثير من التفصيل ، مما أدى إلى ظهور الكتاب الثانى . غير أن عملية التنقيح التى أجراها ترتليانوس في الطبعة الثالثة تطلبت إعادة صياغة المادة كلها، وكان من شأن ذلك أن توسع الكتاب الأول إلى كتابين: الكتاب الأول والكتاب الثاني، وأضيف كتابان: الرابع والخامس.

أما الكتاب الثالث فقد استخدم كتاب يوستينوس "حوار مع تايفو" (-Dialogue with Ty pho) كمصدر أساسي، كذلك استخدم كتاب إيريناوس "ضد الهرطقات". وقد استخدم في الكتاب الرابع كتاب Antitheses لمارقيون، وهي النسخة التي كونها للعهد الجديد، واستخدم نصاً يونانياً من نفس الكتاب. ولذلك فإن هذا القسم من الكتاب يكتسب أهمية خاصة فيما يتعلق بتاريخ النص الكتابي. أما فيما يتعلق برأي هارناك والقائل بأن ترتليانوس كان يستخدم الترجمات اللاتينية، فإن التعبيرات اليونانية الواضحة التي استشهد بها من كتاب "Antithesis" تدحض هذا الرأي بشكل قاطع، على الأقل بالنسبة لهذا العمل. أما كويسبل فيذهب إلى أبعد من ذلك، حيث يرى أن الاقتباسات الكتابية سواء المارقيونية أو النص المأخوذ من نفس الكتاب قام ترتليانوس نفسه بنقلها ولم يعتمد على ترجمات كانت قائمة من قبل. ونفس الشيء ينطبق على الكتاب الخامس الذى يعرض للطبعة المارقيونية لرسائل الرسول بولس. وربما كان ترتليانوس على معرفة بوجود ترجمة يونانية للكتاب المقدس، وكان يرجع إليها بين وقت وآخر، إلا أن نصوصه تختلف بشكل جوهري عن نصوص كبريانوس وعن الڤولجاتا.

ويقدم الكاتب دليلاً على أنه كتب الكتاب الأول في السنة الخامسة عشرة للامبراطور ساويرس أي في سنة ٢٠٧م. وقد توالت الكتب الأخرى على فترات قصيرة، باستثناء الأخير حيث كتبه بعد "عن القيامة" De resurrectione، كما أشار إلى ذلك. وهكذا نصل إلى نحو سنة ٢١٢م. وهو ما يتفق والمونتانية التي لمسناها في فقرات معينة.

ونعرف مما كتبه يوسابيوس المؤرخ القيصري في كتاب (تاريخ الكنيسة ٤:٢٤) أن ثاؤفيلس الأنطاكي قد وضع مؤلفًا بعنوان "ضد مارقيون" ومما يدعو للأسف أن هذا الكتاب قد فُقد. ولعل ترتليانوس استند إلى هذا الكتاب في كتابه الثاني.(ارجع إلى الجزء الثالث : الكنيسة في أنطاكية) .

جـ- ضد هرموچينس

لم يكن ترتليانوس هو أول من كتب ضد

الرسـام الغنوسي هرمـوچينس القـرطاجنى . إذ يذكر يوسابيوس المؤرخ أن ثاؤفيلس الأنطاكى قد سبقه إلى ذلك وكتب « ضد هرطقة هرموجينس » . والكتاب الأخير بالرغم من عدم وجوده الآن ، إلا أنه ربما كان معروفاً لكاتبنا واستخدمه كأحد مراجعه . (انظر الجزء الثالث : الكنيسة فى أنطاكية) .

كان هرموجينس يقول بخلود المادة ، حيث جعلها مساوية لله ، وبذلك جعل ثمة إلهين ، وطبقاً لما ذكره ترتليانوس فإن هرموجينس استمد تعليمه من الفلسفة الوثنية .

وفى كتابه « النفس » (De anima) يشير ترتليانوس عدة مرات إلى أنه نشر كتاباً آخر ضد هرموجينس عن أصل النفس De censu anima ولكنه لم يحفظ .

د- ضد أتباع ڤالنتينوس

يعد هذا الكتاب تعليقًا ساخرًا على عقيدة تلك الشيعة الغنوسية، وهو يعتمد في ترتيبه ومادته بشكل وثيق على الكتاب الأول لإيريناوس "Adversus haerses"، إلاَّ أنه استخدم أيضًا كتابات كل من يوستينوس الشهيد، وميلتيادس Mel-tiades، وبروكولوس Proculus، كما يذكر ترتليانوس نفسه ذلك.

تتألف الرسالة من تسعة وثلاثين فصلاً، من بينها المقدمة (الفصول ١-٦) والتي تعطي الانطباع باستقلالية أعظم، حيث يشرح المؤلف الطابع السري لأتباع ڤالنتينوس.

كان ترتليانوس قد أشار إلى رغبته في أن يكتب عملاً أكثر أهمية من هذا العمل، وفي نفس الموضوع، لذا أطلق عليه" أول سلاح على الإطلاق تسلحنا به لهذه المواجهة (الفصل الثالث) . وتحدث عنه قائلاً: "هذا العمل الصغير الذي لم نقصد به سوى أن نقدم هذا السر" (الفصل السادس).. ويتعين عليَّ أن أؤجل كل مناقشة وأقنع في الوقت الحاضر بمجرد الشرح.. ليعتبره القاريء بمثابة المناوشة التي تسبق المعركة.

هـ- عن المعمودية

يعتبر كتاب عن المعمودية (De baptismo) على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتاريخ المعمودية والتثبيت. وهي الرسالة الوحيدة السابقة لمجمع نيقية في ٣٢٥ م والتي تتناول أيًا من الأسرار المقدسة (تؤمن الكنائس التقليدية بها والمعروفة بالأسرار السبعة). ويمكن تصنيف الرسالة في إطار الكتابات المناوئة للهراطقة. وقد كتبها للرد على الهجمات التي شنتها "كوينتلا" في قرطاجنة، وكانت عضواً في شيعة كايوس، حيث قدمت اعتراضات عقلانية، وقد أغوت كثيرين بتعليمها المسموم. وكان هدفها الأول القضاء على المعمودية (الفصل الأول). فكان رد ترتليانوس

عليها بهذا الكتيب الذي يضم عشرين فصلاً، يتحدث فيه كمعلم لطالبي المعمودية: "ورسالة عن هذا الموضوع لن تكون غير ضرورية، ذلك أنها تعلم من قبلوا الإيمان حديثًا، وأولئك الذين قنعوا باعتقاد بسيط، ولم يبحثوا في أسس التقليد، ويحملون إيمانًا جديرًا بالتصديق، ولو أنه لم يجرب نتيجة عدم الخبرة "(الفصل الأول).

كيف يمكن أن يتأتى نتيجة غسل الجسم بالماء تطهير للنفس وخلاص من موت أبدي؟ من الواضح أن هذا كان من بين الاعتراضات، ولذلك فإنه يبدأ الفصل الأول بتعجب "سر مقدس بهيج من مائنا، تغسل فيه خطايا جهالتنا السابقة، وتحرر من أجل حياة أبدية "، ويختتم الفصل الثاني بقوله: " وُلدنا فى الماء، ولا نكون آمنين إلاَّ إذا أقمنا في الماء". إن حقيقة أن الله يستخدم وسائل مألوفة في حياتنا اليومية لا يجب أن تكون حجر عثرة للعقل البشري لأن الله يختار الأدنياء والمزدري لتحقيق مقاصده (الفصل الثاني).

والماء منذ بداية العالم عنصر مفضل، ومعطٍ للحياة (الفصل الثالث). قدسه الخالق واختاره أداةً لقوته (الفصل الرابع). ومنذ أن رفَّ روح الله على وجه المياه في البدء، أصبح الماء رمزًا للتطهير، والطقوس الوثنية إن هي إلا تقليد شيطاني للسر المقدس، بل وحتى المعتقدات الشعبية تشهد على ذلك (الفصل الخامس). والذي يعطي النعمة ليس مجرد الطهارة البدنية، بل العمل المقدس المقترن بصيغة الثالوث القدوس (الفصل السادس). وبعد المعمودية مباشرة تتم عملية المسحة المقدسة (الفصل السابع)، ثم سر التثبيت، الذي فيه يمُنح الروح القدس بوضع الأيادي (الفصل الثامن).

وعبور البحر الأحمر، وتدفق الماء من الصخرة (الفصل التاسع) . وكذلك المعمودية التي كان يعمد بها القديس يوحنا (الفصل العاشر) كانت ترمز إلى المعمودية المسيحية، ويجيب الكاتب هنا على الاعتراض القائل بأنه مادام المسيح لم يمارس بنفسه هذه الفريضة، إذًا فإنها ليست ضرورية للخلاص (الفصل الحادي عشر).

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الرد على المشكلة القائلة: " ما دام ليس بمقدور أحد أن يحصل على الحياة الأبدية بدونها، فكيف خلص الرسل إذًا؟ لأننا نجد أنه لم يتعمد منهم سوى بولس " (الفصل الثاني عشر) فيرد ترتليانوس قائلاً إنها لم تكن شرطًا قبل قيامة الرب (الفصل الثالث عشر). وتأكيد الرسول بولس على أنه لم يُرسل ليعمد (١كورنثوس ١٧:١) ، يجب فهمه على نحو سليم (الفصل ١٤). لا توجد سوى ولادة ثانية واحدة فقط، وهي الولادة التي من الكنيسة (الفصل الخامس عشر). والكاتب ينكر صحة طقس الهراطقة دون الدخول في التفاصيل لأنه سبق وأن ناقش هذا الأمر بتفصيل

تام باليونانية، كما يشير هو نفسه إلى ذلك (الفصل الخامس عشر). وثمة استثناء واحد فيما يتعلق بضرورة المعمودية بالماء، وهو الاستشهاد، والذي يسميه "المعمودية الثانية" أو معمودية الدم (الفصل السادس عشر)، وخادم المعمودية المعتاد هو الأسقف. كما أن الشيوخ والشمامسة يتمتعون بهذا الحق، ولكن ليس بدون السلطة العادية (الفصل السابع عشر). بل إن العلمانيين يملكون السلطان "لأن ما يقبل بالتساوي يمكن أن يعطي بالتساوي".. فالمعمودية التي هي فريضة إلهية يمكن أن يمارسها الجميع.. ومن المؤكد أن الاستفادة من هذه الميزة لا تكون إلا في حالات الضرورة، إذا ما فرضت ذلك ظروف المكان أو الزمان أو ظروف الشخص نفسه. لأنه سيرحب بجرأة المعاون على ذلك إذا كانت حالة الشخص خطيرة حرجة، لأنه سيكون آثماً إذا ما تراجع عن إعطاء ماله حرية خالصة في إعطائه. ولا يجب التسرع في أداء هذا السر المقدس. ويجب فحص إيمان الشخص المتلقي بكل دقة. ولهذا السبب لا يفضل الكاتب معمودية الأطفال. لأنه لماذا تكون ضرورية، إذا لم تكن عاجلة، حتى إن الوالدين يمكن أن يلقوا في الخطر؟ إذ ربما بسبب الموت قد لا يحققون ما قطعوه على أنفهسم من وعود. وقد يخيب رجاؤهم نتيجة تولد ميل شرير فيهم، لقد قال الرب بالفعل "لا تمنعوهم" دعوهم "يأتون إليَّ"، حينئذ، وفيما هم يكبرون، دعوهم "يأتون"، فبينما يتعلمون إلى أين هم "آتون"، ليصبحوا مسيحيين، حين يصبحون قادرين على معرفة المسيح.. ولماذا تسرع فترة الحياة البريئة إلى "مغفرة الخطايا"؟ (الفصل الثامن عشر).

أما المواعيد الطقسية لهذا السر، فهما "عيد القيامة" و "الخمسين"، إلا أن كل الأوقات تعد مناسبة لها.. وقد يكون ثمة فرق في الممارسة، إلا أنه ليس ثمة أي تمييز في النعمة (الفصل التاسع عشر). أما الفصل الأخير فيتناول الإعداد لتقبل السر المقدس (الفصل العشرون).

و- ترياق ضد لدغة العقرب

إن العنوان الذي تحمله هذه الرسالة الصغيرة هو "Scorpiace" أي ترياق ضد لدغة العقرب. وتتألف الرسالة من خمسة عشر فصلاً. وهي دفاع عن الاستشهاد وضد الغنوسيين، الذين شُبهوا بالعقارب. فهم يعارضون التضحية بالحياة كأمر غير ضروري. ولم يطلبه الله. ومع هذا أصبح الأمر واجباً على كل المسيحيين طبقاً لما يقوله ترتليانوس، حين لا يكون ثمة أي مَخرج آخر لتفادي المشاركة في عبادة الأوثان. حتى في العهد القديم، كان الموت يُفضل عن الارتداد (الفصول ٢-٤). إنه لتجديف أن نقول مع الغنوسيين إن منظراً كهذا يُظهر الله قاتلاً. فالاستشهاد هو ميلاد ثان، ويكسب للنفس وجوداً أبدياً. وثمة دلالة على أن الرسالة كتبت إبان اضطهاد ما. ولعله كان

الاضطهاد الذي تزعمه سكابولا (Scapula) في سنة ٢١٣م.

ز- عن جسد المسيح

ترتبط رسالته عن جسد المسيح (De Carne Christi) بالرسالة التالية لها (De resurrectione Carnis) عن قيامة المسيح بالجسد ارتباطًا وثيقًا. وهما يشكلان حجة لا تدحض على قيامة جسد المسيح. وبدلاً من الاعتراف بهذه العقيدة أنكر الهراطقة حقيقة جسد المسيح، وبهذا أحيوا أخطاء الدوسيتية Docetic.

ويشير ترتليانوس في رسالته "عن قيامة المسيح بالجسد" في الرسالة موضع دراستنا ويطلق عليها:

De Carne Domini adversus quattuor haereses

إلى أربع شيع غنوسية وهي شيع مارقيون Marcion وأبلليس Apelles، وباسيليدس Basilides وفالنتينوس Valentinus. ويظهر غرض الكاتب في الفصل الأول من عبارات مثل: "لنفحص طبيعة جسد ربنا، لأن الجميع اتفقوا على طبيعته الروحية. وجسده هو الذي موضع تساؤل. ونقاط الخلاف تدور حول حقيقته وطبيعته. هل كان له جسد حقًا؟ ومن أين حصل عليه؟ ومن أية طبيعة كان؟ وإذا ما نجحنا في توضيح ذلك، فإننا سنضع قانونًا لقيامتنا نحن". ولقد كرَّس الرسالة برُمتها للإجابة عن هذه الأسئلة الثلاثة. حيث برهن على أن السيد المسيح قد ولد حقًا، وأن ميلاده في الجسد ممكن، وأنه عاش ومات وقام في جسد بشري، وهكذا دحض أفكار مارقيون وأفكار الدوسيتية. ومع أنه سمي ملاك الرب، فإن طبيعته لم تؤخذ من الملائكة. ولم تؤخذ من النجوم كما قال أبلليس، ولا من مادة روحية كما يدَّعي فالنتينوس، لأنه أصبح مثلنا في كل شيء ما عدا الخطية فحسب. ومن جهة أخرى، لم يؤخذ من أصل بشري. وهكذا فإن جسد آدم الأول وجسد آدم الأخير لم يكن لهما أب أرضي.

ويشير ترتليانوس إلى عدم أمانة الغنوسيين الذين قالوا بأن المسيح لم يحصل على أي شيء من السيدة العذراء وأنه ولد "من خلال" أو "في" وليس "من" العذراء. ودافع عن أمومتها الحقيقية. وقد شدد على بشرية جسد المسيح بكل قوة حتى ادَّعى أنه قبيح الشكل: "جسده لم يصل حتى إلى مستوى الجمال البشري، ناهيك عن المجد السمائي. ولو لم يعطنا الأنبياء أية معلومات أيًا كانت عن مظهره الوضيع، فإن آلامه ذاتها والازدراء الذي تَحَمَّله يشيران إلى كل ذلك".

وتوجد فقرات في العهد القديم مثل (إشعياء ٥٢:١٤، ٥٣:٢) وراء هذا القول الذي يقول به أيضًا كثيرون من الآباء قبل نيقية.

ويعلن ترتليانوس في ختام الرسالة عن الرسالة الجديدة التي بصدد كتابتها وهي

"De resurrection carnis":

« وقيامة أجسادنا سنتناولها مع ذلك في رسالة أخرى صغيرة ومن ثم فإني أختتم الرسالة الراهنة، والتي تعد بمثابة مقدمة عامة، والتي ستمهد الطريق، مادام قد أصبح واضحًا الآن طبيعة ذاك الجسد الذي قام به السيد المسيح من الأموات» .

وتاريخ كتابة الرسالتين لابد وأن يكون متقارباً، ولعله كان بين سنة ٢١٠م وسنة ٢١٢م.

ح - قيامة الجسد

تشمل المقدمة الفصلين الأولين، وتربط بين كل منكري قيامة الجسد من وثنيين وصدوقيين وهراطقة، وتبين التضارب في تعليمهم. ويتحدث عن أن الجسد خلقه الله، وافتداه المسيح، ويجب أن يواجه الدينونة مع النفس في النهاية (الفصول ٣- ١٥). بعد ذلك دحض الاعتراضات (الفصلين ١٦ و١٧). وكل هذا إن هو إلا أساس إذ يقول: "وإلى هنا كان هدفي -وبواسطة ملاحظات تمهيدية- أن أضع أساسًا للدفاع عن الأسفار المقدسة كلها، والتي تقول بالوعد بقيامة الجسد (الفصل ١٨). وهكذا فإن الموضوع الحقيقي للرسالة هو: "قيامة الجسد طبقًا للعهدين القديم والجديد (الفصول ١٨-٥٠). وقام بشرح اللغة المجازية للأسفار المجازية، ثم تناول حالة الجسد بعد القيامة، سلامته، وتماثله للجسد الحالي، والعبارات الختامية تكشف ميله للمونتانية.

ط- ضد براكسياس

(لمزيد من المعرفة ببراكسياس يمكن العودة إلى الباب الخاص بهرطقات قبل عصر نيقية بالباب السادس من الجزء الأول).

يعد هذا الكتاب "ضد براكسياس" (Praxeas) هو الأخير في سلسلة الكتب الجدلية، والتي ربما كتبها ترتليانوس في سنة ٢١٣م. وكان قد انضم إلى المونتانيين في ذلك الحين. وذلك لأنه يتهم براكسياس لا فقط بهرطقة بالنسبة للثالوث القدوس، بل يتهمه أيضًا بمعارضته للنبوة الجديدة، ويحمله مسئولية إدانة مونتانوس Montanus وأتباعه من قِبَل أسقف روما، بالرغم من أنه قَبِل ذلك فيما مضى:

" كان براكسياس أول من نقل من أسيا إلى روما هذه النوعية من الهرطقة، وهو من نواحٍ أخرى رجل متقلب المزاج، وفوق كل شيء منتفخ بغرور الكهنوت، وذلك لا لشيء إلا لأنه اضطر أن يتحمل مضايقات السجن لفترة وجيزة، وبهذه المناسبة، فإنه حتى لو سَلَّم جسده ليحترق لما انتفع شيئًا (كورنثوس الأولى ١٣:٣)، إذ ليست له محبة الله، لأنه قاوم ودمر مواهبه. إذ أنه بعد أن اعترف أسقف روما بالمواهب النبوية لمونتانوس، وبريسكا Prisca، وماكسميللا Maximilla، ونتيجة لهذا الاعتراف منح السلام لكنائس أسيا وفريجية، قام

هو وبإلحاح يوجه اتهامات كاذبة ضد الأنبياء أنفسهم، وضد كنائسهم، ويصر على طلب سلطان أسلاف الأسقف في الكرسي، الأمر الذي اضطره أن يسحب رسالة السلام التي أصدرها، وأن يرجع أيضًا عن قصده من ناحية الاعتراف بالمواهب. وبهذا قَدَّم براكسياس خدمة مزدوجة للشيطان في روما، فقد طرد النبوة، وجلب هرطقة، لقد جعل الباراقليط يهرب وصلب الآب".

دحض ترتليانوس في هذه الرسالة التعليم الذي كان ينادي به براكسياس وانتشر في قرطاجنة. وتعد رسالة ترتليانوس أهم إسهام في التعليم الخاص بالثالوث القدوس في فترة ما قبل مجمع نيقية. والرسالة واضحة ودقيقة ومناسبة وتمتاز بالأسلوب القوي والرائع. وقد استخدم مجمع نيقية الكثير من صيغها. ولا يمكن الإقلال من تأثيرها على اللاهوتيين اللاحقين. فقد استخدمها أيضًا كل من هيبوليتس ونوفاتيان وديونيسيوس السكندري، وآخرين. أما أغسطينوس في عمله العظيم "عن الثالوث" (De Trinitate) فقد تبنى ما جاء في الفصل الخامس لرسالة ترتليانوس وكرَّس معظم الفصول (٨-١٥) لتوضيح التشابه بين الثالوث القدوس وعمليات النفس البشرية.

ناقش ترتليانوس مسألة ولادة الابن الذي دعاه أيضًا "الكلمة" و "حكمة الله"، مع اقتباسات كتابية إثباتًا لتعددية الأقانيم. وقد قدَّم شهادة إنجيل يوحنا لدحض التفسير الهرطوقي لفقرات الأسفار التي جمعها براكسياس. وأخيرًا تناول الكاتب موضوع الروح القدس أو الباراقليط Paraclete الذي هو أقنوم متميز غير الآب والابن. وذلك ليس سوى إطار للرسالة. إذ إنه على مدى واحد وثلاثين فصلاً يقدم ترتليانوس تعليمًا متكاملاً عن الثالوث القدوس.

ى - الثالوث :

ويعتبر ترتليانوس هو أول الكتبة اللاتين الذي يستخدم كلمة الثالوث كتعبير لاهوتي. ولكن حمله دفاعه عن التمييز بين الأقانيم الإلهية إلى السقوط في تعليم التابعية (أي تابعية الابن للآب).

ك - عن النفس

باستثناء كتاب ترتليانوس ضد المارقيونية، تعد رسالته "عن النفس" (De anima) من أكبر أعمال ترتليانوس. وهي تنتمي إلى الرسالات التي تدحض الكتابات الهرطوقية. والكاتب يشير في بداية الفصل الثالث إلى الدافع وراء تلك الرسالة فيقول إن الأخطاء المعاصرة فحسب هي التي دفعته إلى كتابتها. ولذلك فإنه من الخطأ أن نقول إنها "أول محاولة لعلم النفس المسيحي" لأنها ليست شرحاً علميًا، بل هي في الأساس دحض لتعاليم خاطئة (راجع كواستن صـ ٢٨٧).

كان ترتليانوس يعتبر هذا العمل استمرارية

لعمله الأسبق (De censu anima) حيث دافع فيه عن الأصل الإلهي للنفس، وذلك ضد ما قاله هرموچينس.

شهر ترتليانوس سلاحه ضد الفلسفة. بعد أن دحض تعليم هرموچينس . فيؤكد في الفصول (١-٣) أن ما أعلنه سقراط عن خلود شخصي في كتاب أفلاطون فيدون "Phaedo" أمر لا قيمة له. ذلك أنه لمناقشة موضوع "النفس" لابد من الاستناد إلى الإعلان الإلهي، لا إلى مفكرين وثنيين. لهم سمعة سيئة حيث يخلطون التأكيدات الصادقة بالحجج الزائفة.

ويكرس ترتليانوس الجزء الأول والذي يشمل الفصول (٤-٢٢) لفحص السمات الرئيسية للأساس الروحي للنفس. فعلى الرغم من انبثاقها من نسمة الله، فإنه كانت لها بداية في الزمن، ورأى أفلاطون ليس له أساس . ومما يثير دهشتنا أن ما يقول به الرواقيون من أن لها طبيعة مادية يتفق مع ما يقول به الكاتب :"وأطلب من الرواقيين أيضاً مساعدتي، الذين فيما هم يعلنون وبنفس مصطلحاتنا تقريباً أن النفس هي جوهر روحي - بقدر ما أن النفس والروح متقاربان في طبيعتهما جداً- إلا أنهم لن يجدوا في ذلك صعوبة في إقناعنا أن النفس مادة جسدية» . أما الرأي المخالف الذي يقول به الأفلاطونيون فقد دُحض. وقد تم دراسة ما يتعلق بعدم رؤيتها وكذلك الشكل واللون في فصول خاصة تتناول هُوية النفس والروح، والعقل باعتباره مجرد وظيفة منها، وكذلك القوى الخاصة بالنفس وأسئلة أخرى كثيرة تتعلق بتجانسها. وقد ركز على حرية الإرادة وذلك ضد تعليم الفالنتيين الخاص بثبات الطبيعة البشرية.

وفي الجزء الثاني (الفصول ٢٣- ٤:٣٧) يناقش أصل النفس. ثم رد على تعاليم هرطوقية مبنية على أساس نظرية أفلاطون عن النسيان، وأوضح تضارب تلك الفكرة الفلسفية. وتعد الفصول التالية أكثر الفصول أهمية لعلم الإنسان عن ترتليانوس. وهو يدحض الفكرة القائلة بأن للنفس وجوداً مسبقًا، وأنها قُدمت بعد الميلاد بإثباته أن الجنين كائن حي. ويرى ترتليانوس أن النفس والجسد يبرزان إلى الوجود في وقت واحد فيقول: "كيف إذاً يتم الحمل بالكائن الحي؟ هل مادة الجسد ومادة النفس تتشكلان معًا في ذات الوقت؟ أم أن إحداهما تسبق الأخرى في التكوين الطبيعي؟ والواقع أننا نقول بأنه يُحمل بالاثنين، ويتشكلان ويكملان في ذات الوقت، وأنه ليس هناك لحظة واحدة تفصل بينهما في الحمل بهما. فلم تسبق إحداهما الأخرى. وقد كوَّن رأيه في الواقع من الأحداث التي تصاحب الإنسان في بداية وجوده، وتلك التي تحدث له في أواخر حياته. ومن حيث أن الموت ليس سوى انفصال الجسد والروح، فإن الحياة التي هي عكس الموت، لا تقبل أي تعريف آخر سوى اتحاد الجسد والروح ، فإذا كان

الانفصال يتم في نفس اللحظة لكليهما عن طريق الموت، فإن قانون اتحادهما، والحال كذلك، ينبغي أن يؤكد لنا أنه يتم في لحظة واحدة لعنصري الحياة. ونحن نسلم الآن بأن الحياة تبدأ بالحمل، لأننا نؤكد أن النفس تبدأ من الحمل، فالحياة تأخذ بدايتها في نفس اللحظة والمكان اللذين تفعل فيهما النفس ذلك (الفصل السابع والعشرون).

ويميز ترتليانوس بين أصل الجسد وأصل الروح ويقول بأن الإنسان يولد بكليته، روحًا وجسداً .وهو يتحدث عن بذرة تنتج النفس تنشأ من عصارة النفس . والنتيجة هي تعليمه الهرطوقي "الانتقالية"، وهوالتعليم الذي ينكر عملية الخلق المباشر لنفس كل إنسان بمعرفة الله (كواستن- مرجع سابق).

يتبع ترتليانوس تعليمه السالف بتعليم يدحض فيه التعليم الخاص بالتناسخ بين الكائنات والتي ينادي بها كل من فيثاغورث Pythagoras وأفلاطون Plato و إمبيدوكليس Empedocles وكذلك هرطقات أخرى نادى بها سيمون الساحر وكاربوكراتس Carpocrates.

وفي الختام يتناول الكاتب موضوع تكوين الجنين وحالته. ويجيب الجزء الثالث عن أسئلة تتعلق بالنفس مثل نموها، وحالة البلوغ، الخطية، النوم، الأحلام، الموت، وأخيراً مصيرها بعد الموت. وطبقًا لما يقوله ترتليانوس تحفظ كل النفوس في الجحيم حتى القيامة، ما عدا أرواح الشهداء حيث تفتح لها السماء في الحال. "المفتاح الوحيد لفتح الفردوس هو دم حياتك"، وعن هذه النقطة يشير الكاتب إلى استشهاد بربيتوا Perpetua والذي حدث في السابع من شهر مارس في سنة ٢٠٢م، فيقول: "كيف أن الشهيدة الفائقة الشجاعة "بربيتوا" لم ترَ في يوم آلامها سوى الشهداء هناك في الرؤيا التي جاءتها من الفردوس، ما لم يكن السيف الذي يحرس طريق الدخول لم يكن يسمح لأحد بالدخول إلا أولئك الذين ماتوا في المسيح لا في آدم؟ على أنه حتى الأرواح في الجحيم تختبر العقوبات والتعزيات في الفترة الواقعة بين الموت والدينونة، وذلك من توقعها إما مصيراً كئيبًا أو مجيداً.

ويعترف ترتليانوس في معرض شرحه بإيمان المونتانيين أكثر من مرة، ويتبنى آراءهم. لذا فإن تاريخ الرسالة لابد وأن يعود إلى السنوات ٢١٠م-٢١٣م.

٣- *كتابات أخلاقية أو عملية*

كتب ترتليانوس عدة كتب تصنف بين تأديبية وأخلاقية ،وثمة كتب موجودة وتنسب إلي الفترة السابقة على انضمامه للمونتانية وهي:

أ- إلى الشهداء

تعد رسالته إلى الشهداء Ad Martyras من أعماله المبكرة. وهي تتكون من ستة فصول فقط.

وتتميز ببساطة الأسلوب. وقد اكتسبت إعجاب وتقدير الأجيال المتعاقبة، إذ نلمس فيها روح المسيحية الأولى التي تسود على الرسالة بالكامل.

كتب ترتليانوس الرسالة لتشجيع وتثبيت بعض المؤمنين الذين أُلقي بهم في السجن انتظاراً للحكم الذي سيصدر سريعًا عليهم بالموت بسبب إيمانهم. ومن العبارات الافتتاحية للرسالة يُفهم أنهم كانوا لا يزالون من طالبي العماد الذين يتعلمون العقيدة. وكان ترتليانوس لا يرغب أن ينزع منهم الخوف من الاستشهاد فحسب، وإنما كان يريد أن يبث فيهم حماسة إيجابية. وذلك بإطراء الاستشهاد على أنه أسمى أعمال البطولة وأمجدها. فالموت من أجل المسيح لا يشكل مجرد قبول الآلام دون مبالاة بكل بساطة وتحملها دونما تذمر فحسب، وإنما يعتبرها أكثر اختبارات القوة والصلابة، فيعتبرها معركة بكل ما في الكلمة من معنى.

ونراه وقد اختار أكثر الصور تأثيراً من المصارعات في الحلبة والخدمة العسكرية (الفصل الأول). وهو يشجعهم على ألا ينزعجوا نتيجة انفصالهم عن العالم: "لأنه إذا ما فكرنا في أن العالم هو في الواقع سجن، فلسوف تعرف أنك قد خرجت من سجن ولم تذهب بالأحرى إلى سجن آخر. فالعالم تغشاه ظلمة عظيمة تعمي قلوب الناس. والعالم يقيد بأسوأ أنواع القيود، ذلك أنه يقيد أنفس الناس. والعالم ينفث أسوأ النجاسات -الشهوات البشرية. ثم إن العالم يضم أكبر عدد من المجرمين، حتى الجنس البشري كله.. وأخيراً، فإنه ينتظر الدينونة لا أمام أحد الولاة بل أمام الله. ولذلك أيها المباركون، يمكنكم أن تعتبروا أنفسكم أنكم قد نُقلتم من السجن إلى ما يمكن أن نسميه مكان الأمن. إنه مليء بالظلمة، لكنكم أنتم أنفسكم نور، به قيود، لكن الله جعلكم أحراراً".

أما في الفصل الثالث فيعيد صورة النضال الذي يُدعى إليه الشهداء، ويطلب منهم اعتبار السجن ميدانًا للتدريب فيقول:

"أنتم على وشك أن تخوضوا معركة نبيلة، يقوم الله فيها بمهمة الفصل في النزاع، والروح القدس هو مدربكم، أما الجائزة فهي تاج أبدي من جوهر ملائكي والتوطن في السماء، ومجد أبدي. ولذلك فإن سيدكم يسوع المسيح الذي مسحكم بروحه وقادكم إلى الميدان، رأى أنه من الصالح، قبل يوم الصراع، أن يأخذكم من حالة هي في حد ذاتها أكثر راحة، ووضعكم في معاملة أصعب، حتى تزداد قوتكم. لأن الرياضيين يفرزون أيضًا من أجل تدريبات أكثر شدة، حتى يُنمّوا قوتهم البدنية. فهم يُحرمون من الترف، ومن اللحوم الشهية، والمشروبات اللذيذة، ويتعرضون للضغط، والإرهاق البالغ، وكلما زادت مشقة تعبهم في التدريب التمهيدي، زاد رجاؤهم في النصر".

والفصول الأخرى (٤-٦) تقدم أمثلة من الآلام الرهيبة بل والتضحية بالحياة لمجرد وجود الطموح والكبرياء أو نتيجة الحوادث والكوارث، في حين أن الشهداء يتحملون الآلام من أجل الله.

وإذا كانت العبارة الأخيرة تشير إلى معركة ليون Lyons في ١٩ فبراير في سنة ١٩٧م، والتي قُهر فيها ألبينوس Albinus، فتاريخ الرسالة يرجع إلى ذلك الوقت.

ب- عن الصلاة

إن رسالة عن الصلاة (De oratione)، والتي ترجع تقريباً إلى نحو سنة ١٩٨م - ٢٠٠م موجهة إلى طالبي العماد الذين يتعلمون قواعد المسيحية. وتبدأ الرسالة بفكرة أن العهد الجديد قدَّم صياغة للصلاة غير مسبوقة في العهد القديم، من جهة المغزى والروح. وهي سامية بخصوصيتها، والإيمان والثقة في الله، هذا فضلاً عن إيجازها. وكل هذه السمات تظهر في التعبير الوارد في الصلاة الربانية "أبانا.." إذ هي في ذاتها خلاصة الإنجيل كله. وتعد الفصول (٢-٩) هي أقدم شرح باق للصلاة الربانية بأية لغة.

يضيف الكاتب عدداً من النصائح العملية. فيجب ألا يتقدم أحد إلى الله قبل أن يتصالح مع أخيه، وعليه أن يكون متحرراً من كل غضب، ومن كل قلق في الفكر (الفصول ١٠-١٢). وهذا يتطلب أول كل شيء نقاوة كاملة للقلب، وليس مجرد غسل الأيدي (الفصلان ١٣ و١٤). وهو يوصي بأن نصلي إلى الله بأيدٍ مرفوعة وصوت خفيض (الفصل السابع عشر). وبأعمال تمثل الحشمة والاتضاع. ويجب أن لا يعفى أحد نفسه من قبلة المحبة بعد الصلاة. حتى بالنسبة للصائم، لأنها خاتم الصلاة. والاستثناء الوحيد هو يوم الجمعة العظيمة حيث تمنع الجميع عن الطعام كواجب ديني (الفصل الثامن عشر) . وعلى أولئك الذين يصومون صيامات خاصة ألا يبالغوا في ذلك بحيث يحرمون أنفسهم من الشركة المقدسة، (العشاء الرباني) بل يجب أن يأخذوه معهم إلى البيت ويتناولونه هناك عند انتهاء الصوم (الفصل التاسع عشر) . ويناقش ترتليانوس باستفاضة ما إذا كان يتوجب على العذارى أن تتحجبن فى الكنيسة ، ويحث على ذلك بكل قوة (الفصول ٢٠ - ٢٢) . ومن العادة الركوع أثناء الصوم ، وفى العبادات الخاصة ، وفى الصلوات الصباحية ، ولكن ليس فى عيدى القيامة والخمسين (الفصل الثالث والعشرون). إن كل مكان يصلح أن يصلي فيه الإنسان للخالق، إذا ما دعت الظروف والملابسات إلى ذلك (الفصل الرابع والعشرون). ولا يوجد وقت معين لهذا، بل سيعود علينا بفائدة عظيمة أن نذكِّر أنفسنا بذلك، ويليق بالمؤمنين ألا يتناولوا طعاماً قبل أن يرفعوا صلاة إلى الله، لأن إنعاش الروح وتغذيتها يجب أن يكون له الأولوية على الأرضيات (الفصل الخامس والعشرون).

ويجب ألا نستقبل ضيفًا أو نودعه قبل أن نرفع أفكارنا إلى الله، وكل تضرع يجب أن يختتم ختامًا جيدًا، بما يتفق مع عادة محببة، بقولنا "هللويا"، أو الترنم بمزمور (الفصلان ٢٦ و٢٧). أما الفصلان الأخيران (٢٨ و٢٩) فيمتدحان الصلاة باعتبارها ذبيحة روحية، ويطريان قوتها وفعاليتها.

جـ- عن الصبر

يعتقد أن تاريخ الرسالة "عن الصبر" (De Patience) قد كتبت خلال السنوات من ٢٠٠م-٢٠٣م. وهي ترسم صورة المسيحي المثالي وتقع في ستة عشر فصلاً. وكتابتها بأسلوب هادئ إنما تدل على شخصية كاتبها. وقد كانت مصدراً استخدمه كبريانوس في كتابه: "De bono patientiae".

ويتحدث ترتليانوس عن الصبر فيقول: "استمد الصبر أصله من الخالق، الذي يشرق بنوره وبقدر متساوٍ على الأشرار والصالحين . بل إن المسيح أعطى مثالاً على ذلك في تجسده وحياته وآلامه وموته. وإننا بصفة خاصة من خلال طاعتنا لله يمكننا أن نصل إلى هذا الكمال. وقلة الصبر تعد أم كل خطية أما الوالد فهو الشيطان. وفضيلة الصبر التي نحن بصددها تسبق الإيمان وتتبعه، ذلك أنه لا يستطيع أن يعيش بدونها. ويجد الصبر فرصًا عظيمة للممارسة في حياتنا اليومية، وعلى سبيل المثال: في حالة فقد ممتلكات، في حالة الاستفزازات والإهانات، وفي حالة الحزن وحالة الزلاَّت. ويتولد عدم الصبر كثيراً نتيجة شهوة الانتقام. إننا من جهة التزامنا بالواجب مطالبون بأن نتحمل المحن، الكبير منها والصغير، ومكافأة ذلك هي السعادة".

بعد ذلك يمدح ترتليانوس بركات الصبر التي تحتل الصدارة في كل أمثلة التأديب المفيد، فهي تؤدى إلى التوبة وعمل الخير. كما أنها تقوي الجسد وتمكنه من التحمل بكل جلد كبح النفس عن الشهوات، بل والاستشهاد. وثمة أمثلة بطولية نجدها في كل من العهدين القديم والجديد، ويقدم كل من إشعياء واستفانوس نموذجين على ذلك. وقيمة هذه الفضيلة وثمرها تجل عن التقدير. "وحيثما يحل روح الله، يصاحبه الصبر دون تفرقة" (الفصل الخامس عشر).

وفي الفصل الأخير (السادس عشر) يحذر ترتليانوس القراء من أن الصبر المسيحي يختلف اختلافًا جذريًا عن صورته الوثنية المشوَّهة، التي هي المثابرة العنيدة في الشر.

د- عن التوبة

ترجح سنة ٢٠٣م زمانًا لكتابة الرسالة إذ يذكر الكاتب ثورة البركان (في الفصل الثاني عشر) وزلزلة جبل ڤيسوڤيوس (Vesuvius) -اللتين حدثتا في العام المذكور.

تقع الرسالة في جزء ين : يتناول الجزء الأول الكفارة التي يجب على البالغ الطالب للمعمودية أن يلتزم بها قبل الاعتماد. (الفصول ٤- ٦). أما الجزء الأخير فيذكر فيه معمودية "أخرى" والتي وضعها الله برحمته "كمدخل" (للتوبة) لتفتح الباب لمن يقرع، ولكن مرة واحدة، لأن هذه هي المرة الثانية بالفعل (الفصل السابع). وهو يقصد هنا أن رحمة الله الواسعة لا تشكل تصريحًا لطيش الإنسان وتهوره إذ يقول: "وكما لو أن وفرة الرحمة السمائية تشكل تصريحًا لطيش الإنسان وتهوره. فليت كل إنسان لا يسمح لنفسه بأن يكون أقل صلاحًا لأن الله كثير الصلاح، وذلك بتكرار الخطية كلما غفرت له. وإلا لنتأكد من أنه لن يجد بعد ذلك مهربًا، حينما لا يجد فرصة لارتكاب الخطية. لقد هربنا مرة (في المعمودية). فلنتعهد بعدم تعريض أنفسنا للهلاك بعد ذلك حتى وإن بدا لنا أن هناك احتمالاً للهرب مرة ثانية".

وإذ يشعر ترتليانوس بالمسئولية تجاه نفوس قرائه فإنه يوصي بالتوبة الثانية، خشية أن يميلوا إلى اليأس والقنوط فيقول: "وإذا حدث أن جلب أحد على نفسه دين توبة ثانية، فلا يجب أن يسمح لروحه بأن تتدنى فوراً وتضعف نتيجة اليأس. ليتنا نشعر بالضيق لارتكاب الخطية مرة ثانية، غير أنه يجب ألا نتضايق للتوبة الثانية، بدرجة نعرض فيها أنفسنا للهلاك مرة أخرى، ولكن لا نغتاظ لتحريرها ثانية. ولا يخجل أحد من ذلك. فالمرض المتكرر يجب أن يكون له علاج متكرر (الفصل السابع).

وفي الفصول (٩-١٢) يتحدث ترتليانوس عن أن التوبة الثانية هي التي تتبعها مصالحة كنسية. وللحصول عليها لابد للخاطيء من أن يجتاز اعترافاً علنياً، ويتحمل أعمالاً تأديبية.

أما الفصل الأخير فيصور اللعنة الأبدية في جهنم لمن لم يتوبوا ثانية . وجلي من هذه الاعتبارات أنه كان يدور بذهن الكاتب عند كتابته هذه الرسالة المغفرة من الخطايا الخطيرة (الكبيرة) .

هـ- إلى زوجته

كتب ترتليانوس ما لا يقل عن ثلاث رسائل عن الزواج ، والزواج الثانى فى ثلاث مراحل مختلفة .

وتعد رسالته الأولى (Ad uxorem) هي أفضلها إلى حد بعيد. وكتبها نحو سنة ٢٠٠م-٢٠٦م. وتقع في كتابين، وتحتوي على اقتراحات يوجهها إلى زوجته لكي تتبعها بعد رحيله عن هذا العالم. في الكتاب الأول يحثها أن تظل أرملة لأن ثمة أسباباً قوية ضد زواجها مرة أخرى، ولا يوجد أي عذر معقول لإقدامها على ذلك. حيث أن الجسد والعالم والرغبة في النسل يجب ألا تغري المسيحي على الزواج مرة أخرى لأن عبد الله يجب أن يسمو على كل هذه الضروريات. فالروح أقوى من الجسد، والأرضيات يجب أن تخضع للسماويات. وما الأطفال إلا عبء بالنسبة للأزمنة القاسية الوشيكة،

بل هم يشكلون خطرًا على الإيمان في أحــوال كثيرة. وإذا شاء الله أن تفقد المرأة شريك حياتها بالموت، فلا يتوجب أن تحاول -بزواجها من آخر- أن تستعيد ما أبعده الله. ومثل هذه الزيجات تعد عقبة في سبيل القداسة، كما يشير إلى ذلك قانون الكنيسة الذي يحرم من يغامرون في زواج مثل هذا من مزايا كنسية معينة.

يناقش الكاتب في كتابه الثاني احتمالية أن زوجته قد لا ترغب في أن تظل بدون زواج بعد موته. وفي هذه الحالة فهو يرجوها أن تتأكد من أن تختار مسيحيًا. فالزواج بين مؤمنين وغير مؤمنين سبق أن رفضه الرسول بولس (راجع كورنثوس الأولى ٧:١٢-١٤). لأنه يشكل خطرًا على الإيمان والأخلاق، حتى وإن تحلى غير المؤمن بالتسامح. وهو يضع زواج المرأة من غير مؤمن بالمقابلة مع سعادة اثنين من المسيحيين فيقول:

"كيف يكون بمقدورنا أن نصف على نحو وافٍ سعادة ذلك الزواج الذي ترتبه الكنيسة، والذي تضع البركة ختمها عليه، وتحضره الملائكة كشهود عليه، ويوافق عليه الله الآب، لأنه حتى على الأرض لا يتزوج الأولاد بالطريقة الصحيحة والقانونية ما لم يوافق والديهم".

"فما أجمل إذًا الزواج بين المسيحيين ، اثنان هما واحد في الرجاء، واحد في الرغبة، واحد في أسلوب الحياة الذي يتبعانه، واحد في الديانة التي يمارسانها. فهما كأخٍ وأخت، كلاهما عبد لنفس السيد، لا يفرق بينهما شيء، سواء في الجسد أو في الروح . والحقيقة أنهما في حقيقة الأمر اثنان في جسد واحد، وحيثما وجد جسد واحد، فلن يوجد أيضًا سوى روح واحد. هما يصليان معًا، يعبدان الله معًا، يصومان معًا، يعلمان بعضهما، ويشجع كل منهما الآخر، ويقوي كل منهما الآخر. يذهبان إلى كنيسة الله معًا، ويشتركان معًا في مائدة الله. يواجهان الصعاب والاضطهاد معًا، ويعزي كل منهما الآخر. لا توجد بينهما أسرار، ولا يمل أحدهما من صحبة الآخر، ولا يُحزن أحدهما قلب شريكه.. كل منهما يشدو للآخر بمزامير وترانيم، ويعمل كل واحد قدر جهده لكي يرنم ويسبح الله بأكثر جمالاً مما يسبحه الآخر. وإذ يسمع المسيح ذلك ويراه، يبتهج قلبه سرورًا. ولمثل هؤلاء يعطي سلامه. وحيثما اجتمع اثنان هناك يكون في وسطهم، وحيثما يكون هو، لا يمكن أن يتواجد الشر".

و- نصائح للعفة

كتب ترتليانوس رسالة بعنوان نصائح للعفة (De exhortatione Castitatis) لأحد أصدقائه، إذ كان قد فقد زوجته منذ وقت قريب. ويوصي ترتليانوس صديقه بألا يتزوج مرة أخرى، والذي يعتبره ضد مشيئة الله، كما عارضه القديس بولس (كورنثوس الأولى ٧:٢٧و٢٨).

وهو يقرر أن الزيجات الثانية في حقيقتها لا تعدو أن تكون سوى نوع من الزنا. وفي حين أنه في رسالته إلى زوجته يمتدح بركات الزواج المسيحي، نراه الآن -وبعد أن أصبح يميل إلى المونتانية- يأسف أن صرَّح أساسًا به، وهو لا ينظر إليه إلا باعتباره نوعًا من الزنا الشرعي. وعوض ذلك يمتدح العذراوية، وكبح جماح النفس، بل ويقتبس فكر المونتانية "بريسكا" (Prisca) التي تقول بالشيء نفسه.

لا يوجد دليل على أن ترتليانوس كان قد ترك الكنيسة حين كتب هذه الرسالة. وعلى هذا فلابد أن تكون قد كتبت فيما بين سنتي ٢٠٤م و٢١٢م.

ز- عن العُروض

تعد رسالة ترتليانوس "عن العُروض" (De Spectaculus) إدانة كبيرة لكل الألعاب العامة في السيرك، الاستاد، أو المدرجات، وكذلك للرياضات العنيفة أو مواجهة المصارعين. تنقسم الرسالة إلى جزء ين : الجزء الأول ويحتوي على الفصول (٤ - ١٣) يحمل الخلفية التاريخية لتلك الألعاب . أما الجزء الآخر فيحتوى على الفصول (١٤- ٣٠) ويتكلم فيه عن الجانب الأخلاقي.

في الجزء الأول يستعرض ترتليانوس الأسباب التي من أجلها يرفض أن يحضر أي مسيحي لتلك العروض، ذلك أن أصلها وتاريخها وأسماءها وطقوسها ومواقعها، تظهرها بأنها شكل آخر من أشكال الوثنية. وكل مؤمن قد جحدها في العهود التي قطعها في معموديته. أما في الجزء الأخير، فيرسم صورة زاهية الألوان لأعظم منظر شهدته البشرية على الإطلاق "المجيء الوشيك لربنا" و"يوم الدينونة الأخير". ذلك اليوم الذي لا تنتظره الأمم، بل هو موضوع سخريتهم.

والرسالة موجهة إلى طالبي المعمودية الذين يتعلمون قواعد الدين، ويتضح ذلك من الجملة الافتتاحية التي يقول فيها: "أنتم عبيد الله الذين على وشك الاقتراب إليه، حتى تكرسوا أنفسكم في قداسة له، عليكم أن تسعوا باجتهاد لفهم شروط الإيمان، وأسباب الحق، وقوانين التأديب المسيحي، التي تمنع من بين خطايا العالم الأخرى مسرات العروض العلنية". وقد اتخذ ترتليانوس أعمال سوتيونيوس Suetonius، مصدراً له، وربما استخدم أيضًا كتاب ڤارو Varro بعنوان (Libri rerum divinarum)، والذي اعتمد عليه سوتونيوس.

كتب ترتليانوس ذلك الكتاب في الفترة السابقة على انضمامه للمونتانيين . ومن الجلي أن ذلك كان قبل كتابيه "عن الوثنية" و "عن ملابس النساء" لأن كلاً منهما يشير إليه. وفيما عدا ما جاء في (فصل ٢٧) عن أنه كان ثمة اضطهاد في ذلك الوقت، فإنه لا يوجد أي دليل آخر بشأن تاريخ دقيق لكتابته. وثمة آراء ترى أنه كتب سنة ٢٠٢م إلا أنه من

المحـتـمل أن يكون ذلك في سنة ١٩٧م. ويذكـر الكاتب أنه أعد نسخة يونانية.

ح- بخصوص برقع العذارى

تشير مقدمة هذه الرسالة أنه سبق أن كتب عملاً باليونانية لنفس الهدف فيقول: " سأوضح باليونانية أيضاً أنه يليق بالعذارى من بناتنا أن يتبرقعن بعد أن يجتزن نقطة التحول في أعمارهن، وأن هذا يجب مراعاته طبقًا للحق".

وبعد الحديث عن موضوع العادة في الملبس وتطورها التدريجي، يشير إلى أن قواعد السلوك المعاصرة (الإيتيكيت) التي تطلب من النساء أن يضعن برقعًا على وجوههن في مناسبات مختلفة تنطبق على المتزوجات وغير المتزوجات منهن. وحيث أن ما جاء في (كورنثوس الأولى ١١: ١٥ و١٦) يناقض ما ذهب إليه بعض المسيحيين، إذ لا يعطي استثناءً للفئة الأولى. إذاً فالأسفار المقدسة والطبيعة وحسن الخلق توحي كلها أن تغطي العذراء رأسها. وإذا فعلت هذا خارج الكنيسة، فلماذا لا تفعله في داخلها؟

ويصف الكاتب عمل الباراقليط المستمر فيقول:

"لأن هذه القاعدة الإيمانية دائمة، فإن النقاط الأخرى المترتبة عليها والخاصة بالنظام والحديث تعترف بحداثة هذا التصحيح، ونعمة الله من ناحية العقل تعمل وتتقدم إلى النهاية. لأنه ماذا يعني هذا الافتراض، يعني أنه في حين أن الشيطان يعمل دائمًا، ويضيف كل يوم إلى براعة الخطية، نجد ثمة من يقول إن عمل الله إما أنه توقف أو كف عن التقدم. وفيما يقول الناس لماذا إذًا أرسل الرب الباراقليط، لأن الإنسان متوسط القدرة لم يستطع أن يستوعب كل الأمور مرة واحدة، فالنظام يجب أن يكون شيئًا فشيئًا، ويجب أن يرسم وينفذ حتى الكمال بمعرفة الله، الروح القدس، وماذا إذًا سيكون دور الباراقليط سوى: توجيه النظام، إعلان الأسفار الإلهية، وتجديد المثقفين، والتقدم نحو الأشياء الأفضل؟ (١:٤).

يناقش الكاتب في الفصل الثاني وحدة الكنيسة، إذ لم يكن قد انضم بعد للمونتانيين فيقول عن الكنائس الشرقية:

"يربط بيننا وبينهم إيمان واحد، إله واحد، ومسيح واحد ورجاء واحد، ونفس أسرار المعمودية، دعوني أقولها للمرة الأولى والأخيرة، نحن جميعًا كنيسة واحدة ". ولذلك فإن الرسالة لابد وأن تكون قد كتبت قبل سنة ٢٠٧م.

ط- فيما يتعلق بالوثنية

يبدو أن رسالة (De Corona) التي ترجع إلى سنة ٢١١م تتزامن مع رسالة (De idololatria) والتي تتناول السؤال الجوهري: هل مسموح للمسيحي بالخدمة في الجيش (الوثني)؟ ويرد ترتليانوس بطريقة أكثر اتساعًا وشمولاً: ليحرر المؤمن من كل ما يربطه بالوثنية بأي شكل من

الأشكال. ولذلك فإن ترتليانوس يدين لا صانعي الأصنام ومن يعبدونها فحسب (الفصل الرابع). وإنما يدين أيضًا أي مهنة أو فن يعتبره **في خدمة الوثنية** . وهكذا فإن المنجمين والرياضيين والمدرسين وأساتذة الأدب، ممنوعون من الكنيسة، ناهيك عن المصارعين، وبائعي البخور، والعرافين والسحرة (الفصول ٨-١١).

ويتابع ترتليانوس كلامه فيقول إن هذا الاستبعاد الكلي سوف يخلق مشكلتين. فأول كل شيء سوف يسأل الناس: "كيف سأعيش؟" فيجيب قائلاً: " إن الإيمان لا يخشى المجاعة، وبالنظر إلى أن المسيحي تعلم كيف يحتقر الموت، فمن المؤكد أنه لن يتردد في احتقار ضروريات الحياة البشرية. أما المشكلة الثانية فهي أنه إذا كان التدريس غير مشروع للمسيحيين، فلن يتاح لهم أي تعليم، ولن تكون ثمة إمكانية لأي تعليم ". هنا يقدم ترتليانوس التنازل المثير فيقول: "إن التدريس ممنوع، لكن التعليم مسموح به".

يتقدم ترتليانوس إلى دائرة أخرى، فيدين إدانة بالغة كل أنواع الرسم والنحت وعمل التماثيل، كذلك يدين المشاركة في الاحتفالات القومية. ويسأل الكاتب ما هي وظائف الدولة التي يمكن للمسيحي أن يشغلها؟ وهو يجيب عن ذلك بأن لا أحد بمقدوره الاعتقاد بأنه في الإمكان تجنب الوثنية في أشكالها العديدة في أي موقع عام، ولهذا السبب لا يمكن لأي مؤمن أن يشغل أي منصب فيها. وكل عضو في الكنيسة سبق أن جحد الشيطان عند معموديته. ويعلن ترتليانوس أن الدولة عدو لله فيقول: "ليت هذه الحقيقة تساعد على تذكركم أن كل السلطات ورؤساء هذا العالم ليسوا غرباءً عن الله فحسب، بل هم أعداؤه أيضًا". وبناءً على هذا الرأي المتعلق بالعلاقة بين الإيمان والامبراطورية (الوثنية) رفض بصورة قاطعة الخدمة العسكرية: "ليس ثمة اتفاق بين القسم الإلهي والقسم البشري، ومعايير المسيح ومعايير الشيطان، معسكر النور، ومعسكر الظلمة. ونفس واحدة لا يمكن أن تكون مستحقة لسيدين - الله وقيصر".

ك- الرداء

تعد رسالة "De Pallio" من أصغر رسائل ترتليانوس فهي تتكون من ستة فصول فقط. كتبها ليدافع عن نفسه حيث استخدم في حياته اليومية الثوب الذي كان يستخدمه اليونانيون والرومانيون (ثوب من قطعة قماش كبيرة مستطيلة كانت تُلف على الجسم) بدلاً من الثوب الروماني (وهو ما يعرف بالشملة). حيث يذكر ترتليانوس مواطنيه بأن الزي الأخير قدمه الرومانيون بعد انتصارهم على قرطاجنة. وهو يرمز إلى الهزيمة والقمع. في حين أن الزي السابق كانت ترتديه قبلاً كل الطبقات وفي كل الظروف. وهو يخاطبهم أن يقبلوا

الزي الجديد على سبيل التغيير، فكل شيء حولنا يتغير، الطبيعة، والحيوانات تغير جلدها والطيور تغير ريشها، لونها بل وشكلها. ولذلك فإنه لا داعي للدهشة إذا ما تغير الإنسان أيضًا. فتاريخ الملبس طويل منذ بدايته بعد السقوط. ويطلب منهم ترتليانوس أنه إذا كان لزامًا عليهم انتقاد الملابس فليتجهوا إلى ما يهدد البساطة، وينتقدوا الرجال الذين يتشبهون بالنساء، والعقيلات التي لا يمكن للمرء أن يفرق بينهن والغانيات.

إن الزي الفضفاض الذي اختاره يرى ترتليانوس أنه بسيط وملائم للاستخدام. وهو زي الفلاسفة والخطباء والمفكرين والأطباء والشعراء والموسيقيين.

اختلفت الآراء حول زمان كتابة الرسالة. فقد وردت عبارة "السلطة الثلاثية للامبراطورية الحالية" في الفصل الثاني. والبعض يستند إلى أنها تشير إلى سنة ١٩٣م، وذلك حين اقتسم السُلطة كل من ديديوس يوليانوس Didius Julianus، وبيسينيوس نيچير Pescnnius Niger وسبتيميوس ساويرس Septimius Severus. أو قد تشير إلى الفترة بين ٢٠٩م- ٢١١م حيث تقاسم الحكم ساويرس وابناه أنطونيوس Antouinius و جيتا Geta ، ونظرًا لأن الرسالة لا تحتوي على أي آراء مونتانية فإن التاريخ الأول هو المرجح. وكذلك لأن تغيير الملبس يتفق وإيمان الكاتب حديثًا. أما التاريخ الأخير فإنه يتناسب بشكل أفضل مع فقرة تصف التربة بأنها مزروعة بشكل رائع في جميع أنحاء العالم ، وقد اجتُثت كل العداوات -وهذه حالة تتناغم تمامًا مع حالة السلام التي أعقبت وضع ساويرس نهاية للصراع المرير بين العديدين من المطالبين بالعرش.

٤- الكتابات المونتانية

فيما يلي بعض الأعمال التي نجد فيها تعليمًا مونتانيًا واضحًا، تعبر عنها أحيانًا وتدافع عنها في أحيان أخرى، وتتميز بأنها ذات طبيعة عملية أيضًا:

أ- الزواج مرة واحدة في العمر

رسالة ترتليانوس "الزواج مرة واحدة في العمر" (De monogamia) هي إحدى الرسائل الثلاث التي تتناول موضوع الزواج، والزواج ثانية". وتعد أكثرها بلاغة من جهة الأسلوب ولكنها من جهة المضمون أكثرها شدة. وينكر في الفصل الأول نفوذ الكنيسة المقيد، حيث كان انضم إلى المونتانيين بما لا يحتمل الشك. وهذا الرأي الذي ينادي به -أي الزواج مرة واحدة في العمر- يمثل الوسيلة الذهبية التي تفصل بين رفض الهراطقة لهذا السر -أي الزواج- متمثلين في الغنوسيين، والانحلال المتمثل في السماح بتكراره. "فرأي الفئة الأولى يعد تجديفًا، ورأي الفئة الأخيرة يعد دعارة. الفئة الأولى تتخلص من إله الزواج، والفئة الأخرى تخزيه. ومع ذلك فنحن من دُعينا عن استحقاق

الروحيين نتيجة المواهب الروحية التي اعتُرف بأنها لنا. نعتبر كبح جماح الشهوات جدير بالتبجيل، مثلما أن الحرية في الزواج جديرة بالاحترام. لأن كلاً منهما يتفق ومشيئة الخالق. وكبح جماح الشهوات يشرف ناموس الزواج. والسماح بالزواج يضبطها. ونحن لا نعترف إلا بزواج واحد، كما أننا لا نعترف إلا بإله واحد". وهكذا فإنه يحكم على الزواج الثاني بأنه غير مشروع ويعتبره قريبًا من الزنى. وهو يدافع عن تعليمه ضد تهمة أنه بدعة بإشارته إلى شهادة الباراقليط (الفصلان ٢ و٣) والدليل المستمد من العهد القديم (الفصول ٤-٧)، ومن الأناجيل (الفصلان ٨ و٩) ورسائل القديس بولس (الفصول ١٠-١٤). ولكي يدحض تهمة النزوع إلي قسوة لا مبرر لها، فإنه يرد بأن السلوك الوثني ضد الزواج الثاني يثبت أن الضعف الجسدي لا يعد عذراً لمثل هذه الخطوة (الفصلان ١٦ و١٧).

يرجح أن تكون هذه الرسالة كتبت في سنة ٢١٧م لأن ترتليانوس يذكر في (الفصل الثالث) أنه قد مرت مائة وستون سنة منذ أن كتب القديس بولس رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس.

ب- عن ملابس النساء

يؤكد ترتليانوس في كتاباته على ضرورة أن تسود المسيحية على حياتنا اليومية. لذلك فإن ترتليانوس يحذر النساء في هذه الرسالة حتى لا يسود عليهن أسلوب النساء الوثنيات في ارتداء الملابس وألا يخضعن لأسلوب الأزياء العصري، بل بالأحرى يظهرن الحشمة في مظهرهن. وتتكون الرسالة من عملين منفصلين، عنوان الأول "De habitu muliebri" أما في الثاني فهو "De Cultu Feminarum". والكتاب الأخير ليس تكملة للكتاب الأول. بل هو معالجة جديدة وأكثر شمولية لنفس الموضوع.

يُذَكِّر الكاتب في الفصل الاستهلالي المسيحيات بدخول الخطية إلى العالم عن طريق المرأة الأولى. ولهذا السبب فإن الملبس الوحيد الذي يليق ببنات حواء هو لباس الحشمة. فالحلى وأدوات الزينة من أصل شيطاني، وهذا ما يثبته "سفر أخنوخ" (الفصل الثانى). ويفرد الكاتب الفصل الثالث بأكمله للدفاع عن أصالة هذا الكتاب الأبوكريفي.

يعود الكاتب في الفصل الرابع إلى الموضوع الرئيسي، وهو يميز بين المَلْبَس ومساحيق التجميل. وفيما هو يعرض للموضوع الأول نراه يدين كل الحلي والزينة كالذهب والفضة والجواهر والأحجار الكريمة. وأن ما يجعل لهذه الأشياء قيمة هي الندرة. ويقول بأن صباغة الملابس أمر غير طبيعي. فالذي لم ينتجه الله ليس مُسراً له، ما لم يكن غير قادر على أن يأمر الغنم كي تولد بصوف ذي لون أرجواني أو بزرقة السماء. فإذا كان قادراً على ذلك، فمن الواضح إذاً أنه غير راغب، وما لا يرغبه

الله فمن الطبيعي ألا نعمله نحن. ومن ثم، فهذه الأشياء ليست أفضل ما هو ليس من الله، خالق الطبيعة. وبهذا فُهمت بأنها من الشيطان، لأنه ليس ثمة آخر يمكن أن تنسب إليه (الفصل الثامن). وعطايا الله يجب أن تنظم رغباتنا، وإلا نصبح فريسة للطموح الذي يجعلنا نحمل على أعناقنا أحمالاً أكبر مما نستطيع (الفصل التاسع).

وهنا يتوقف الكاتب فجأة دون أن يتناول الموضوع الآخر. إذ يتناوله في الكتاب الثاني ويعطيه الأسبقية على الموضوع الأول الذي سبق تناوله في الكتاب الأول، -أي عكس ترتيب ما جاء في الكتاب الأول- فيكون هو الموضوع الثاني في الكتاب الثاني. فيتحدث أولاً عن مساحيق التجميل، ثم بعد ذلك عن الملابس والحلي.

يمتدح ترتليانوس في الفصل الأول الحشمة باعتبارها فضيلة مسيحية أصيلة: "بالنظر إلى أننا جميعًا **هيكل الله**"، فالحشمة هي حافظة المقدسات وكاهنة ذلك الهيكل، التي لا تحتمل شيئًا غير طاهر أو نجسًا يقدم لها، خشية الإساءة إلى الله الذي يسكن فيه، ومن ثم يهجر تمامًا هذا المسكن الذي تلوث. وهذه الفضيلة لا تسمح للنساء أن يغيرن عمل الخالق، فلا يغيِّرن الجسد بالمساحيق ويصبغن الشعر.. وأعتقد أن براعة الله الفنية غير مُرضية بالنسبة لهن. ففي أشخاصهن -على ما أعتقد-- يَدِنَّ وينتقدن "صانع كل الأشياء" (الفصل الخامس).

ويتبع نفس الطريقة التي اتبعها في كتابه الأول حيث يتتبع أصل الرغبة في اقتناء الجواهر والحلي من ذهب وفضة. ثم يقنع المرأة المسيحية بأنه يجب أن يميزها مظهرها دائمًا عن الوثنيات. أما في الفصل الأخير فيشير إلى الأزمنة الصعبة، ويشجعهن على ضرورة أن يكنَّ مستعدات لمتاعب الاضطهاد: "ووسائل الترف التي تميل بنعومتها وتخنثها إلى حرمان الإيمان من قوته يجب أن تنبذ. وإلا فلست أعرف ما إذا كان المعصم الذي تعود أن يحاط بسوار، سوف يتحمل صلابة شديدة في السلسلة التي يشكلها! ولست أعرف ما إذا كانت الساق التي فرحت بالخلخال ستتحمل أن تُحشر في الأصفاد. وأخشى أن الرقبة التي تتحلى باللؤلؤ والزمرد، لن تخلى مكانًا للسيف العريض.. إلا أن المسيحيين دائماً، والآن أكثر من ذي قبل، يقضون أوقاتهم لا في الذهب، بل في الحديد، لقد أعدت دثارات الاستشهاد، والملائكة المنوطون بحملنا ينتظرون".

بالرغم من وجود مبالغات في هذه الأعمال ، إلا أن الكتاب الثاني معتدل في لهجته إلى حد بعيد. ويمتاز باتساع الأفق في أفكاره. والفرق يوحي بأنه كتب بعد الأول بوقت طويل. ويوضح ترتليانوس أن كتابه الأول كتبه بعد رسالته "العُروض" وذلك في الفصل الثامن . وكلاهما جاء

بعد "De oratione" وهذا مايستخلص من الفصل العشرين. فلا نجد فيه أي من الأفكار المونتانية.

جـ- الإكليل

يناقش ترتليانوس في "الإكليل" (De corona) إحدى المشاكل الكبيرة، وهي اشتراك المسيحيين في الخدمة العسكرية ، وقد أثارت تلك المشكلة حادثة موت الامبراطور سبتميوس ساويرس في٤ فبراير من سنة ٢١١م، إذ قدم أولاده منحة مالية للجيش، وبعد أن وزعت على المعسكر، تقدم الجنود وعلى رؤوسهم أكاليل الغار ما عدا جنديًا واحدًا منهم، كانت رأسه عارية، وكان يحمل الإكليل في يده. ولذلك اتجهت أنظار الجميع إليه، وبدأوا يسخرون منه، وبدأت أصواتهم تعلو بهمهمات، عندما ترك ذلك الشخص الصفوف، حتى وصلت الهمهمات الحاكم، الذي وجَّه له السؤال التالي: لماذا تختلف عن زملائك في مظهرك؟ فرد عليه قائلاً: إنه ليست له الحرية لأن يلبس التاج مع الآخرين. وإذ طُلب منه بإلحاح أن يقدم أسباب ذلك، أجاب: "إني مسيحي..عندئذ نوقش الموضوع وتم التصويت عليه، وأحيلت القضية إلى محكمة أعلى، واقتيد المذنب إلى الولاة.. حيث توج باستحقاق أكثر بإكليل الشهادة الأبيض.. وبعد ذلك صدر حكم عكسي على سلوكه -سواء من جانب المسيحيين، لست أعلم، أو من الوثنيين إذ لم يكونوا مختلفين- كما لو كان عنيدًا أو متهورًا ومتلهفًا على الموت، لأن الحكم عليه بالنسبة لموضوع يتعلق بلباسه كان ذلك يجلب المتاعب على من يحملون اسم (المسيح). وإذ يقدمون أيضًا اعتراضهم -هل نحن ممنوعون من أن نكلل؟ فلذلك سأتناول هذه النقطة هنا، باعتبار أنه من المناسب بالأكثر لأن نعرض لها هنا، لأنها في واقع الأمر جوهر النزاع الحاضر".

وهكذا كتبت الرسالة دفاعًا عن الجندي كي يبين أن لبس الأكاليل لم يكن يتفق مع الإيمان المسيحي. ويرجع الكاتب إلى تقليد مسيحي غير مكتوب ليوضح أنه من غير الطبيعي وضع إكليل على الرأس.. وفضلاً عن ذلك، فهو من أصل وثني، ويرتبط بالوثنية ارتباطًا وثيقًا. فالعهد القديم كما العهد الجديد لم يتعرضا لذكر شيء كهذا، ولكي أكون واضحًا فإن الإكليل العسكري ممنوع لسبب بسيط وهو أن الحرب وخدمة الجيش لا يتفقان مع الإيمان.. والمسيحي لا يعرف إلا قسمًا واحدًا، وهو قسم المعمودية، ولا يعرف سوى خدمة حراسة واحدة، هي خدمة ملكه المسيح. وهذا هو معسكر النور، أما الآخر فهو معسكر الظلمة. ويشير ترتليانوس في الفصل السابع إلى كتاب كلوديوس ساتورنينوس Claudius Saturninus المعروف بعنوان De Coronis، وفيه ينتقد كنيسة روما لرفضهم الباراقليط ، ونبواته، ويوبخ رجال الدين قائلاً: "واضح أنهم مثلما رفضوا نبوات الروح القدس،

فإنهم يرمون أيضًا إلى رفض الاستشهاد. ولذلك فهم يتهامسون بأن السلام الطيب والطويل أصبح ممهدًا الآن. بل ولا أشك في أن البعض قاموا بالفعل بإعطاء ظهورهم للأسفار المقدسة. وهم الآن يعدون أمتعتهم، استعدادًا للهرب من مدينة إلى أخرى، لأن هذا كل ما اهتموا أن يتذكروه من الإنجيل، كما أعلم أيضًا أن رعاتهم أسود في السلام، غزلان في الحرب". ونسبت هذه الرسالة بوجه عام إلى عام ٢١١م.

د- فيما يتعلق بالهرب وقت الاضطهاد

يجيب ترتليانوس في (De fuge in Persecu-tione) عن سؤال ورد عرضًا في كتابه الذي عرضنا له وهو "الإكليل" والسؤال هو: "هل مسموح للمسيحي أن يلجأ للهرب إبان الاضطهاد؟ ويرد ترتليانوس قائلاً: "في وقت الاضطهاد يفضل الهرب من مكان لآخر، كما هو مسموح لنا، فذلك أفضل من القبض علينا، وإرغامنا على إنكار الإيمان تحت التعذيب. ونفس الرأي نجده في De Patientia (الفصل الثالث عشر).

ومع ذلك يرى الكاتب في الرسالة الحالية أن مثل هذا الهروب هو ضد مشيئة الله، ذلك أن الاضطهاد يأتي من قِبَله، حيث يرسله من أجل تقوية إيمان المسيحيين، على الرغم من أنه لا يمكن إنكار أن للشيطان دورًا فيه. وإذا كان البعض يستندون إلى ما جاء في (متى ١٠:٢٣).

"ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى". فإن ترتليانوس يرى أنها قيلت للرسل أنفسهم، ولا تنطبق إلا على وقتهم وظروفهم، وليس لها علاقة بالحاضر -بل إنه ليس من المسموح به أن يهربوا من المضايقات عن طريق دفع بعض المال لأن السبب هو نفسه، الخوف من الاضطهاد. وأن تفدي بالنقود شخصًا افتداه المسيح بدمه، أمر لا يليق بالله.

كتب ترتليانوس رسالته إلى صديقه فابيوس Fabius وجاء ذكرها في (De Corona). والرسالة تحمل دليلاً كافيًا لوجهة نظر المونتانيين. ولذلك فإن تاريخها لابد أن يكون في سنة ٢١٢م.

هـ- عن الصوم

كتب ترتليانوس هذه الرسالة وهي بعنوان: (De ieiunio adversus psychicos) وفيها يهاجم ترتليانوس كنيسة روما بكل عنف وذلك لأنهم رفضوا الممارسات المونتانية فيقول: "المفتونون بالشهوات، والذين يكادون أن ينفجروا من نهمهم"(الفصل الأول). إذ يبدو أن شيعة المونتانيين التي انضم إليها اتُهمت بأنها زادت عدد أيام الصيامات، وأطالت الصلاة حتى المساء-بصفة عامة.

وكانوا يراعون الطعام الخالي من اللحوم، أو عصير الفواكه، ولا يلمسون شيئًا له نكهة الخمر، وفي بعض المناسبات يمتنعون عن الاستحمام. وقد

أدينت كل هذه الممارسات باعتبارها بدعًا وهرطقة زائفة.

حينئذ ينبري ترتليانوس للدفاع، ويؤكد من خلال العهدين القديم والجديد ضرورة الصوم بعد عصيان آدم، ويتكلم عن فوائد التنسك . ثم يتجه بعد ذلك للهجوم القاسي على المسيحيين متهمًا إياهم بالانغماس في الشهوات. فقد اتهمهم بأنهم يقيمون مطاعم في السجون لشهداء غير جديرين. وتظل هذه الرسالة مصدرًا قيِّمًا للمعلومات عن تاريخ الصوم.

و- عن التواضع

تتناول رسالة "De Pudicitia" موضوعًا أكثر أهمية عن سابقتها، ولكنها لا تقل حدةً عنها. فيعرض ترتليانوس لمفهومه المونتاني عن سلطان الحل والربط، فيرى أن هذا السلطان ليس قاصرًا على رجال الإكليروس فحسب، بل للروحيين أيضًا. وهذه الرسالة تعد هجومًا قويًا ضد النظام التكفيري الذي تتبعه كنيسة شمالي أفريقيا التابعة لروما. وبصفة خاصة ضد كتاب "edictum per-emptorium" لأسقف لم يذكر اسمه. وقد ذكر عنه ترتليانوس قوله: "إني أغفر خطايا الزنا والفسق لأولئك الذين يكفرون عنها".

ويرد ترتليانوس قائلاً: "إني أفحص الآن رأيك، لأرى من أي مصدر اغتصبت هذا الحق **للكنيسة**. فإذا كان السبب هو قول الرب لبطرس "وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي"، "وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات" أو "كل ما تربطه على الأرض، يكون مربوطًا في السموات. وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات"، فلهذا السبب فإنك تفترض أن سلطان الربط والحل قد أعطي لك، أي لكل كنيسة تنسب إلى بطرس، فأي نوع من الرجال أنت، إذ تفسر وتغيِّر تمامًا القصد الواضح للرب، من منحه هذه العطية لبطرس شخصيًا؟"

والعبارة التي يقول فيها: "أي لكل كنيسة تنسب إلى بطرس" لا يكون لها معنى إن لم تكن تشير إلى أسقف روما وحده، بل إلى أسقف "كل كنيسة تنتمي إلى بطرس بالإيمان أو بالديانة وهذا ما ينسب إلى قرطاجنة تمامًا، حيث أسسها كارزون من روما بحسب التقليد".

وتعد هذه الرسالة هي المصدر الأول التي يذكر فيها الخطايا الكبرى الثلاث وهي: الوثنية، الزنى والقتل، ويعتبرها ترتليانوس غير قابلة للغفران. ويقول ترتليانوس بأنه ليس للكنيسة سلطان أن تغفر الآثام الكبرى التي تحدث بعد المعمودية، بل حتى شفاعة الشهداء من أجل المذنب لا تنفع.

جـ- كتابات مفقودة

كتب ترتليانوس عددًا من الأعمال باللاتينية ولكنها فقدت وهي:

(١) De spe fidelium ويبين فيه أن نبوات العهد القديم الخاصة باسترداد اليهودية يجب

أن تفسر مجازيًا عن المسيح والكنيسة.

(٢) De Paradiso ويرد فيه عن أسئلة خاصة بالفردوس، وفيه يرى أن كل الأرواح -عدا أرواح الشهداء- ستظل في الجحيم إلى أن يأتي يوم الرب.

(٣) Adversus Appelleiacus وكتبه ضد شيع أپيلليس Appelles، وهو من أتباع مارقيون Marcion وضد ما يقولون به من أن المسيح ليس هو الله، بل ملاك بارز له روح المسيح وقدرته ، ومشيئته، خلق هذا العالم، وأنه ندم على ذلك في وقت لاحق.

(٤) De censu animae حيث يشير ترتليانوس في "De anima" عدة مرات أنه قام بنشر عمل آخر ضد هرموچينس Hermogenes عن أصل النفس في الكتاب الذي نحن موضع الحديث عنه، ولكنه فُقد.

(٥) De fato أعلن في De animazo عن الكتاب المذكور، وكان يتناول موضوعات مثل: القدر، والحاجة، الثروة ، وحرية الإرادة، الرب الإله وخصمه الشيطان وذلك فيما يتعلق بتأثيرها على الفكر البشري. وقد اقتبس من الكاتب الأفريقي فابيوس بلانسياديس Fabius Planciades ويبدو أن الكاتب امبروزياستر Abrosiaster قد استشهد بهذا الاقتباس.

(٦) Ad amicum philosophum وجّه ترتليانوس في شبابه رسالة إلى صديق فيلسوف عن متاعب الحياة الزوجية، وذلك طبقًا لچيروم. (Epist. 22, 22, adv. jovin. 1:13)

(٧) توجد بعض العناوين وجدت في قائمة محتويات مخطوطة Agobardinus وهي: De Carne et anima, De Submissione and De Superstitione Saeculi.

إلا أن ثمة كتابات أخرى عديدة فُقدت أيضًا وهي باليونانية، وذُكرت في علاقتها بنظائرها في اللاتينية وهي: De Spectaculis, De baptismo, De Virginibus Velandis. ولعل إشارة إلى عمل رابع نجدها في كتابه "Comcerning ecstacy" وهو ما يذكره چيروم على أنه قام بكتابته أثناء انضمامه للمونتانيين. وقد أضاف ترتليانوس كتابًا سابعًا للكتب الستة التي كتبها بعنوان: "on ecstacy".

ويرجح أن ترتليانوس يرد في كتابه السابع على الاتهامات التي شُنت على المونتانية. على أن الكتب الأخرى تتناول تعليم شيعته وتصوفها. وكلها كتبت بعد قطيعته النهائية للكنيسة. وربما كان ذلك نحو سنة ٢١٣م.

د- كتابات موضع شك

ثمة عديد من الكتب غير موثوق بها وهي:

(١) وجد سواريز (Suarez) كتاب (De execrandis gentium diis) في

مخطوطة ڤاتيكانية ترجع إلى القرن العاشر، مع مخطوطة بِيد (Bede) والتي تُدعى (Chronicle) وأجزاء أخرى، وهذه الجزازة تنسب إلى رسالة دفاعية. واختلافها في الأسلوب يجعل من المستحيل نسبتها إلى ترتليانوس.

(٢) Adversus Omnes haereses راجع رقم ٣- رسائل موضع جدل بند أ.

(٣) Carmen adversus Marcionitas مكتوب بأسلوب شعري ويتألف من خمسة أجزاء. في الجزء الأول يتناول أصل الهراطقة، وفي الجزءين ٢ و٣ الصلة الوثيقة بين العهدين القديم والجديد ضد ثنائية مارقيون. وفي الجزء الرابع يتعرض لتعليم مارقيون. وقد كتب بلاتينية ضعيفة ، ولعل ذلك كان في بلاد الغال قبل سنة ٣٢٥م. ومن الواضح أن هذا الكتاب يعتمد على كتاب ترتليانوس ضد مارقيون (Against Marcion).

(٤) Passio SS. Perpetuae et Felicitatis من المشكوك أن كاتبه ترتليانوس.

(٥) Carmen ad Flavium Felicem de resurrectione morturum et de iudicio Domini . مكتوب بأسلوب شعري سداسي التفاعيل، وقد نسب زيفًا إلى ترتليانوس أو كبريانوس. أما المؤلف الحقيقي فغير معروف ويسرد ڤازنك Waszink أسبابًا وجيهة لتاريخه المحتمل حيث يُرجعه إلى نهاية القرن الخامس أو بداية القرن السادس.

هـ- ملامح من فكره اللاهوتي

يحاول الدارسون فهم شخصية ترتليانوس وفكره اللاهوتي من خلال أعماله العديدة التي وصلت إلينا. ولكتابات ترتليانوس أهميتها في التاريخ. فهي من جهة تعبر عن الثقافة السائدة والقضايا الفكرية التي كانت في الزمن الذي عاش فيه، ومن جهة أخرى توضح إسهاماته الهامة في صياغة الفكر اللاهوتي المسيحي.

(١) الفكر اللاهوتي واللغة

بعض الصياغات التي صاغها ترتليانوس من الدقة حتى إنها ما زالت باقية حتى الآن. فترتليانوس هو أول من استخدم الكلمة اللاتينية (Persona) بمعنى أقنوم. وأول من صاغ عقيدة الثالوث هكذا: "جوهر واحد في ثلاثة أقانيم". وإن كان في وقت لاحق تأثر بنظرية تابعية الابن، إلا أننا مدينون له بتعبيره عن شخص المسيح أنه: "طبيعتين في شخص واحد".

كذلك فإن ترتليانوس هو أول من استخدم الكلمة اللاتينية (Trinitas) للإشارة بها إلى الأقانيم الإلهية الثلاثة. ولنا عودة مرة أخرى مع فكره

اللاهوتي عن الثالوث. كما عبر ترتليانوس بمفهومه عن الكنيسة إذ يدعوها "الأم" خلال أعماله.

هذه بعض التعبيرات التي صاغها ترتليانوس واستخدمها لتعبر عن فكره اللاهوتي تجاه بعض العقائد المسيحية، وتوجد غيرها، وهي على قدر كبير من الأهمية، ولكي نفهمها فهمًا دقيقًا كاملاً، علينا أن نقوم بدراستها في سياقها الذي عُرضت فيه. وفي ضوء الاستخدام الدقيق للغة في العصر الذي ظهرت فيه. ويمكننا أن نقدم أعمال ترتليانوس على أنها مولد الفكر اللاهوتي التأملي النظامي (موسوعة الكنيسة الأولى).

إن اللغة التي استخدمها ترتليانوس جعلته فريداً في بابه، كما جعلته مشوقًا وفريداً. ويرى پ. سينيسكالكو (P. Siniscalco) أن ترتليانوس لا يعتبر مؤسس الأدب اللاتيني المسيحي فحسب، وإنما بالأحرى مؤسس الفكر اللاهوتي اللاتيني (المرجع السابق).

(٢) الفكر اللاهوتي والقانون

ثقة ترتليانوس في القانون ثقة كبيرة، وتأثر في ذلك بعمله كمحامٍ (أو قاضٍ). فكان يطالب المضطَهِدين بأن يطبقوا القانون ومعاييره الحقيقية. ونجد تأثير القانون واضحاً في دفاعه العظيم عن الكنيسة في كتابه (Apologia) ضد الهراطقة.

ونجده في كتابه "Praescripto" يقول بأنه من غير الضروري الدخول في جدال مع المنشقين لأن عبء البرهان يقع على عاتقهم باعتبارهم أصحاب بدعة: "نحن نحذر من هؤلاء المزيِّفين لعقيدتنا، ونقول لهم إن القاعدة الوحيدة للحق ليست سوى تلك التي تأتي من المسيح، والتي نقلها لنا تلاميذه".

وتتردد كثير من الكلمات القانونية في كتاباته أمثال: "دَيْن، رضاء، ذنب، تقويض".. وغيرها.

(٣) الفكر اللاهوتي والفلسفة

لم يقنع ترتليانوس بأهمية الفلسفة ودورها في الإيمان. فلم يَر أن ثمة شيئًا مشتركًا بينهما... بخلاف كليمندس السكندري الذي كان يعجب أيما إعجاب بمفكري اليونان وكان ينظر إليهم باعتبارهم يقومون بالنسبة للوثنيين بنفس الدور الذي كان يقوم به الناموس بالنسبة لليهود.

يتحدث ترتليانوس كما لو أنه يجب اجتثاث الحكمة البشرية من الكنيسة، لأن الحكمة البشرية تتظاهر بمعرفة الحق، بينما هي في واقع الحال تفسده. فأي تشابه يوجد بين المسيحي والفيلسوف؟ وبين تلميذ اليونان وتلميذ السماء؟ بين الرجل الذي يستهدف الشهرة، وذاك الذي يستهدف الحياة؟ وبين من يتكلم ومن يعمل؟ بين الرجل الذي يبني وذاك الذي يهدم؟ وبين الصديق والعدو ، الذي يتصيد الأخطاء ؟ بين من يشوه الحقيقة، ومن يعيد الحق ويعلمه؟ ولكنه اضطر إلي الاعتراف بأن بعض التأملات الوثنية بها قبس من

الحق فقال: "ومن الطبيعي ألا ننكر أن الفلاسفة يفكرون أحيانًا في نفس الأمور التي نفكر فيها نحن". وكان ترتليانوس قد اتفق في بعض الأفكار مع الفيلسوف الوثني سينيكا.

في الواقع، لقد تأثر ترتليانوس بأفكار الرواقيين، فقد اعتمد في كثير من المبادئ الأخلاقية على تعليمهم وكذلك في مفهومه عن الله وفي فكرته عن الروح. وكان يقول عن التشابهات بين تعاليم الكنيسة وتعاليم الفلاسفة الوثنيين، أن أولئك الفلاسفة قد أخذوا تلك الأفكار من العهد القديم، ولكنهم (أي الفلاسفة الوثنيون) شوّهوا الحقائق التي أعطاها الله. وبذلك أصبحوا هم المسئولين عن الهرطقات فهم "آباء الهراطقة". (كواستن- مرجع سابق). وبذلك ينسب ترتليانوس كل ضلالة طرأت على الإيمان إلى الفلسفة الوثنية وفلاسفتها. وقد نحا هيبوليتس الروماني نفس المنحى في كتابه Philiosophumena بعد ذلك بعشرين سنة.

يرى بعض الدارسين أن الموقف الذي يتخذه ترتليانوس ضد الفلسفة إنما يرجع إلى التقليد القائم قبله والذي هو ضد الفلسفة. (ر. براون R. Braun- موسوعة الكنيسة الأولى).

(٤) تعليم ترتليانوس عن الثالوث

قدم ترتليانوس أعظم مساهمة للفكر اللاهوتي من خلال تعليمه عن الثالوث القدوس، والتعليم الخاص بشخص السيد المسيح. وكما سبق القول فإن الكنيسة حتى الآن لا تزال تستخدم التعبيرات والصياغات التي نحتها ترتليانوس ببراعة في اللغة اللاهوتية الكنسية.

سبق أن أشرنا إلى الكلمة اللاتينية "Trinitas" التي استخدمها ترتليانوس للإشارة إلى الأقانيم الإلهية الثلاثة. وإن كان أفضل تعليم له عن الثالوث في (Ad Prax). وهو يشرح العلاقة بين وحدة الله وثالوثه فيشير إلى الوحدة في الجوهر بالنسبة للثالوث. ويقول ترتليانوس: "أؤكد دائمًا أن ثمة جوهرًا واحدًا في ثلاثة متحدين معًا".

كذلك استخدم (Persona) ليعبر عن "أقنوم"، وأصبح هذا التعبير معروفًا في التطور اللاحق. وعن "اللوجوس" يقول إنه "غير الآب من ناحية الأقنومية وليس من ناحية الجوهر وللتمييز لا للتقسيم". وينطبق تعبير "أقنوم" على الروح القدس الذي يسميه ترتليانوس "الأقنوم الثالث" فيقول: "إذا كانت تعددية الثالوث مازالت تزعجكم، كما لو أنه لم يكن مرتبطًا في وحدة بسيطة، فإني أسألكم كيف يمكن لكائن هو مجرد واحد مطلق، مفرد، أن يتكلم بصيغة الجمع قائلاً: **نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا**، في حين أنه كان يجب عليه أن يقول: **لأخلق الإنسان على صورتي كشبهي.** باعتباره كائنًا مفردًا ومتفردًا؟ ومع ذلك فإنه يقول في الفقرة التالية: **هوذا الإنسان قد صار كواحد**

منا. وإذا كان الله واحداً ومفرداً فحسب، فلابد أنه كان يخدعنا أو يداعبنا حين تكلم بصيغة الجمع. أم كان يتكلم إلى الملائكة كما يفسر اليهود هذه الفقرة، لأن هؤلاء أيضًا لا يعترفون بالابن؟ أم لأنه كان ذات مرة الله، ثم الابن، ثم الروح القدس، ومن ثم كان يخاطب نفسه بصيغة الجمع، جاعلاً من نفسه جمعاً في هذه المناسبة عينها. كلا، لم يكن الأمر كذلك، لأن ابنه كان من قبل في حضنه كأقنوم ثانٍ، كلمته، وأقنوم ثالث أيضًا الروح القدس ، ولذلك تكلم وعن عمد بصيغة الجمع قائلاً: **نعمل، صورتنا وكشبهنا، وكواحد منا.** لأنه بمن عمل الإنسان؟ وعلى صورة من خلقه؟ كان يتكلم مع الإبن الذى كان مزمعاً أن يأخذ طبيعة إنسان ، ومع الروح القدس الذى كان مزمعاً أن يقدس الإنسان . معهما كان يتكلم حينئذ، في وحدة الثالوث، كما يتكلم مع خدامه وشهوده".

لم يستطع ترتليانوس أن يتخلص تمامًا من تأثير نظرية التابعية، والتمييز القديم بين اللوجوس، "الكلمة الداخلية" أو "الكلمة المتأصلة في الله"، و "الكلمة" التي نطق بها الله. حيث زعم أن الولادة الإلهية وقعت بالتدريج (كواستن- مرجع سابق). ويميز ترتليانوس بين ميلاده سابقًا كالحكمة قبل الخليقة، وإبان لحظة الخلق، حين أُرسل "الكلمة"، وصار الحكمة هو الكلمة: "ومن ثم فإنه حينئذ ظهر الكلمة، حين قال الله: "ليكن نور". وهذا هو الميلاد الكامل للكلمة. لقد قدم الله الكلمة أولاً بالفكر تحت اسم الحكمة "الرب قناني أول طريقه" (أمثال ٨:٢٢)، ثم ولد للعمل: "لما ثبَّت السموات كنت هناك أنا" (أمثال ٨:٢٧). وصار "الابن" "البكر" المولود قبل الكل، الابن الوحيد المولود من الله. ولكن الابن على هذا النحو لا يكون أبديًا، مع أنه الكلمة كائن حتى قبل تأسيس العالم. والآب هو الجوهر كله، في حين أن الابن هو بعض من الكل، كما يعترف هو بنفسه قائلاً: "لأن أبي أعظم مني" (يوحنا ١٤:٢٨).

تظهر ميول ترتليانوس لتعليم التابعية لا سيما حين يقول إن الابن يخرج من الآب كما يخرج الشعاع من الشمس. لأن الله ولد الكلمة، كما الجذر البرعم، وكما الينبوع النهر، وكما الشمس شعاعها.. ويقول "الواقع إنني لن أتردد في أن أسمي البرعم ابنًا للجذر، والنهر ابنًا للينبوع، والشعاع ابنًا للشمس، لأن كل مصدر يعد والدًا، وكل شيء يخرج من المصدر يعد ابنًا- ولا سيما كلمة الله، الذي يعرف بأنه "الابن". ومع ذلك فإن البرعم لم ينفصل عن الجذر، ولا النهر عن منبعه، ولا الشعاع من الشمس، وبنفس الطريقة لم ينفصل الكلمة عن الله. وعلى هذا فباتباع صيغة هذه التشبيهات، أعترف بأني أسمي الله وكلمته، الآب وابنه- اثنين. لأن الجذر والبرعم شيئان متميزان ولكنهما متحدان، والمنبع والنهر شيئان كل منهما له صفته، ولكنهما غير منفصلين ، وهكذا الحال أيضًا بالنسبة للشمس والشعاع. وأي شيء

ينبثق من شيء آخر يجب أن يكونا ثانيًا لما انبثق منه، دون أن يكون لهذا السبب منفصلاً عنه. والروح القدس في الواقع هو ثالث من الله والابن، تماماً مثلما أن ثمر البرعم هو ثالث للجذر، أو كما أن قناة الري الخارجة من النهر هي ثالث بالنسبة للنبع، كما أن طرف الشعاع هو ثالث من الشمس، ومع ذلك فلا شيء غريب عن ذلك المصدر الأساسي الذي استمد منه خصائصه.. وعلى غرار ذلك فإن الآب هو مصدر الثالوث الذي يرتبط فيما بينه بدرجات معينة، لا تؤثر على كل منهم منفرداً".. (Adv. prax.8) (كواستن- مرجع سابق).

(٥) تعليمه عن شخص السيد المسيح

بينما حوت أفكاره عن الثالوث القدوس، بعض المشاكل اللاهوتية، مثل تابعية الابن. فإن تعليمه عن شخص السيد المسيح جاء خلواً من أي نقص. فهو يعلن بكل وضوح الطبيعتين في شخص السيد المسيح فيقول: « ونحن نرى بوضوح الحالة المزدوجة، والتي ليست في حالة ارتباك، وإنما قد اتحدت في شخص واحد- يسوع، إله وإنسان... بل إن صفات كل طبيعة حُفظت تمامًا حتى أن الروح القدس من ناحية، عمل كل أعماله في يسوع، مثل المعجزات، والأعمال القوية والعجائب، ومن ناحية أخرى، أظهر كل المشاعر الخاصة بالجسد، فمثلاً كان يسوع جائعًا أثناء التجربة في البرية، وعطشانًا حين تقابل مع السامرية، وبكى عند قبر لعازر، وحزن حتى الموت، وأخيرًا مات فعلاً. ومع ذلك فإنه لو كان مجرد جوهر مركب ثالث من عنصرين، مثل الإلكتروم الذي يتكون من ذهب وفضة، فلن تكون ثمة دلائل واضحة لأي من الطبيعتين (العنصرين).. إنه بالنظر إلى أن العنصرين يعملان بكل وضوح كل بحسب خصائصها (Adv. prax. 27:3).

وتجد في هذه الأقوال صياغة مجمع خلقدونية (في سنة ٤٥١م) عن طبيعتين في شخص واحد (أقنوم).

✣ ✣ ✣ ✣

٢- كبريانوس

أ- نشأته .

ب - أعماله .

ج - الكتابات المنحولة .

د - ملامح من فكره اللاهوتي .

أ- نشأته: الزمان والمكان

ولد سيسيليوس كبريانوس Caecilius Cyprian الملقب ثاسيوس Thasciius ما بين سنة ٢٠٠م وسنة ٢١٠م في أفريقيا (كواستن جـ ١: مرجع سابق)، بينما يرى شاف Shaff أنه ربما ولد نحو سنة

٢٠٠م، أو قبل ذلك (شاف- مرجع سابق). ويرى ف. ساكسر V. saxer أن حياة كبريانوس والتواريخ التي تسبق عام ٢٤٦م أي قبل رسالته (Ad Dona-tum) هي افتراضية (راجع دائرة معارف الكنيسة الأولى).

ولد كبريانوس في أفريقيا، ولعل ذلك كان في قرطاجنة ، من عائلة وثنية ثرية ذات ثقافة رفيعة (كواستن). ويرى تلميذه بونتيوس Pontius، الشماس، كاتب سيرة حياته، أن حياة كبريانوس المبكرة لا يوجد بها ما يمكن أن يكون ذا قيمة وذلك بالمقارنة بأعماله العظيمة التي عملها فيما بعد للكنيسة (شاف- مرجع سابق). ويقول عنه چيروم إن كبريانوس حظى بشهرة واسعة عن تدريسه للبلاغة.. كان كبريانوس أحد أفضل الأساقفة الذين يمكن أن يبرزهم التاريخ المسيحي (پ. مونسو -موسوعة الكنيسة الأولى).

كان كبريانوس يتحلى بسجايا طيبة القلب، التي تحببه إلى عمل الخير، واللطف، والرغبة في الوحدة. وكان كبريانوس يعتمد على ترتليانوس حيث كان يعترف بتفوقه ككاتب. وقد ذكر چيروم أن كبريانوس "تعود على ألاَّ يقضي يومًا دون أن يقرأ لترتليانوس ،" وكثيراً ما كان يقول لتلميذه "سلمني الأستاذ" وهو يقصد بذلك ترتليانوس. (كواستن- مرجع سابق). كان كبريانوس يعكف على دراسة الكتاب المقدس والقراءة لمعلمي الكنيسة. وهو رجل أدب وبلاغة، وثقافة أصيلة وله قدرة إدارية بارزة، وقد أسدت له خدمة عظيمة فيما بعد، عندما أصبح أسقفًا (شاف- مرجع سابق).

عرف كبريانوس طريقه إلى الإيمان المسيحي بتأثير القس سيسيليوس الذي استمد منه لقبه وذلك نحو سنة ٢٤٥م أو ٢٤٦م. ووهب كل أمواله للفقراء، وبعد وقت قصير من إيمانه بالمسيح، انتقل إلى الكهنوت في سنة ٢٤٨م. (شاف- مرجع سابق) ثم انتخب أسقفًا لمدينة قرطاجنة في سنة ٢٤٩م مما أثار غيرة المرشحين لذلك المنصب، ومن بينهم نوڤاتوس Novatus.

نشب اضطهاد دسيوس (Decius) في سنة ٢٥٠م أي بعد نحو عام فقط من تولي كبريانوس الأسقفية. شمل الاضطهاد كل الرعايا في الامبراطورية، وكانوا يلزمونهم بتقديم الذبائح للأوثان. وبينما يرى "شاف" أنه نُفي لمدة أحد عشر شهرًا ثم حوكم أمام الوالي وأدين بقطع رأسه، يرى آخرون أنه هرب (موسوعة الكنيسة الأولى)، إلا أن البعض يشكون في ذلك، ويرى كواستن أنه وجد ملاذًا آمنًا تمكن منه أن يكون على اتصال برعيته ورجال الدين، من خلال العديد من الرسائل التي أرسلها إليهم.

كتب لهم كبريانوس في إحدى رسائله موضحًا سبب انسحابه لفترة من الزمن حتى لا يكون هو سببًا في الشغب الذي بدأ، وهو وإن كان غائبًا عنهم بالجسد إلا أنه لم يكن غائبًا بالروح أو بالعمل حيث أنه كان يقدم لهم النصح، بحيث لم

يُقصر في أن يقدم أية خدمة نافعة يقدر عليها لإخوته. وقد وصلت رسائله للكهنة والمؤمنين والكنائس. والاضطهاد الذي وقع آنذاك أحدث انقسامًا في الكنيسة، إذ اعتبر بعض المؤمنين أنفسهم مرجعًا في الشئون الدينية. فطالبوا بمصالحة من ارتدوا عن الإيمان أثناء الاضطهاد، وإزاء رفض الأسقف كبريانوس لذلك، قام فليسيسيموس Felicissimus بتأليف جماعة من خصوم كبريانوس ممن ارتدوا عن الإيمان، وسرعان ما انضم إليهم خمسة كهنة، ممن كانوا قد صوتوا ضد انتخابه للأسقفية. وذهب أحدهم - نوفاتوس Novatus السابق ذكره- إلى روما وأصبح مؤيدًا للحركة التي قام بها نوفاتيان (نوفاتيانوس) Novatian ضد البابا الجديد -في روما- كرنيليوس Cornelius.

بعد عودة الأسقف كبريانوس إلى قرطاجنة حرم خصومه. وفي مايو سنة ٢٥١م انتهى الاضطهاد، وبعد ذلك مباشرة، عُقد مجمع عام لكل أفريقيا في قرطاجنة، حيث ناقش مسألة المرتدين، ووافق المجمع على مقترحات كبريانوس، حيث تقرر أن كل المرتدين، بدون تمييز، يجب أن يسمح لهم بالتوبة، وهكذا تم التغلب على ذلك الأمر. بينما انتشر في كل الكنيسة الانقسام الذي أحدثه نوفاتيان. عضَّد كبريانوس موقف بابا روما كرنيليوس وخليفته لوكيوس (Lucius). بينما أصبح الموقف مختلفًا مع البابا اسطفانوس Stephen (٢٥٤-٢٥٦م) حيث أثار حرم الأساقفة الأسبانيين ومارقيانوس Marcianus الذي من آريس، خلافًا بين روما وقرطاجنة. وأصبح أمر معمودية الهراطقة سبب خلاف بين البابا اسطفانوس والأسقف كبريانوس.

وثارت مسألة تحت أي ظروف كان يجب على الهراطقة والمنشقين على الكنيسة ومن اعتمدوا خارج الكنيسة الجامعة أن يتقدموا للمعمودية مرة أخرى؟ في روما اعتبرت تلك المعمودية صحيحة، واكتفى بوضع الأيادي فقط لمن عادوا إلى المجتمع الكنسي مرة أخرى. أما في قرطاجنة فإن الأمر كان على عكس ما كان عليه في روما. حيث اعتبرت معمودية الهراطقة كأنها لم تكن، وقبولهم مرة أخرى في الكنيسة كان يقترن بإعادة معموديتهم مرة أخرى. وأصبح هذا الأمر تقليدًا في أفريقيا بعد أغريبينوس (نحو سنة ٢٢٠م).

كان من الممكن أن تستمر العلاقة بين كنيسة روما وكنيسة قرطاجنة، كما كانت في الماضي، حيث عاشتا في تفاهم وانسجام ولكن مع اختلاف في التقليد. إلا أن البابا اسطفانوس كان يعتقد أن من واجبه أن يجعل أساقفة أفريقيا يعتنقون وجهة نظره. وعندما علم كبريانوس بتدخل اسطفانوس في الشئون الداخلية لكنائس أفريقيا. فإنه شعر أن ذلك ينتقص من سلطته.

فسَّر البابا اسطفانوس على مدى واسع، ما

كتبه كبريانوس عن رياسة روما في كتابه (De unitate) أي عن الوحدة، في الفصل الرابع. فأعاد كبريانوس كتابة الفصل الرابع باختصار حيث لم يذكر شيئًا عن رياسة الرسول بطرس.

حاول كبريانوس تدعيم موقفه، فوجد في فيرمليان (فيرمليانوس Firmilian) أسقف قيصرية كبَّادوكية رجلاً حاسمًا ومتقدًا غيرة. في غضون ذلك عقد مجمعًا في أفريقيا، وأجمع الحاضرون على قبول آراء كبريانوس ومواقفه. وقد حدث السلام مع روما بتدخل العناية الإلهية برقاد البابا اسطفانوس ! . ونجح كبريانوس في توحيد كنيسة أفريقيا.

إن الأسقفية التي تشتتت وقت اضطهاد ديسيوس قد توحدت خلف قيادة كبريانوس في وقت ڤاليريان (ڤاليريانوس- Valerian)، وكانت مستعدة للسير خلفه حتى الاستشهاد. وبدون شك فإن هذه النتيجة كانت ثمرة لتأثير كبريانوس (موسوعة الكنيسة الأولى).

أغريبينوس

ذكر كبريانوس مرتين أغريبينوس (Agrippinus)، الذي مسقط رأسه قرطاجنة، على أنه السابق له (Epp. 71,4,73,3) كما ذكر ثلاث مرات المجمع الذي عقده أغريبينوس في قرطاجنة (المرجع السابق ٧٠:١) وقال عن زمان انعقاده "منذ عدة سنوات مضت" (Ep. 73,3) مع أساقفة أفريقيا ونوميديا (شمال غربى أفريقيا) (Ep. 71,4) حيث قرر أن المعمودية الوحيدة المعترف بها هي تلك المعمودية التي جرت في حضن الكنيسة الجامعة. وقال أغسطينوس إن ثمة (٧٠) أسقفًا، لابد أنهم اجتمعوا نحو سنة ٢٢٠م. (ف. ساكسر V. Saxer- موسوعة الكنيسة الأولى).

نُفي كبريانوس إلى كوروبيس (Curubis) في الثلاثين من أغسطس في سنة ٢٥٧م (حيث كتب آخر رسائله). وبعد ذلك بنحو سنة، وفي الرابع عشر من سبتمبر في سنة ٢٥٨م قطعت رأسه في أجرو سيكستي (Agro Sixti) ودفن ليس بعيدًا عن قرطاجنة (موسوعة الكنيسة الأولى).. وكبريانوس هو أول أسقف أفريقي ينال الشهادة (كواستن- مرجع سابق).

ب- أعماله

تمهيد

كما نعتبر أن أوريجانوس علاَّمة في التعليم اللاهوتي، وترتليانوس أقوى الكاتبين في الكنيسة الأولى، فإن كبريانوس هو أعظم الأساقفة في القرن الثالث الميلادي. وقد تفوق بقدراته التنفيذية حتى على أساقفة الرومان في عصره.

لقد ظهرت القدرات الخاصة عند كبريانوس في مجال التنظيم الكنسي، وفي أحكام التأديب. فبينما

كان جُل اهتمام ترتليانوس مُركَزًا على دحض ومواجهة الهراطقة، فإن كبريانوس كان يهتم أساسًا بمواجهة الانقسامات والمنشقين على الكنيسة.

وتنقسم أعمال كبريانوس إلى الفئات التالية:

١- أبحاث ودراسات:

أ- إلى دوناتس

ب- بشأن المرتدين

جـ- عن وحدة الكنيسة

٢- أعمال تتضمن مباديء أخلاقية:

أ- عن الصلاة

ب- عن الخلود

جـ- عن الأعمال والصدقات

د- عن فائدة الصبر

هـ- عن الغيرة والحسد

و- حض على الاستشهاد (موجَّه إلى فورتيوناتوس)

ز- عن ثياب العذارى

٣- أعمال دفاعية:

أ- إلى ديمتريوس

ب- إلى كيرينوس

جـ- الأوثان ليست آلهة

٤- رسائل

١- أبحاث ودراسات : وهي تتعلق بمسائل عملية عن إدارة الكنيسة وأحكام التأديب فيها.

أ- إلى دوناتس

تعد رسالة (Ad Donatum) من أقدم رسائل كبريانوس ، وقد وجَّهها إلى صديقه دوناتس (Donatus). وهي تصف تأثير النعمة الإلهية العجيب في إيمانه، حيث قادته من الفساد والعنف ومن العالم الوثني، ومن العمى الروحي، والأهواء الخاصة بحياته السابقة، إلى سلام وسعادة إيمانه المسيحي. وهذه الرسالة تذكرنا باعترافات القديس أغسطينوس، حيث يعترف كبريانوس بأخطائه، وفي ذات الوقت يعترف بمجد الله ، وقد كتب كبريانوس الرسالة بعد معموديته ويرجح أنه كان في عشية عيد القيامة في سنة ٢٤٦م، وكان الهدف منها دعوة الآخرين إلى اتخاذ خطوة مماثلة. حيث أن كل خاطيء سيتشجع إذا ما تأمل النعمة التي حصل عليها كبريانوس.

كان الأسلوب الأدبي لكبريانوس -في هذه الرسالة- مطنبًا ومتكلفًا، ويختلف إلى حد كبير عن أعماله التالية التي تميزت بالفخامة والبلاغة. وقد جاء في تلك الرسالة:

"لقد وقعت في ألف خطأ في حياتي السابقة.

ولم أكن أحسب أنه بمقدوري الفكاك منها، لأني كنت عبدًا لنقائصي.. إلا أن المياه المجدِّدة طهرتني من وصمات حياتي السابقة، وأشرق في قلبي نور من العلاء فطهَّره من فساده، وجاء الروح من السماء فغيرني إلى إنسان جديد بالميلاد الثاني. وليس من شك أنكم تعرفون ماذا أُعطيت بدلاً من نتيجة موت الرذيلة وقيامة الفضيلة. أنتم أنفسكم تعرفون هذا، ولا أفتخر أنا بذلك، ومدح النفس تفاخر بغيض. ومع ذلك فإن هذا ليس افتخارًا بل عرفانًا لا بفضيلة الإنسان بل ببركة الله.. لأنني أقول إن كل فضيلة هي من الله. فمن الله تأتي حياتنا وقوتنا".

ب- بشأن المرتدين

كتب كبريانوس عن المرتدين (De Lapsis) عقب عودته من انسحابه خلال اضطهاد دسيوس وذلك في ربيع سنة ٢٥١م. حيث قدم الشكر للرب بعودة السلام بعد الاضطهاد، وامتدح الشهداء الذين قاوموا العالم، وكانوا قدوة لإخوتهم. إلا أنه سرعان ما يتحول فرحه إلى حزن وكآبة بسبب الإخوة الكثيرين ممن سقطوا إبان الاضطهاد. وهو يحذر المؤمنين من التشفع لأولئك الذين أنكروا الإيمان.

لقد قرئت تلك الرسالة في المجمع الذي انعقد في قرطاجنة في ربيع سنة ٢٥١م، وأصبحت أساس منهج موحد للعمل فيما يتعلق بمسألة المرتدين، وذلك على مستوى كنيسة شمالي أفريقيا.

جـ- عن وحدة الكنيسة

لهذا العمل والذي يسمى "عن وحدة الكنيسة" (De ecclesiae unitate) تأثير كبير على كل أعمال كبريانوس. وهذا العمل يقدم مفتاحًا لشخصيته ولكل ما كتبه. وهذا الكتاب بمثابة "العهد الأعظم" (Magna charta) للكنيسة الجامعة الأولى (شاف - مرجع سابق).

يبدو أن هذا العمل كان يهدف إلى أمرين: الأول: مواجهة الانقسام الذى يتزعمه نوفاتيان (Novatian)، والثاني: رأب الصدع الذي أحدثه الانقسام الذي تزعمه فيليسيموس في قرطاجنة فقط.

يرجح أن هذا العمل لم ينشر قبل عودة الكاتب إلى قرطاجنة، وإنما نشر بعد ذلك في مايو من سنة ٢٥١م أي في وقت المجمع الذي عُقد هناك. وقد أرسلها إلى المؤمنين من الرومانيين فيما كانوا لا يزالون إلى جانب نوفاتيانوس وضد كرنيليوس أسقف روما. وقد تمت المصالحة في نهاية سنة ٢٥١م.

يذكر كبريانوس في المقدمة أن الانقسامات والهرطقات تحدث نتيجة عمل الشيطان. وأنهما أكثر خطورة من الاضطهادات، لأنهما يهددان الوحدة بين المؤمنين، ويشوهان الحق ويتلفان الإيمان. "وكل مسيحي ملزم بأن يبقى في الكنيسة

ولا يوجد سوى كنيسة واحدة... ويجب علينا أن نتمسك بهذه الوحدة بكل قوة وندعمها.. والكنيسة أيضًا واحدة تنتشر في الخارج طولاً وعرضًا إلى كثرة بواسطة زيادة الإثمار.. إن الكنيسة مشرقة بنور الرب، وترسل أشعتها على العالم كله، إلا أنه نور واحد هو الذي انتشر في كل مكان، بل إن وحدة الجسم لم تنفصل. ففيضها المثمر ينشر فروعها في كل العالم.. ومع ذلك رئيسها واحد، ومصدرها واحد، وهي أم واحدة مليئة بنتائج ثمرها، ومن رحمها نحن ولدنا، وعلى لبنها تغذينا، وبروحها امتلأنا حيوية".

ويذكر كبريانوس أيضًا أنه لا خلاص خارج الكنيسة. ومن لا تكون الكنيسة أمه لا يمكن أن يكون الله أباه. وإذا كان أحد ممن كانوا خارج سفينة نوح قد تمكن من النجاة ، فيمكن لمن هو خارج الكنيسة أن يهرب أيضًا. ويحذر كبريانوس من الهراطقة الذين أسسوا نظامًا خاصًا بهم. فهم يخدعون أنفسهم بتفسير خاطيء لكلمات الرب. وحتى لو قتل أولئك الرجال من أجل اسم الرب فإن وصمة الهرطقة والانقسام لا يزيلها الدم. والمعلمون الكذبة أسوأ كثيرًا من المرتدين.

وقد حُفظ الفصل الرابع في نسختين. تحتوي إحداهما على "إضافات" تشدد على أولوية "بطرس". وقد سببت هذه الإضافات جدالاً واسعًا بالنسبة لأصلها. وقد شجبها هارتل (Hartel) محرر كتاب كبريانوس. وينظر إليها الجميع – تقريبًا– على أنها مقحمة على النص الأصلي. أما دوم شابمان (Dom Chapman) فله وجهة نظر أخرى إذ يرى أنه يجب ألا يعزى الاختلاف إلى إفساد في النص بل إلى إعادة صياغته بمعرفة كبريانوس نفسه حيث قام بتنقيح النص الأصلي، مما نتج عنه هذه الإضافات. وقد قام كل من د. فان دن أيند (D. Van den Eynde)، وبرلر (Perler)، وبيڤينوت Bevenot بإثبات صحة ذلك الفرض، فقد كان ثمة فرق هام إذ أنهم رأوا عكس ترتيب النسختين، أي أن النسخة التي بها الإضافات هي الأقدم، أما النسخة الأخرى فاعتبروها هي التي تحمل الصيغة النهاية– وهذا الأمر يبدو أكثر احتمالاً (كواستن –مرجع سابق).

٢– أعمال تتضمن مباديء أخلاقية .

أ– عن الصلاة الربانية

جاء عمل كبريانوس المعروف باسم الصلاة الربانية (De dominica oratione) في قائمة بونتيوس Pontius بعد كتابه عن وحدة الكنيسة. وتوجد أسباب في النص تدعونا للاعتقاد بأنه كُتب بعد ذلك بوقت قصير، وعلى ذلك فإن تاريخه يمكن أن يعود إلى ختام سنة ٢٥١م أو بداية سنة ٢٥٢م. وكان كتاب ترتليانوس "De Oratione" هو المرجع الذي استند إليه كبريانوس، وإن كانت معالجته أكثر عمقًا وشمولاً، إذ أن تفسير الصلاة الربانية

لا تشكل سوى ربع كتاب ترتليانوس فقط، بينما شغلت الفصول (٧-٢٧) من كتاب كبريانوس.

تتناول المقدمة موضوع الصلاة بشكل عام، وتشير إلى الصلاة الربانية "أبانا الذي.." باعتبارها أعظم الصلوات. وهي أكثر فعالية من أية صلاة أخرى لأن الله الآب يُسر بسماعه كلمات ابنه، وعلى ذلك فحين ننطق بها يكون المسيح هو المدافع عنا أمام العرش السماوي. ثم يتبع ذلك ببعض آداب الصلاة من هدوء وتواضع. ويظل الكاتب مهتماً بفكرة وحدة الكنيسة فنراه يعكس ما سبق أن أورده في كتابه عن وحدة الكنيسة.

يقول كبريانوس في بداية التفسير: "وقبل كل شيء ما كان معلم السلام وسيد الوحدة ليرغب أن تكون الصلاة فردية وشخصية، كالشخص الذي يصلي من أجل نفسه فحسب. لأننا لا نقول **أبي الذي في السموات** ، ولا نقول: خبزي كفافي أعطني اليوم، بل ولا يسأل كل واحد من أجل غفران خطاياه وحده، بل ولا يطلب من أجل نفسه فقط ألا يدخل في تجربة وينجى من الشيطان. فصلاتنا عامة ومشتركة، وحين نصلي لا نفعل ذلك من أجل واحد بل من أجل الشعب كله، لأن الشعب كله واحد. وإله السلام ومعلم الوئام، الذي علَّم الوحدة، يريد أن الواحد يصلي من أجل الجميع، كما أنه هو نفسه تحملنا جميعاً في واحد.

كرر كبريانوس هذا الحث على الوحدة والوئام في مواضع عديدة. فالصلاة الربانية عند كبريانوس- كما هي عند ترتليانوس تشكل خلاصة للإيمان المسيحي كله (الفصل التاسع)، فمخاطبتنا لله بقولنا: "يا أبانا" يعبر عن تبنينا كأولاد الله في المعمودية: "الإنسان الجديد، الذي وُلد ثانية وأُعيد إلى إلهه بواسطة نعمته، يقول "يا أبانا" في المقام الأول لأنه بدأ يكون ابنًا" (الفصل التاسع). أما تضرعنا "ليأتِ ملكوتك" فيقول الكاتب إنه يشير إلى الملكوت الأخروي، الذي يتحقق بدم المسيح وآلامه، حيث "الذين كانوا رعاياه في هذا العالم، سيحكمون معه حين يحكم" (الفصل الثالث عشر). أما "خبزنا كفافنا" فهو المسيح في الافخارستيا، خبز أولئك المتحدين بجسده.

في الفصول الأخيرة يعود مرة أخرى إلى ما سبق أن ناقشه، حيث يؤكد على الحماسة والتركيز، وأن كل الأفكار الجسدية والدنيوية يجب أن تزول. والصلوات التي يصاحبها صوم وصدقة تصعد بسرعة إلى الله، لأنه مستمع رحيم للرجاء المرتبط بالأعمال الصالحة. ثم يختتم بفكرة أن المسيحي الحقيقي يثابر في الصلاة نهاراً وليلاً.

ب- عن الخلود

انتشر وباء مفزع بعد الاضطهاد الذي شنه دسيوس (Decius) ، وكان ذلك نحو سنة ٢٥٢م. وإذ لقى كثيرون حتفهم، كتب كبريانوس عن معنى ذلك بالنسبة للمؤمن وذلك في رسالته (De mortali-

tate). فتلك اللحظة التي يواجهون فيها الموت تعد بالنسبة للمسيحي تحرراً من الصراع ودعوة من المسيح. ولا يختلف المؤمنون عن الوثنيين في شيء سوى في الروح التي يواجهون بها نهاية حياتهم. وتلك اللحظة تؤدي إلى الخلود والمجازاة الأبدية. وما من مؤمن يمكنه أن يخشى الرحيل من هذا العالم إلى عالم أفضل فيقول: "ثمة عدد كبير من أحبائنا ينتظروننا ويتلهفون إلى رؤيتنا، فإذ قد اطمأنوا بالفعل على سلامتهم، فهم لا يزالون تواقين إلى خلاصنا. والوصول إلى محضرهم واحتضانهم يشكل سعادة بالغة لهم ولنا على وجه العموم. ويا لها من سعادة تلك التي في الملكوت السماوي، حيث لا خوف من الموت، ويا لها من سعادة سامية تلك التي ننعم بها في الحياة الأبدية".

ولذلك فيجب ألا نحزن على الإخوة الذين تحرروا من العالم، نتيجة نداءات الرب... فلا نحزن على الموتى حتى لو كانوا من أعز الناس إلينا، وحين يأتي اليوم الذي نُستدعى فيه، فيجب أن نأتي إلي الرب بكل سعادة وبدون تردد عند دعوته".

وتتضمن رسالته عدداً كبيراً من الاقتباسات لشيشيرون وسينيكا.

جـ- عن الأعمال والصدقات

صدرت رسالته عن الخلود (De mortalitete) في نفس الوقت الذي صدرت فيه رسالته عن الأعمال والصدقات (De opere and eleemosynis). والتي تحث على العطاء بسخاء، إذ قد ترك الوباء المدمر كثيرين من الناس فقراء معدمين. وهكذا وجدت المحبة المسيحية فرصة عظيمة لمساعدة المحتاجين والمرضى ومن يشرفون على الموت. ويسرد كبريانوس بعض العطايا والنعم التي أجزلها الله عليهم. فقد فداهم المسيح بدمه وسمح لهم بفرصة أخرى للخلاص إذا ما سقطوا في ضعف بعد المعمودية وذلك من خلال الأعمال الصالحة. وهكذا يعلم كبريانوس بفاعلية الأعمال الصالحة، فكل واحد ملزم بأن يعمل الخير. وليس ثمة عذر، فأولئك الذين يخشون على ثروتهم أن تنقص نتيجة كرمهم، ومخافة أن يعانوا من الحاجة والعوز في المستقبل، عليهم أن يعرفوا أن الله يهتم بأولئك الذين يساعدون الآخرين. ويخاطبهم بألاّ يَدَعوا مثل هذه الأُفكار أن تمنعهم من أعمال البر والخير.

وجدت رسالة كبريانوس صدًى طيبًا في الكتابات المسيحية القديمة. وقد اقتبس منها المجمع العام الذي عقد في أفسس في سنة ٤٣١م عدة فقرات. ولا يوجد دليل على أن ثمة ترجمة باليونانية لهذا العمل.

د- عن فائدة الصبر

إن رسالته عن فائدة الصبر (De bono patien-

tiae) تقوم على أساس رسالة ترتليانوس عن الصبر (De patientia)، حيث اعتمد كبريانوس على ترتليانوس في هذا العمل أكثر مما هو موجود في كل كتابات كبريانوس الأخرى. ويتضح ذلك من الإطار العام، واختيار تشبيهات وإن كان الاختلاف بينهما في الروح واللغة واضحاً تمام الوضوح. ويمتدح كبريانوس الصبر باعتباره صفة تميز المسيحيين على نحو خاص. وهذه سمة يشتركون فيها مع الله. الذي منه تأتي كل فضيلة، ومنه تأخذ مجدها وكرامتها (الفصلان ٤و٥). وكل من هو نبيل وصبور ووديع إنما هو يحاكي الله الآب، الذي يصبر على الأذى ويتحمل حتى دنس المعابد، والأصنام، والطقوس المدنسة للمقدّسات التي يقيمها الناس احتقاراً لعظمته وكرامته. وكذلك فإن الصبر يعد محاكاة للمسيح، الذي أعطى أفضل مثال للصبر في حياته بالجسد هنا على الأرض حتى ساعة صلبه وآلامه.

والرسالة تمثل عظة، ويتضح ذلك من المقدمة. ويفيدنا كبريانوس بأنها كتبت في وقت ما من سنة ٢٦٥م من خلال الرسالة التي أرسلها إلى يوبيانوس Jubianus –ويعتقد أنه أسقف موريتانيا.

هـ– عن الغيرة والحسد

دعيت رسالة "عن الغيرة والحسد" (De Zelo et livore) رفيقة للرسالة السابقة أي عن فائدة الصبر (De bono patientiate). وإن كان بونتيوس Pontius يدرجها بعد الرسالة الأخيرة، ومن ثم ساد الاعتقاد بأنها كتبت بعد مناقشة تتعلق بمعمودية الهراطقة في ختام سنة ٢٥٦م أو في مستهل عام ٢٥٧م. إلاّ أن تشيلتنهام (Cheltenham) يدرجها في قائمته بعد رسالته عن الوحدة (De Unitate)، وبحسب هـ. كوتش (H. Koch) فإنها تأتي أكثر ارتباطًا معها ومع الرسالة عن المرتدين (De Lap-sis). وعلى ذلك فإن الانشقاق القرطاجي والروماني هو الذي يشكل خلفيتها، ومن ثم فإن كوتش يقترح أنها ترجع إلى النصف الأخير من سنة ٢٥١م أو إلى سنة ٢٥٢م كأكثر التواريخ احتمالاً لكتابتها.

وقد كتب في رسالته يقول: "أن تتملكك الغيرة مما تراه من أمور حسنة، وأن تحسد أولئك الذين هم أفضل منك يعد في نظر البعض خطأ بسيطًا وتافهًا. إلا أن الرب ينصحنا أن نأخذ حذرنا من الشيطان، لأن الغيرة والحسد كانتا سبباً في سقوط الشيطان نفسه عند بداية العالم. وكان الشيطان بدوره سبباً في هلاك آخرين. ومنذ ذلك الحين، ومن خلال نفس هذه الرذيلة، نراه يسلب الإنسان من نعمة الخلود، بعد أن فقد هو الحالة التي كان عليها أولاً. ومنذ ذلك الحين والحسد يحتدم على الأرض في ذاك الذي يكاد يهلك بسبب الغيرة بطاعته من كان سبباً في هلاكه، إذ يقلد الشيطان في حسده. وكما هو مكتوب: "لكن

بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم" (سفر الحكمة ٢٤:٢). ولذلك يقلده أتباعه. وهذه الميول الشيطانية هي أساس خطايا أخرى كثيرة مثل الكراهية، النزاعات، الطمع، الجشع، العصيان، كما يظهر ذلك من خلال أمثلة كثيرة في العهد القديم. وفضلاً عن ذلك فإن هذه الرذائل تُعد من أخطر أعداء وحدة الكنيسة، فعن طريقها كُسرت رابطة السلام مع الرب، وانتُهكت المحبة الأخوية و زُيف الحق، ومُزقت الوحدة".

"ولا يوجد سوى دواء واحد ضد هذا المرض المميت للنفس ألا وهو أن تحب قريبك. عليك أن تحب أولئك الذين سبق أن كرهتهم، وأن تُحسن معاملة أولئك الذين سبق لك أن انتقصت من قدرهم، عليك أن تحذو حذو الصالحين، متى كان بمقدورك أن تفعل ذلك. أما إذا لم يكن بوسعك أن تفعل ذلك، فيجب عليك على الأقل أن تفرح معهم، وأن تهنيء أولئك الذين هم أفضل منك. اجعل من نفسك شريكًا لهم في شركة المحبة، وزميلهم في عمل الخير ورابطة الأخوة".

و- حض على الاستشهاد موجَّه إلى فورتيوناتوس

رسالة (Ad Fortanatum de exhortione marty-rii) ، أي "حض على الاستشهاد موجَّه إلى فورتيوناتوس" تعد خلاصة الأسفار المقدسة، كتبها كبريانوس بناء على رغبة شخص اسمه فورتيوناتوس (Fortunatus) لكي يشدد من عزيمة المسيحيين في مواجهة اضطهاد يوشك أن يقع. ويبدو أن فورتيوناتس هو أسقف توكابوري (Thuccabori)، وقد اشترك في المجمع الأفريقي في سبتمبر سنة ٢٥٦م.

تحتوي الرسالة على اثنى عشر عنوانًا.. والعناوين الخمسة الأولى منها تتناول الوثنية وعبادة الإله الحقيقي وعقاب الذين يذبحون للأوثان وغضب الله عليهم (١-٥). وإذ افتُدينا بدم المسيح فينبغي ألا نفضل عليه شيئًا وألا نعود إلى العالم (السابعة) بل نثابر في الإيمان والفضيلة حتى النهاية (الثامن). وتأتى الاضطهادات لكى تكون تجارب لأتباع المسيح (التاسع) . إلا أنه يجب ألا نخاف منها لأننا على يقين من حماية الرب لنا (العاشر) . وتلك الاضطهادات قد تم التنبوء بها (الحادى عشر). كما تم التنبوء أيضًا بالمكافأة والإكليل الذي يناله الأبرار والشهداء (الثانى عشر).

وثمة عدة آراء حول الاضطهاد الذي تدور حوله الرسالة ، فمن قائل إنه اضطهاد دسيوس (٢٥٠-٢٥١م) ، أو ڤاليريان (٢٥٧م) بينما يرى كوتش Koch أن كبريانوس كتب رسالته في ربيع سنة ٢٥٣م حينما كان اضطهاد جالوس (Gallus) وشيكًا.

س – عن ثياب العذارى

يرجح أن الرسالة التي نحن بصدد الحديث عنها وهي "عن ثياب العذارى" (Dehabitu Virgi-num) قد كتبها كبريانوس بعد رسامته أسقفًا لقرطاجنة في سنة ٢٤٩م بوقت قصير. وتمتاز الرسالة بأسلوب جعل أغسطينوس يشير إليها على أنها نموذج لأتباعه من المحاضرين المسيحيين الشبان. (كواستن –مرجع سابق).

يخاطب كبريانوس العذارى في رسالته أنهن زهرة النسل الكنسي، وجمال الموهبة الروحية وزينتها، الجانب الأكثر إشراقًا في قطيع المسيح. الثمر المجيد للكنيسة الأم (الفصل الثالث). وهو ينصح العذارى ممن كرسن أنفسهن للمسيح من الأخطار التي تحيط بهن في العالم الوثني. فيشير عليهن بأن يرتدين الملابس البسيطة وأن يتجنبن التحلي بالمجوهرات واستخدام أدوات التجميل التي إن هي إلا اختراع الشياطين. وإذا كان لديهن ثروة فعليهن استخدامها لا في مثل هذه الأمور، بل في أغراض صالحة مثل مساعدة الفقراء. وغير مسموح لهن بحضور حفلات الزواج الصاخبة، أو الذهاب إلى الحمامات العامة المختلطة. ويختم في إيجاز بأن يتشبثن بما بدأنه، وأن يفكرن في المكافأة.

٣– أعمال دفاعية

أ– إلى ديمتريانوس .

ب– إلى كيرينوس .

جـ– الأوثان ليست آلهة .

أ – إلى ديمتريانوس

كتب كبريانوس رسالة إلى ديمتريانوس (Ad demetrianum) حيث اتُهم المسيحيون بأنهم مسئولون عن الكوارث التي تحدث الناجمة عن الحرب والوباء والمجاعة والقحط . والرسالة تعد من أقوى الكتابات التي قدَّمها كبريانوس. وهي تتسم بالطابع الدفاعي وتشترك في مضمونها مع كثير من سمات كتابي ترتليانوس "Apology" و "To Scapula" ، إلا أنها أشد وأقوى منهما هجاءً.

استهل كبريانوس دفاعه بأن أشار إلى شيخوخة العالم، حيث وصفها بأنها تتبع قانون التدهور والانحلال. وإنه من الطبيعي أن لا تقدر التربة على إنتاج ما اعتادت أن تنتجه في ربيع الخليقة. وعلى ذلك فإنه ليس من ذنب المسيحيين أن يأتي المحصول ضعيفًا. ثم يضيف إن أمراض الأرض الحقيقية إنما ترجع إلى الخطايا وإلى حياة الوثنيين اللا أخلاقية. وقد أشار إلى أن الله له كل الحق في أن يعاقب عصيان البشر. لأننا مجرد عبيد له. فجرائم الوثنيين وعبادتهم الأصنام إلى

جانب اضطهاد المسيحيين ومعاملتهم بكل وحشية حفزت رب الجنود أن يصب غضبه عليهم. ولا يوجد سوى حل واحد لهذا الأمر ألا وهو: "العمل على إرضاء الله، والخروج من هوة الخرافات المظلمة إلى النور الساطع للعبادة الحقة. والمسيحيون على أهبة الاستعداد كي يعرِّفوا أعداءهم طريق السلامة الأبدية الذي تقدمه عبادة الإله الحقيقي وحده، فنحن نقابل الكراهية بالمحبة، وعِوض العذابات والعقوبات التي تُوقعوها بنا، سنعرفكم طريق الخلاص. آمنوا تحيوا، وأنتم يا من تضطهدوننا في الزمن تعالوا لتفرحوا معنا في الأبدية".

لم تكن تلك الاتهامات الباطلة هي الأولى التي تنسب للمسيحيين فقد حدث أن وُجهت أيضًا إلى المسيحيين في وقت ترتليانوس حيث دحض تلك الاتهامات. كما حدث ذلك أيضًا في زمن أغسطينوس وقام بالرد عليها بشكل أكثر تفصيلاً وذلك في كتابه "مدينة الله". وقد قام كل من أرنوبيوس ولاكتانتيوس بدحض تلك الافتراءات. ويعتبر كتاب كبريانوس من أقوى الكتابات الدفاعية.

يرى لاكتانتيوس أن رد ترتليانوس ما كان يجب أن يكون مبنيًا على أساس الكتاب المقدس في براهينه وحججه، وإنما كان ينبغي أن يكون قائمًا على أساس الحجة والمنطق ليكون لذلك تأثيره على ديمتريانوس. ويبدو أن كبريانوس لم يقصد إلى دحض تلك الأفكار لدى ديمتريانوس فحسب، وإنما كان يهدف إلى تشديد وتشجيع المسيحيين ممن كانوا معرَّضين لخطر فقد إيمانهم بسبب الاتهامات الوثنية أيضًا.

تاريخ الرسالة موضع شك. فالإشارة الواردة في الكتاب بالفصل السابع عشر عن موت دسيوس وأولاده أمر غير مقطوع به. أما بونتيوس فيضع هذه الرسالة بعد رسالة (De dominica-oratione)، ومن ثم فتنسب إلى سنة ٢٥٢م. أما كوتش Koch فيرى أنه يجب نسبتها إلى تاريخ لاحق.

ب- إلى كيرينوس

تعد رسالته إلى كيرينوس (Ad Quirinum) على قدر عظيم من الأهمية فيما يتعلق بتاريخ أقدم الترجمات اللاتينية للكتاب المقدس، وهي تأتي على نفس الدرجة من الأهمية التي للرسالة إلى فورتيوناتس.

يوجه كبريانوس رسالته إلى كيرينوس الذي يدعوه ابنه الحبيب. والرسالة في الأصل تأتي في كتابين فقط، وقد أضاف إليهما كتابًا ثالثًا في وقت لاحق. ويبين كبريانوس في الكتاب الأول الذي تركز على اليهود، أن اليهود ابتعدوا عن الله، وحرموا أنفسهم من نعمته، ومن الأفضلية التي حباهم بها في القديم، وقد حلَّ المسيحيون بدلاً منهم في الوعود الخاصة بالمستقبل واستحقوا نعمة الرب بالإيمان ويضم هذا الكتاب أربعة

وعشرين عنوانًا. أما الكتاب الثاني فعبارة عن تعليم موجز عن السيد المسيح. ويحتوي على ثلاثين عنوانًا.

وللكتاب الثالث مقدمة خاصة به، مما يشير إلى أن كبريانوس استجاب إلى كيرينوس بأن يكتب في موضوعات أخرى محددة. فالكتاب الثالث يحتوي على موجز للتأديبات والواجبات الأخلاقية، وهو مرشد للفضائل المسيحية، ويتألف من مائه وعشرين رأيًا مقترنة بأدلة كتابية. إلا أن المقدمة لا تشير إلى الكتابين الأول والثاني، مما يثير الشكوك حول ما إذا كان كبريانوس قد جمع الكتب الثلاثة، ويبدو أن ذلك قد تم في وقت لاحق. ولا تضم الكتب دلالات يمكن أن تساعدنا على تحديد تاريخ معين لها. ويرجح البعض سنة ٢٤٩م تاريخًا لكتابتها على أساس أن كبريانوس استخدم الكتاب الثالث حين كتب رسالته (De habita virginum).

إن للرسالة إلى كيرنيوس تأثيراً عظيمًا ومستمراً على تعليم الكنيسة وكرازتها، وقد نقل عنها كثيرون النصوص اللاتينية للكتاب المقدس. وأول قائمة ذكرت هذه الرسالة هي قائمة تشيلتنهام Cheltenham في سنة ٣٥٩م.

جـ- الأوثان ليست آلهة

تنقسم النبذة الصادرة بعنوان الأوثان ليست آلهة (Quod idola dii non sint) إلى ثلاثة أجزاء. الجزء الأول منها (١-٧) يوضح أن آلهة الوثنيين ليسوا بآلهة، بل كانوا ملوكًا في الماضي، ونظراً لذكراهم الملكية، فإن الناس بدأوا في عبادتهم بعد موتهم . وحفظوا ملامح المتوفي من خلال صورة، فقد نُحت شبههم، كما ذَبَح لهم الناس الذبائح، وأقاموا الاحتفالات لتكريمهم. وهذا ثابت في التاريخ. وليس ثمة سبب للعلاقة الوثيقة بين هذه الممارسات الدينية ومجد روما.

أما الجزء الثاني (٨-٩) فيوضح أنه لا يوجد سوى إله واحد، غير منظور، ولا يمكن إدراكه. والجزء الثالث يتضمن موجزًا لتعليمه عن السيد المسيح.

كانت هذه الرسالة موضع جدل استمر فترة طويلة. إذ لم يذكر كبريانوس نفسه عنها أي شيء في كتاباته، ولم تدرج في قائمة بونتيوس وقائمة تشيلتنهام. وينسبها كل من القديس چيروم والقديس أغسطينوس إلى كبريانوس. وأصبحت الدراسة التي قدمها كوتش مقبولة بوجه عام، وهذه الدراسة ترى أن الرسالة بها آثار من أسلوب كبريانوس ، مما جعل النظرية التي تقول بأن الرسالة منحولة غير ذات موضوع. فقد وضعها كوتش من بين الأعمال المبكرة للكاتب.

تفتقد الرسالة إلى اللمسات الأدبية التي تميز كتابات كبريانوس الأخرى. وربما يرجع ذلك إلى أن الكاتب كان مبتدئًا فجمع اقتباسات من

الكتابات الدفاعية اللاهوتية. لذلك نجد فيها أفكاراً وتعبيرات لترتليانوس ومينوكيوس فيلكس Minucius felix. وربما لم يكن الكاتب يهدف إلى نشرها على الإطلاق.

٤- رسائل

هذه الرسائل بمثابة المرآة للمجتمع الكنسي آنذاك، فهي تعكس المشاكل والنزاعات التي تتعلق بالإدارة الكنسية نحو منتصف القرن الثالث من ناحية. ومن ناحية أخرى تعبر عن آمال وآلام المسيحيين وحياتهم. وفكرة تجميع الرسائل فكرة قديمة، حيث بدأ كبريانوس بالفعل بترتيب بعض رسائله طبقًا لمحتواها، ثم أرسل منها نسخًا إلى بعض المراكز المسيحية وإلى زملائه من الأساقفة. وذلك بغرض التنوير والتثقيف.

بلغت المجموعة في الطبعة الحديثة إحدى وثمانين رسالة، خمس وستون منها بقلم كبريانوس، وست عشرة رسالة مرسلة إليه أو إلى رجال الدين في قرطاجنة. وثمة مجموعة أحدث تضم رسائل من البابا كرنيليوس ومن نوفاتيان ومن آخرين. أما أرقام ٥-٤٣ فترجع إلى وقت اعتزاله أثناء اضطهاد دسيوس Decius، ومن بينها سبع وعشرين رسالة وجهت إلى كهنته وشعبه. والرسائل المتبادلة بينه والبابا كرنيليوس ولوسيوس فهي من ٤٤-٦١، ٦٤و٦٦، واثنتى عشرة منها: (٤٤-٥٥) تتعلق بانشقاق نوفاتيان.

أما الرسائل ٦٧-٧٥ والتي كتبت في أثناء تولي اسطفانوس البابوية (٢٥٤-٢٥٧م) فتتناول موضوع الجدل الخاص بالمعمودية، وأرسل من منفاه الأخير الرسائل ٧٨-٨١ والبقية (١-٤، ٦٢، ٦٣، ٦٥) وكلها كتبها كبريانوس نفسه لا يمكن ترتيبها على أساس أي من هذه المجموعة المرتبة ترتيباً زمنياً لأنها تفتقر إلى أية إشارة إلى الأزمنة أو الظروف. والرسالة الأولى منها تؤكد القرار الذي اتخذه مجمع أفريقي أن الإكليروس لا يُسمح لهم بالقيام بدور الأوصياء أو الحراس. والثانية تناقش موضوع ما إذا كان في الإمكان تقبل قيام مسيحي استقال من مهنته لتدريس الفن المسرحي. أما الثالثة فتتناول موضوع شماس أساء إلى أسقفه إساءة بالغة. والرسالة الرابعة كتب فيها معارضة شديدة ضد Syneisaktoi الحياة المشتركة للمتنسكين من الجنسين تحت سقف واحد. والرسالة ٦٢ إلى ثمانية من أساقفة نوميديا، صاحبت إسهامًا ماليًا جُمع في قرطاجنة لإنقاذ المسيحيين من الجنسين كانوا تحت أسر البرابرة. والرسالة الثالثة بمثابة بحث، وأحيانًا تأتي تحت عنوان: "حول سر كأس الرب". وتحمل رأي كبريانوس في عادة غريبة بدأت تتفشى في المجتمعات المسيحية آنذاك، وهي استعمال الماء في عشاء الرب بدلاً من الخمر الممزوج بالماء، الأمر الذي يرفضه. أما الرسالة ٦٥ فهي رسالة إلى كنيسة أشور بعدم السماح لأسقفها السابق

فورتناتيانوس، الذي ذبح للأوثان أثناء الاضطهاد بالرجوع إلى وظيفته.

والمجموعة ليست كاملة بأي حال، حيث ذُكر أن ثمة رسالات أخرى لم تُحفظ. ولا تحمل أي رسالة من الرسائل الموجودة تاريخياً، إلاَّ أنها كلها- عدا اثنتين منها- تحمل عنوانًا (وهما رقم ٨ ورقم ٣٣). ومخطوطة واحدة هي Taurinensis التي تتضمن الرسالة الواحدة والثمانين.

وهذه المجموعة ليست هامة لتاريخ الكنيسة فحسب، وإنما تعد أثرًا هاماً للغة اللاتينية المسيحية. ورسائل كبريانوس يغلب عليها الطابع البلاغي والأسلوب الشيشيروني في الخطابة، وهي تمثل لغة المخاطبة اللاتينية التي كان يتبعها المؤمن المتعلم في القرن الثالث. (كواستن- مرجع سابق).

جـ- الكتابات المنحولة

كان نتيجة لما حظى به كبريانوس من تقدير كبير وسمعة عريضة أن نسبت إليه كثير من الكتابات تفوق في عددها وبكثير كتاباته الحقيقية، وهي:

(١) رسالتا "De bono pudicitiae" و "De Spectaculis" واللتين ظهرتا بين أعمال كبريانوس يرجح أن كاتبهما هو نوڤاتيان (نوڤاتيانوس) Novatian كما يرى كواستن.

(٢) رسالة "إلى نوڤاتيان" (نوڤاتيانوس) (Ad Novatianum) رسالة دفاعية، ويعتقد "هارناك" أن كاتبها هو البابا سكستس Sixtus، بينما يرى كواستن أنها لأحد الأساقفة الأفريقيين ممن يشاركون كبريانوس رأيه فيما يتعلق بالمعمودية التي يقوم بها الهراطقة. ويُعتقد أنها كتبت فيما بين عامي ٢٥٣-٢٥٧م.

(٣) تعارض رسالته عن إعادة المعمودية (De rebaptismate) ما ذهب إليه كبريانوس في هذا الموضوع وتدافع عن صحتها. ويبدو أن الكاتب هو أسقف أفريقي، كتبها بعد سنة ٢٥٦م، ويرجح كواستن قبل وفاة كبريانوس.

(٤) العظة (Adversus aleatores) مكتوبة باللاتينية الدارجة وموجهة ضد من يلعبون النرد. وبينما ينسبها هارناك إلى البابا ڤيكتور (١٨٩-١٩٩م) فإن كوتش Koch يرى أن كاتبها أحد أساقفة شمالي أفريقيا، وقد كتبها نحو سنة ٣٠٠م، بعد وفاة كبريانوس.

(٥) تتناول رسالة (De singularitate clericorum) سلوك رجال الدين من الناحية العملية. ينسب هارناك الرسالة إلى ماكروبيوس Macrobius أسقف دوناتس . أما بلاكا Blacha فيعتقد أن الكاتب هو نوڤاتيان. إلا أن كوتش يدحض هذه الآراء ويبرهن على أن كاتبها هو شخص أفريقي غير معروف من القرن

الثالث. أما ميلين Melin فقد قدم برهاناً قوياً أن كاتب هذه الرسالة هو نفسه كاتب الرسالة السابقة.

(٦) تهدف "De pascha computus" إلى تصحيح الدورة الزمانية لعيد القيامة التي وضعها هيبوليتس الروماني. ويعزى فشل حساباته إلى سوء تفسير الأسفار الكتابية. صدر هذا العمل في سنة ٢٤٣م. وتشير صياغة الاقتباسات الكتابية إلى أن الرسالة صدرت عن أفريقيا.

(٧) تتناول العظة "Adversus Judaeos" جحود إسرائيل التي اضطهدت المسيح الذي سبق أن تنبأ عنه الأنبياء. وحيث كان عناد اليهود، ولا سيما فيما يتعلق بموت المسيح، سبباً في تحول المخلص إلى الوثنيين والمساكين ودعوتهم إلى ملكوته. وعلى هذا لم تعد بعد أورشليم مدينة الله ، وتشرد الإسرائيليون في هذا العالم. ومع ذلك، فإن الله مازال ينصح اليهود أن يتوبوا ويرجعوا ويقبلوا الخلاص الأبدي، ويتعمدوا.

يرى هارناك Harnack أنها ترجع إلى سنة ٢٦٠م. وقد بيَّن بيترسون Peterson منذ عهد قريب أنها تعتمد إلى حدٍ كبير على عظة "ميليتو" Melito "عن آلام السيد المسيح"، وقد نشرها "بونر" Bonner على أنها مخطوطة ترجع إلى القرن الرابع. ويوجد تشابه في الفكر اللاهوتي والتعبير حتى تبدو في بعض فقراتها أنها مجرد مترجمة.

(٨) جاءت عظة De laude martyrii في ثلاثة أجزاء تشرح معنى الاستشهاد (٤-١٢) عظمته (١٣-١٨) ومزاياه (١٩-٢٤). ويرجح أن العظة ترجع إلي القرن الثالث، وكتبها أحد العلمانيين.

(٩) كتبت الرسالة "De montibus sinactsion" باللاتينية الدارجة، ويعتبر الكاتب أن جبل سيناء رمزًا للعهد القديم، وجبل صهيون رمزًا للعهد الجديد. والأول تم تحقيقه من الناحية الروحية في الثاني. ولا يعرف تاريخ الكتابة . وتشير الاقتباسات الكتابية إلي أن الترجمة اللاتينية صادرة عن أفريقيا.

(١٠) توجد مجموعة من الاقتباسات الكتابية بعنوان: "Exhortatio de paenltentia" وهي تتشابه مع مجموعتي كبريانوس Ad Quirinum و Ad Fortunatum وقد جاءت فقرات تلك المجموعة تحت عنوان: "كل الخطايا يمكن غفرانها لمن يرجع إلى الله من كل قلبه".

نسبت الرسالة إلى القرن الرابع أو القرن الخامس، بدون أسباب مقنعة. والنسخة اللاتينية ذات طابع أفريقي، ولكنها من طبعة

أحدث من تلك التي استخدمها كبريانوس.

(١١) "Caena Cypriani" هو عنوان لعمل يصف وليمة مفترضة في قانا، دعيت إليها بعض الشخصيات الكتابية الهامة، والدَّاعي ملك عظيم أي الله، ونظراً لأن الكاتب استخدم كتاب "أعمال بولس" على نطاق واسع. لذلك فنحن بصدد مصدر له أهمية فائقة من كتب الأبوكريفا وهو "أعمال الرسل".

يرجح أن هذا العمل يرجع إلى نحو سنة ٤٠٠م، في جنوبي الغال (بفرنسا)، بمعرفة الشاعر كبريانوس، ويبدو أنه هو نفسه كبريانوس الشيخ، الذي وجَّه له چيروم إحدى رسائله (الرسالة ١٤٠).

(١٢) Ad Vigilium episcopum de ludaica incredulitate : وهذا ليس سوى مقدمة للترجمة اللاتينية لحوار أرسطو الذي من بيللا pella.

(١٣) يرجح أن العمل الذي يحمل عنوان:

"De centesima Sexagesima, tricesima" يرجع إلى القرن الرابع بمعرفة أحد الأفارقة. وهو يتناول المكافأة التي تنتظر الشهداء والنساء والمسيحيين الأتقياء. وتأثير كبريانوس واضح في روح النص ولغته.

د- ملامح من فكره اللاهوتي

كبريانوس رجل عملي أكثر منه رجل فكر. فقد اهتم بالقضايا والمسائل العملية التي تواجه المسيحيين. وقد وجدت كتاباته صدًى كبيراً، فحتى زمن القديس أغسطينوس كان كبريانوس هو المرجع اللاهوتي للغرب. إذ كانت كتاباته توضع جنباً إلى جنب مع الأسفار القانونية للعهدين القديم والجديد. وهذا ما تشهد به قائمة تشلتنهام Cheltenham. بل وكان أكثر الآباء من حيث الإقبال على قراءة كتاباته حتى العصور الوسطى إذ كان اللاهوتيون يستشهدون بها مراراً وتكراراً وكان ذلك لتعليمه الخاص عن طبيعة الكنيسة التي كانت تشغل مركز فكره. (كواستن -مرجع سابق).

١- تعليم خاص بطبيعة الكنيسة

الكنيسة في مفهوم كبريانوس هي الطريق الوحيد إلى الخلاص. فمن المستحيل أن يكون الله أبًا لنا ما لم تكن الكنيسة أمنا. ولهذا السبب فإنه من الأهمية البالغة أن نظل في حضن الكنيسة، فما من أحد بمقدوره أن يكون مسيحيًا ما لم يمارس ذلك. فالكنيسة عروس المسيح، وكل من يفصل نفسه عن الكنيسة ويلتصق بزانية إنما هو في الحقيقة يفصل نفسه عن المواعيد التي أعطيت للكنيسة فهو غريب ونجس وعدو. وهكذا فإن الطابع الأساسي للكنيسة هو الوحدة. كما يشبه الكنيسة بأنها رداء المسيح.

وسر الوحدة المقدس هذا، وكذلك الرابطة

المتناغمة التي لا تنفصم قد وضحت حيث نجد في الإنجيل أن رداء الرب يسوع المسيح لم يُقسم إطلاقًا، ولم يُقص، بل استُلم كثوب كامل، وتسلمه دون تقسيم أو مساس به أولئك الذين ألقوا قرعة على ثوب المسيح، والذين كان عليهم بالأحرى أن يلبسوا المسيح. وكان هذا الرداء يحمل معه وحدة نزلت من أعلى أي من السماء من عند الآب.. ولا يمكن أن يمتلك ثوب المسيح ذاك الذي يترك أو يقسم كنيسة المسيح.

وهو يشبه كنيسة المسيح بفُلك نوح، الذي لم ينجُ أحد خارجه. وهناك تشبيهات أخرى، إلا أن تشبيهه المفضل -وقد ورد أكثر من ثلاثين مرة- هو "الأم" التي تجمع كل أولادها في عائلة واحدة كبيرة، وهي سعيدة إذ تجمع في أحضانها شعبًا هو جسد واحد وفكر واحد. والذي يفصل نفسه عن رحمها عليه أن يُعد نفسه هالكًا.

وقد كتب كبريانوس "De Unitate ecclesiae" وكثيراً من رسائله دفاعًا عن الوحدة الكنسية وهو يرى أن تضامن الكنيسة في أنحاء العالم يقوم بدوره على أساس تضامن الأساقفة، الذين يؤلفون مجلسًا. والكنيسة تتألف من الأسقف والإكليروس وكل المؤمنين. والتي يرتبط أعضاؤها المختلفين بعضهم بعضًا بناموس المحبة والتآلف، وهكذا تصبح الكنيسة عالمية في جسد واحد. والكنيسة الجامعة الواحدة، لم تنقسم ولكنها مرتبطة حقًا وموحدة بترابط كهنتها، الذين يثبّتون أعضاء ها فيترابطون معًا.

٢- المعمودية

يرفض كبريانوس المعمودية التي يقوم بها الهراطقة ويعتبرها غير صحيحة.. وهو بذلك يتفق في الرأي مع ترتليانوس. أما فيما يتعلق بمعمودية الأطفال فإن لكبريانوس رأيًا مخالفًا لترتليانوس. إذ بينما يرى ترتليانوس ضرورة تأجيل المعمودية حتى يكبر الأطفال ويستطيعوا معرفة المسيح. فإن كبريانوس يرى أنه يجب أن تتم المعمودية في وقت مبكر بقدر الإمكان. وهو يرفض حتى التقليد الذي ينتظر ثمانية أيام بعد الميلاد. ويفسر ذلك بقوله : لأن رحمة الله ونعمته لا يجب حجبهما بالنسبة لأي مولود من بني الإنسان... فالختان الروحي، لا يجب تعويقه بختان جسدي. ويجب أن نتراجع عن إعاقة طفل، إذ أنه نظراً لولادته حديثًا فإنه لم يرتكب خطية، فيما عدا أنه إذ وُلد بالجسد بحسب آدم فقد انتقلت إليه عدوى الموت القديم عند ميلاده الأول، والذي يتقدم بسهولة لهذا السبب عينه لقبول مغفرة الخطايا -وأنها بالنسبة له قد غُفرت- لا خطاياه هو بل خطايا آخر.

وكبريانوس -كما ترتليانوس- يعرف معمودية أخرى أكثر غنًى في النعمة، وأكثر قوة، وأكثر من معمودية الماء من حيث قيمة نتائجها، وهي معمودية الدم أو الاستشهاد. وكان كبريانوس مقتنعًا، على

غرار ترتليانوس بأن الشهيد يدخل ملكوت السموات بعد الاستشهاد مباشرة، في حين أن الآخرين عليهم انتظار حكم الرب في يوم الدينونة.

٣- التوبة

دافع كبريانوس بنجاح- فيما يتعلق بمسألة التأديب للتوبة الذي مارسته الكنيسة الأولى -ضد كل من الاتجاهين المتناقضين، ضد التساهل الذي انتشر بين رجال الدين في كنيسته، وضد الصرامة الشديدة التي اتبعتها شيعة نوفاتيان في روما. ورسالته عن الارتداد De lapsis ورسائله الأخرى لا تشير إلى "الشطط الثاني" أما (الشطط الأول فهو ما يعتبره البعض خطية الزنى، والشطط الثاني هو عبادة الأوثان).

لم يشر كبريانوس إلى أن الارتداد لا يمكن غفرانه بحسب ما اعتبرته كنيسة روما في ذلك الوقت.. وإنما نجده يذكر ذلك المبدأ: "لا نستطيع أن نجبر أحداً على التوبة إذا ما انتفت ثمارها" (الفصل السابع عشر). وللتوضيح يردف قائلاً: "نحن نثق أنه لا أحد محروم من ثمار الكفارة ورجاء السلام" (الفصل السابع والعشرون). ويكون ذلك ضرباً من الاستهزاء والخداع للإخوة الفقراء أن نحثهم على عمل الكفارة، ثم تنتفي النتيجة المنطقية أي الشفاء فنقول لهم:"احزنوا واذرفوا الدموع، واندبوا حظكم ليلاً ونهاراً، واعملوا دائمًا على تطهير نفوسكم من خطاياها، غير أنه بعد كل هذا، لابد أنكم ستموتون خارج حظيرة الكنيسة. وأيًا كانت الأشياء اللازمة للسلام، التي عليكم أن تفعلوها، فإن أحداً منكم لن يحصل على هذا السلام الذي تطلبونه"، هذا يشبه أن تطلب من الفلاح أن يحرث الأرض ويفلحها ويستخدم كل إمكانياته في ذلك، ولكنك تؤكد له أنه لن يجني من وراء ذلك محصولاً". (الفصل السابع والعشرون).

كما يقول كبريانوس أيضًا في (De opere et eleemosynis) "إن أولئك الذين يرون أن من يقررون فعل الخطية بعد أن اعتمدوا يمكن أن يطهروا ثانية (الفصل الثاني) وأيًّا كان الخطأ الذي اقترفوه فإنه لابد وأن يمحى (الفصل الأول)، لأن الله يريد أن يخلص أولئك الذين افتداهم بثمن باهظ (الفصل الثاني). لم يذكر كبريانوس أن التماس المرتدين للمصالحة يتناقض مع ما كان يجري حتى ذلك الوقت.

إن كبريانوس يرى أن التوبة العامة تتألف من ثلاثة أعمال متميزة هي بالتحديد: الاعتراف، التكفير بحسب شناعة الخطية، والمصالحة بعد إتمام ذلك.

وبحسب رأي كبريانوس فإن العنصر الشخصي الذاتي، للإنسان، من عمل التوبة يأتي بغفران الخطايا (De Lapse 17, epist. 59, 13) والعنصر الكنسي الموضوعي للمصالحة هو "عربون

الحياة" (Pignus Vitae, epist. 55, 133). لأنها تفترض مقدمًا الغفران الإلهي. ويؤكد كبريانوس على قوة الشفاء وفاعلية الأسرار لعمل المصالحة أكثر من كل سابقيه، بل وأكثر من القديس أغسطينوس الذي في جداله مع الدوناتستيين نادى بهذا التعليم.

✢ ✢ ✢ ✢

٣- أرنوبيوس

أ- النشأة

ب- أعماله

جـ- مصادر الكتابة

د- ملامح من فكره اللاهوتي

أ- النشأة

كان أرنوبيوس Arnobius معلمًا ناجحًا للبلاغة في سيكا ڤينيريا Sicca Veneria بنوميديا. وهي تقع إلى الجنوب الغربي من قرطاجنة. كان وثنيًا وخصمًا عنيدًا للمسيحية لمدة طويلة، آمن بالمسيحية وهو في سن متقدمة في وقت اضطهاد دقلديانوس. ويذكره چيروم ويقول إن كتابه الذي وصل إلينا وهو بعنوان ضد الوثنيين (Adversus Nationes) كتبه بناءً على طلب من الأسقف المحلي أن يبرهن له على صدق إيمانه وتغيير أفكاره. وتوفى نحو سنة ٣٢٧م. (موسوعة الكنيسة الأولى- شاف- كواستن).

يصف أرنوبيوس التغيير الجذري الذي حدث له فيقول: "كنت أعمى إلى عهد قريب، كنت أعبد أصنامًا تُشكَّل في الأتون، آلهة تصنع بالمطارق على سندان الحداد.. وحينما كان يقع ناظري على حجر أملس ممسوح بزيت، كنت أصلي إليه وأطلب منه كما لو أن قوة حية تسكن فيه. ثم بدأت أحتقر تلك الآلهة للغاية، ذلك أني عرفت أنها مصنوعة من الخشب والأحجار والعظام.. أما الآن وقد اقتادني إلى طريق الحق هذا المعلم العظيم، عرفت كل هذه الأشياء على حقيقتها. وأصبحت عندي مشاعر قيمة عن الأمور القيمة. ولا أهين اسم إلهي.. وأقدم لكل شخص ما يستحقه.. ألا يستحق المسيح على هذا اعترافنا به كإله، وأن نقدم له كل تكريم وعبادة إلهية، وهو الذي تقبَّلنا منه كثيراً من العطايا فيما نحن نعيش، ونأمل في المزيد منها حين "يأتي اليوم"؟ (١:٣٩:٧). (راجع شاف- كواستن).

إننا لا نعرف شيئًا عن حياته السابقة وموته. وإن كان چيروم هو الكاتب الوحيد الذي ذكره قديمًا، حيث يضيف بعض الأمور، وهي موضع شك كما يقول "شاف" إذ يذكر بالتحديد أنه آمن نتيجة رؤى أو أحلام.

ب- أعماله

يذكر چيروم العمل الدفاعي الذي قدَّمه

أرنوبيوس إبان اضطهاد دقلديانوس وقبل سنة ٣١١م بعنوان "Adversus gentes"، في حين أن المخطوطة الفريدة (محفوظة بباريس) تذكره بعنوان "Adversus nationes" أي "ضد الوثنيين"، ويبدو أن العنوان الأخير هو العنوان الصحيح (راجع كواستن) ! ويتألف هذا العمل من سبعة كتب ويحمل بين دفتيه كل علامات التسرع. وقد كرّس الكتابين الأولين منه للدفاع عن المسيحية، إلا أنه في الواقع يمثل هجومًا عنيفًا على الوثنيين. وكان "ماك كراكن" (Mc Cracken) على حق حين أسماه، أكثر الهجمات المضادة المكثفة ضد العبادات الوثنية المعاصرة. وهو وإن كان ضعيفًا فيما يحمله من تعليم مسيحي، إلا أنه زاخر إلى أقصى حد بالمعلومات الخاصة بالديانات الوثنية المعاصرة له وبالأسلوب الأدبي الأفريقي اللاتيني (كواستن- شاف: مرجعان سابقان).

يأتي هذا العمل الدفاعي في سبعة كتب، مختلفة الأحجام، وهي موجهة للأمم. الكتاب الأول يدحض الافتراء الذي سبق أن واجهه كل من ترتليانوس في رسالته (Apologeticum) وكبريانوس في رسالته (Ad Demetrianum). ذلك الافتراء الذي يلقى بتبعة المحن والأمراض والمجاعة والحرب على المسيحيين لعدم إخلاصهم للآلهة. ويعزو أرنوبيوس أصل هذا الاتهام إلى الكهنة الوثنيين الذين اختلقوه لأن دخلهم قد انخفض. ولأن مثل هذه المحن كانت قائمة قبل المسيحية. والواقع أن الديانة الجديدة تحارب الشرور وتعتبرها مصدرًا لكثير من المحن. ثم يرد على الانتقاد القائل إن المسيحيين يعبدون إنسانًا بأن تعليم المسيح ومعجزاته يدلان على طبيعته الإلهية التي لا تؤثر فيها طريقة موته. وانتشار الإيمان يعزز هذه الشهادة. وكان من الضروري أن يظهر المخلص في الهيئة كإنسان لأنه جاء ليفتدي الجنس البشري. والواقع أن وضع الوثنيين سيئ للغاية في إثارة ذلك الاعتراض، لاسيما وأنهم هم أنفسهم يؤلهون الكثيرين من الأبطال والأباطرة.

وقد وردت في كتابه الأول أيضًا صلاة رائعة يلتمس فيها الصفح لمضطهدي المسيحيين، فيقول: "أيها الأعظم، العلَي مُوجِد ما يُرى وما لا يرى. يا من أنت نفسك غير منظور، ولا يمكن فهمك إطلاقًا بأمور الطبيعة. مستحق، مستحق أنت بالحقيقة- إذا كانت الشفاه الهالكة تدعوك مستحقًا- يا من تشكرك وتقر بفضلك كل المخلوقات الحية العاقلة، وإليك طوال الحياة تخر راكعة لكي تصلي إليك بتضرعات لا نهاية لها. لأنك أنت العلة الأولى، الذي وسع كل المخلوقات، وأساس كل الأشياء مهما كانت. أنت وحدك غير المحدود وغير المخلوق، الدائم الأبدي، الذي ليس مثلك شيء، ولا يشبهك أي جسم محدود، فأنت غير المحدود في الطبيعة، وفي العظمة بدون حدود.. والذي لا يمكن أن يُعَبرَّ عنه بكلمات البشر.. اغفر أيها الملك العلي لأولئك

الذين يضطهدون عبادك، وعلى أساس الرأفة التي هي جزء من طبيعتك، اغفر لأولئك الذين يهربون من عبادة اسمك وديانتك". (١:٣١).

وفي الكتاب الثاني يرد أرنوبيوس على كراهية الوثنيين لاسم المسيح بأن مرجع ذلك هو أن الرب أزاح العبادات الوثنية من الأرض. ولكنه جاء هم بالديانة الحقة، التي رفضها الوثنيون لحماقتهم - وأن كثيراً من تعاليمها توجد في بعض كتابات فلاسفتهم مثل خلود النفس الذي نجده في كتابات أفلاطون مثلاً، على أن أرنوبيوس يشن هجوماً مطولاً على مفهوم هذا المفكر. مما يجعل من هذا الكتاب أكثر الأجزاء أهمية بالنسبة للعمل كله.

وفي الكتاب الثالث يشن هجوماً روحياً على خصومه، لخلعهم الصفات الوضيعة، لاسيما الجنسية منها، على آلهتهم وهذا أمر يتعارض مع طبيعة الله. وفي الكتاب الرابع يسخر من تأليههم للتماثيل ومن آلهتهم الشريرة، والأساطير الشائنة التي تحكي قصص غراميات جوبيتر Jupiter، والتي تشهد عليها أعمالهم الأدبية. ويستهجن في الكتاب الخامس أساطير نوما (Numa)، وأتيس (Attis)، والأم الكبيرة، ويشجب بشدة الاحتفالات والقصص المرتبطة بالعبادات السرية، ويرفض أي تفاسير مجازية لمثل هذه الخرافات. وفي الكتاب السادس يشن هجوماً عنيفاً على معابد الوثنيين وأصنامهم. أما الكتاب السابع ففيه يشن هجوماً على الذبائح الوثنية. ويرد أرنوبيوس سبب كل هذه الخرافات. إلى المفهوم الخاطيء عن الألوهية والذي يضع الفكر المسيحي في مواجهته.

آراء أرنوبيوس وتعليمه

إن ثمة آراء لأرنوبيوس جعلت بعض الدارسين لا يعتبرونه أحد الينابيع الرئيسية للفكر اللاهوتي المسيحي، وحتى الفكر اللاهوتي اللاتيني، والذي أصبح في ذلك الوقت منهجياً أكثر من ذي قبل. (موسوعة الكنيسة الأولى). وأرنوبيوس يرى في تعليمه عن الله، أن الله يسمو تماماً عن الاتصال بمخلوقاته. والمصدر الرئيسي لهذه الفكرة هي الفلسفة الأبيقورية. ونتيجة طبيعية لفكرة انعزالية الله فإن أرنوبيوس ينكر خلق الله للنفس، فضعفها وتقلبها وشرها هي أمور تنفي أن يكون الله خالقها.

وقال عن جوهر النفس البشرية :إنها ذات طابع وسيط، وهذا ما نعرفه من تعليم المسيح. فقد وجدت النفس بحيث تهلك إذا أخفقت في أن تعرف الله، إلا أنها يمكن أن تخلص من موت إلى حياة إذا ما استمعت إلي تحذيراته، واهتمت بنعمه، وتخلصت من الجهل به" (٢:١٤). وبعبارة أخرى لم تُعطَ النفس بالطبيعة حياة أبدية، غير أنها يمكن أن تحصل عليها عن طريق معرفة الإله الحقيقي. وعلى هذا فللنفس خلود مشروط. ويقول: "وثمة جدال حول طبيعة النفوس، فيقول البعض إنها هالكة ولا

يمكنها أن تشارك في طبيعة إلهية، إلا أن آخرين يقولون إنها خالدة ولا يمكنها أن تتحول إلى طبيعة هالكة. وهذه نتيجة الناموس الذي طبقًا له فإن لها طبيعة محايدة، والبعض لديهم حجج جاهزة والتي بواسطتها وجد أنهم معرَّضون للآلام والهلاك، وآخرين على العكس من ذلك لديهم حجج تبين بواسطتها أنها إلهية وبشرية.. إننا تقبلنا الرأي القائل بأن النفوس قد نشأت ليس بعيداً عن مخالب الموت، وأنه على الرغم من ذلك فإنه يمكن أن توهب أن تعيش طويلاً.. وذلك نتيجة لهبة الحاكم الأسمى ونعمته، وذلك إذا ما حاولت فقط أن تدرس لكي تفهمه- لأن معرفته هي نوع من خميرة الحياة، وهي تجمع إلى واحد عناصر ما كان لها أن تجتمع وتلتصق ببعضها". (٢:٣١-٣٢).

ويردف قائلاً: "بسبب هذه المخاوف (من الموت الأبدي) فقد استسلمنا وسلمنا أنفسنا لله باعتباره المحرر" ثم يسأل: "بالنظر إلى أن الخوف من الموت يهددنا، ألسنا حقاً نتصرف بناءً على غريزة تدفعنا إلى ما هو صالح لنا.. وذلك بأن نقبل ذاك الذي وعد بأنه سيحررنا من مثل هذا الخطر (٢:٣٣).

أسلوبه في الكتابة

يقول چيروم عن أسلوب أرنوبيوس إنه متقطع ومسهب ويفتقر إلى التقسيمات الواضحة، الأمر الذي يؤدي إلى الارتباك (الرسالة رقم ٥٨).

والواقع أن الكاتب يوضح كل حجة بتكرارات كثيرة جداً لدرجة تثير ملل القارئ، إلا أن الموضوع ككل لا تعوزه الوحدة المتناسقة. ويرى فستوجيير Festu-giere أن الغموض ناجم عن الأفكار ذاتها، وليس نتيجة للافتقار إلى التنظيم أو سوء الكتابة. فالكاتب يُظهر قُدرة كبيرة على التعبير، ويرتفع في بعض الأحيان إلى مستوى البلاغة الأصيلة.

مصادر الكتابة

١- المصادر اليونانية

استخدم أرنوبيوس في كتاباته العديد من المصادر باليونانية. فقد أشار إلى أفلاطون (Plato) أو إلى أحد أعماله أربع عشرة مرة، ومرتين إلى أرسطو (Aristotle) وسوفوكليس (Sophocles) ومناسياس (Mnaseas) الذي من باتارا Patara ومرتللوس (Myrtillus) وهِرمز ترسمجستوس (Hermes Trismegistus). وقد أوضح فستوجيير أن الكتاب الثاني يستعرض معرفة كبيرة بديانة هرمز، وبالأفلاطونية الحديثة، وبالمأثورات الكلدانية، وبأفلوطين وزرادشت (Zoroaster)، وأوثانيس (Othanes) والأوراق السحرية الخاصة بديانة مترا.

٢- المصادر اللاتينية

كذلك اعتمد أرنوبيوس على العديد من المصادر باللاتينية حيث اعتمد على كل من الكاتبين ڤارو (Varro)، الذي اقتبس منه خمسة عشر اقتباساً،

وكذلك قرأ لشيشيرون (Cicero) ولوكريتيوس (Lucretius). وقد برهن كل من فستوجيير وتلليوز (Tullius) خطأ النظرية التي تقول بأن كرنيليوس لابيو (Cornelius Labeo) كان من بين أكثر مراجعه أهمية.

٣- المصادر المسيحية

لم يذكر أرنوبيوس صراحة أي كاتب مسيحي على الإطلاق. إلا أن الدراسات أثبتت أن ثمة دليلاً على أنه قرأ واستخدم كتاب كليمندس السكندري -(Protrepticus)، وكتابي ترتليانوس (Apologeticum)، و (Ad nationes) وكتاب (Octavius) وكتاب لاكتانتيوس (Lactantius) بعنوان (Divinae institutiones) مما يشير إلى أن كليهما جاء نتيجة مصادر مشتركة. ولم يعرف عن كتابات أرنوبيوس من آباء القرن الرابع سوى چيروم. أما البابا جلاسيوس Gelasius، في القرن الخامس، فقد أدرجها مع الأعمال الأبوكريفية، ومن ثم طواها النسيان منذ ذلك الوقت. وقد أعيدت إلى الأضواء مرة أخرى في القرن السادس عشر. وتذكر الدراسات النقدية الحديثة أن أرنوبيوس كان ناجحًا في دحض الخطأ بأكثر منه في الدفاع عن الحق (شاف- مرجع سابق).

د- ملامح من فكره اللاهوتي

تعتبر الكنيسة في الغرب أرنوبيوس Arnobuis أحد الكتّاب الكنسيين وكذلك يصنف في كتابات اللاهوتيين حيث يصنفه ديمتريوس تسامس أستاذ علم الباترولوچي بكلية اللاهوت بجامعة تسالونيكي باليونان (الكتابات الكنسية).

إن صلاته التي سبق أن تناولناها في معرض حديثنا عن كتابه الأول تعكس فكره الرفيع عن الله. فأرنوبيوس يرى أن وجود العلة الأولى أمر لازم وضروري لوجود كل الأشياء: "هل هناك أحد من الناس ولد ولم يعرف تلك البداية؟". لمن من الناس ليست هذه الفكرة حتمية، من لم يتأثر بذلك، ولم تنطبع فيه وهو في رحم أمه، ومن لم ينغرس في أعماق كيانه أنه يوجد ملك ورب يضبط كل شيء في الوجود (١:٣).

وكذلك يشترك أرنوبيوس مع ترتليانوس في رأيه من بعض النواحي عن النفس (وقد سبق ذكرها). إلاَّ أن فكرته عن الألوهية ..غير واضحة ومحددة. فهو يظن أن الله مُنَزَّه عن الاتصال بمخلوقاته، فالله منعزل في جلال. والله في منظوره الفكري لا يشعر ولا يهتم بما يحدث في العالم (١:١٧، ٦:٢، ٧:٥:٣٦). وهذه الفكرة عن التسامي والعزلة تنتشر في كتابه Adversus Nationes، وهي الفكرة الأساسية في كل تعليمه. ولذلك فهو يرى أن الغضب لا يتفق مع الطبيعة الإلهية. بينما كرَّس لاكتانتيوس (وتأتي دراسته تالية لهذه الدراسة) عمله "غضب من الله" Deiradei ليبرهن على غضب الله، ويحذر أرنوبيوس في كتابه من تلك الرابطة.

فكل من ينفعل بأي عاطفة، فهو ضعيف، معرَّض للمعاناة، ومن ثم فمآله الموت لا محالة.

لا أحد يستطيع -طبعًا- أن يكتب مثل هذه الآراء وتكون عنده ولو معرفة بسيطة بالعهد القديم وما به من الإشارات المتكررة إلى غضب الله وسخطه. إلا أنه يستنكر أية محاولة لاستخدام تلك النصوص في عجلة متسرعة أدلة على ذلك، "ليت أحدًا لا يثير ضدنا، ما اختلقه اليهود والصدوقيون، الذين ينسبون إلى الله أشكالاً، لأن ذلك ما يزعمونه في كتاباتهم، ويؤيدونه كما لو أنه أكيد وأصيل. فهذه الحكايات لا تعنينا، فإننا لا نتفق معها أو على ما يزعمونه من أننا نشاركهم فيها ، فلابد أن تبحث عن معلمين على درجة أرفع من الحكمة وتتعلم منهم كيف تنزع الضباب الذي يكتنف تلك الكتابات" (١٢:٣). إن المصدر الرئيسي لفكرة تسامي الله وانعزاله هي الفلسفة الأبيقورية والمفهوم الرواقي عن الآلام.

إنه لأمر ذي أهمية أن أرنوبيوس لم يجمع بين آلهة الوثنيين والشياطين مثل سائر المدافعين، كما لم ينكر حقيقتهم. وفي بعض الفقرات (٣:٢٨-٣٥، ٤:٩، ٤:١١، ٤:٢٧، ٤:٢٨، ٥:٤٤، ٦:٢، ٦:١٠) يبدو متأكدًا من عدم إمكانية وجودهم، وفي بعضها الآخر يتشكك. ولذلك يكتب: "إننا نعبد أباهم، الذي به بدأ وجودهم، لو أنهم حقًا موجودون، وأنه مصدر قوتهم وعظمتهم وألوهيتهم، إذا أمكننا أن نقول ذلك. (١:٢٨). وهو يؤكد نفس الفكر في فقرات أخرى حيث يرفض فكرة أن آلهة الوثنيين كائنات مولودة.

وهنا يرفض أرنوبيوس العقيدة الكتابية في الخلق، ويتمسك بأسطورة أفلاطون في كتاب تيمايس على أنها تعليم المسيح. ويرى أرنوبيوس أن روح الإنسان لها صفة وسطية: "إن النفوس لها صفة متوسطة ... وهي تلك إن فشلت في معرفة الله، ولكن يمكنها أن تخلص من الموت للحياة، إذا التفتوا إلى تحذيراته وإلى نعمه، وبذلك يولي الجهل (٢:١٤). وبكلمات أخرى فإن النفس ليس لها بالطبيعة في ذاتها حياة أبدية ولكن يمكنها أن تحصل عليها بمعرفة الله الحقيقي. وعلى هذا فإن خلود النفس مشروط. (كواستن- مرجع سابق).

✣ ✣ ✣ ✣

٤- لاكتانتيوس

أ- النشأة

ب- أعماله

جـ- كتابات مفقودة

د- ملامح من فكرة اللاهوتي

أ- النشأة

إن المعلومات الموجزة التي نستقيها من چيروم هي المصدر الرئيسي لحياة لوسيوس سيسيليوس

(أو كايليوس Caelius طبقًا لتقليد المخطوط الخاص بأعماله) فرميانوس لاكتانتيوس Lucius Caecilius Firmianus Lactantius (موسوعة الكنيسة الأولى).

الزمان والمكان

وطبقًا لروايته الشخصية فإن لاكتانتيوس ينتمي إلى والدين وثنيين. ويستدل البعض من اسمه (فرميانوس) أنه ولد بفيرمو (Firmo) بإيطاليا. ولكن لأنه تتلمذ على أستاذه أرنوبيوس الذي من سيكا حيث درس البلاغة، فلهذا السبب يعتبر من الكاتبين الأفارقة (شاف- الجزء الثالث). بينما يرجح ف. لوا (V. loi) أنه ولد نحو سنة ٢٦٠م في بروكونصولاريس بأفريقيا (موسوعة الكنيسة الأولى). وقد اشتهر بعمله الشعري سداسي الأوزان بعنوان الندوة (Symposion) ويتألف من مائة بيت ملغز.

سفره واعتناقه المسيحية

وقد دعاه دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٤م) إلى نيقوميديا في بيثينية ومعه فلافيوس (Flavius) عالم النحو لتدريس البلاغة اللاتينية. ويذكر چيروم أنه كان يفتقر إلى تلاميذ، لأن المدينة كانت يونانية، لذلك كان قليلون جداً هم الذين أقبلوا على دروسه. فانصرف إلى الكتابة التي كرَّس لها حياته. ويرجح أنه اعتنق المسيحية إبَّان اضطهاد دقلديانوس أو قبله، وهو في سن الرجولة، حيث شاهد الاضطهاد الوحشي الذي كان يجري ضد المسيحيين. وإذ أصبح مسيحياً كان عليه أن يتخلى عن كرسيه في سنة ٣٠٣م. وغادر بيثينية نحو سنة ٣٠٥م أو ٣٠٦م. وبعد سنة ٣١٢م (شاف) ، ونحو سنة ٣١٧م (كواستن) أسند إليه الامبراطور قسطنطين (Constantine) -حيث أصبح لاكتانتيوس في شيخوخته - تعليم أكبر أبنائه كريسبس Crispus في تريفس (Treves) بالغال (Gaul) (أو ترير Trier) ، ويرجح ف. لوا أنه كان مشيراً للامبراطور وصديقًا له، حيث يظهر في رسائل الامبراطور قسطنطين في ذلك الحين مدى تأثره بأفكار لاكتانتيوس ولغته. ولكننا لا نعرف كم من الزمن قضى لاكتانتيوس في الغال بفرنسا، ولا نعرف متى توفى، وإن كان يرجح أنه توفى في تريفس نحو سنة ٣٣٠م (موسوعة الكنيسة الأولى).

مكانة لاكتانتيوس في التاريخ

علماء الفلسفة الإنسانية أطلقوا على لاكتانتيوس شيشرون المسيحي. فكان لاكتانتيوس أروع كُتَّاب عصره، وقد وصفه چيروم بأنه أكثر المتعلمين في عصره. حيث تُبرهن كتاباته على تعدد ثقافته وشمول معرفته. وإن كان يتميز أساسًا بصياغة عباراته صياغة واضحة فخمة الأسلوب. وهو في ذلك يتفوق على كل الآباء اللاتين فيما عدا چيروم. ولذلك فهو لم يوصف عن غير حق بأنه شيشيرون المسيحي. إن لاكتانتيوس كان بالأحرى بليغًا في أسلوبه بأكثر منه فيلسوفًا أو مفكرًا

لاهوتيًا. وقد أدرج البابا جلاسيوس Gelasius أعماله بين الأعمال الأبوكريفية. (شاف الجزء الثالث).

ويرى ق. لوا أن لاكتانتيوس كان يتمتع بأهمية كبيرة في تاريخ الثقافة والأدب المسيحي الغربي لأنه أول غربي حاول تقديم تفسير منهجي للتعليم المسيحي الذي يستهدف الأوساط الثقافية فى العالم الرومانى . وقبل عن قناعة عميقة كلاً من الثقافة الدنيوية والتقليد الحرفي وكذلك الأعراف الاجتماعية والسياسية. ثم قام بدمجها مع الرسالة الدينية والأخلاقية المسيحية.

ب- أعماله

١- عن عمل الله .

٢- القوانين الإلهية .

٣- الخلاصة .

٤- غضب من الله .

٥- موت المضطهِدِين .

٦- طائر العنقاء .

نظرًا للقدرة الخاصة التي كان يتميز بها لاكتانتيوس في تجميع واستيعاب أفكارالآخرين وتقديمها فى شكل رائع وواضح . لذلك فإن كتاباته موجودة في عدد كبير من المخطوطات، والبعض يحمل تاريخًا مبكرًا جداً. وقد طبعت أعماله الباقية أربع عشرة طبعة كاملة في القرن الخامس عشر.

وأهم أعماله المحفوظة والتي وصلت إلينا هى:

١- عن عمل الله

يُوجه لاكتانتيوس كتابه "عن عمل الله" (De opificio dei) إلى ديمتريانوس -وهو تلميذ سابق ومسيحي موسر. ويعد هذاالعمل من أوائل الأعمال التي وصلت إلينا.

تضع المقدمة (٢-٤) الإنسان على النقيض من الحيوان فيقول: "خالقنا وأبونا الله، أعطى الإنسان الإدراك والعقل، حتى يثبت من هذا أننا منحدرون منه، لأنه هو الذكاء، وهو نفسه الفهم والعقل.. ولم يضع حمايته في الجسد، بل في النفس لأنه كان سيبدو أمرًا غير لازم، إذا كان بعد أن أعطاه تلك التي لها أعظم قيمة، ثم يغطيها بدفاعات جسدية، ولاسيما حين تعوق جمال الجسد البشري. وعلى هذا الأساس أتعجب من حماقة الفلاسفة الذين يسيرون على نهج أبيقور الذي يلوم أعمال الطبيعة لكي يبين أن العالم أُعد وحكم بمعزل عن العناية الإلهية."

ولكي يدحض هذه النظريات ولكي يبين العناية الإلهية وبمزيد من الانتصار شرع يكتب رسالة عن علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وأتبع ذلك بدراسة مقتضبة إلى حد ما عن النفس (١٦-١٩). وفي الفصل الأخير يعد بشرح أكثر استفاضة للتعليم الصحيح في مواجهة الخبثاء الذين يشوهون الحق، أي الفلاسفة. وهو يشير إلى الكتاب التالي: "Divinae institutiones" (أي

القوانين الإلهية).

يعلن الكاتب أنه لم يهدف إلاَّ إلى متابعة الكتاب الرابع لشيشيرون بعنوان (Repulic) بمعالجة أكثر دقة للموضوع. ويبدو من الإشارات العديدة الواردة في الكتاب إلى اضطهاد دقلديانوس أن تاريخ الكتابة يرجع إلى نهاية سنة ٣٠٣م أو بداية سنة ٣٠٤م.

٢- القوانين الإلهية

يعد عمله المعروف بالقوانين الإلهية (Divinae institutiones) في سبعة كتب هو العمل الرئيسي للاكتانتيوس. ويأتي في أسلوب لغوي بليغ وفخم. وقد لاقى صدًى طيبًا في نفوس قرائه. ويقال إنه ظهر في أكثر من مائة طبعة.

ولهذا العمل هدفان: الأول: أن يبين زيف الديانة الوثنية وأفكارها، والثاني: لتوضيح التعليم والعبادة الصحيحين. وكان يرد بصفة خاصة على هجمتين فلسفيتين حديثتين ، كان هيروكليس Hierocles حاكم بيثينية المسئول عن إحداهما، وكان هو الدافع لاضطهاد دقلديانوس. وكان هدف لاكتانتيوس في نفس الوقت هو أن يفحم كل خصوم المسيحية، لكي يقضي وبصفة نهائية على من يحاربون أو سوف يحاربوا نفس العمل أينما كانوا. والكتاب الأول يحمل عنوان "العبادة الزائفة للآلهة" والثاني بعنوان "مصدر الخطأ" حيث يستنكر الإيمان بعدة آلهة، الذي هو المصدر الأساسي للخطأ. ويوضح أن أولئك الذين يعبدهم اليونانيون والرومان، كانوا بشرًا ولكنهم أُلهوا بعد ذلك. ومفهوم الألوهية يحتم ألا يكون هناك سوى إله واحد. والكتاب الثالث: "زيف حكمة الفلاسفة" يشير إلى الفلسفة باعتبارها المصدر الثانوي لكل خطر، وأن المعرفة الصحيحة لا تتأتى إلا من خلال إعلان إلهي. أما الكتاب الرابع: "الحكمة الحقيقية والديانة" فيوضح أن المسيح بن الله، جاءنا بالبصيرة الحقة، أي الفكرة الصحيحة للألوهية قدَّمها المسيح للإنسان. والحكمة والديانة لا يفترقان، وهكذا فإن المخلص هو أيضًا معين لا ينضب بالنسبة للديانة. وأنبياء العهد القديم، والأقوال السابيليانية وهرمس ترسميجستوس يشهدون لبنوته الإلهية. وتجسده وصلبه قد تم الدفاع عنهما ضد مجادلات غير المؤمنين. ويتناول الكتاب الخامس موضوع "العدل" تلك الفضيلة التي لها أهمية كبرى للمجتمع الإنساني. وإذ طُرد العدل بواسطة الوثنية فإنه عاد بمجيء المسيح. وتمثل العدل في معرفة الإله الحقيقي وعبادته. وقد قام العدل بصفة أساسية على الإنصاف، الذي يعتبر كل الناس متساوين، أي أن يكونوا أندادًا. وقد فرض على الجميع نفس ظروف الحياة، وأتاح الحكمة للجميع، ووعد الكل بالخلود ويشرق على الكل بنوره الأوحد، ويمطر على الجميع، ويمدهم بالطعام.. ويعطي راحة متمثلة في النوم، وهكذا فهو يعطي الجميع مساواة وفضيلة. وفي نظره

ليس أحد عبداً، فعلى أساس الحقوق المتساوية نحن جميعًا أولاده. ويبين في الكتاب السادس "العبادة الحقيقية" أن الديانة من أجل الله، والرحمة من أجل الإنسان، هما الشرطان اللازمان للعدل وللعبادة الحقة. وأول دور لهذه الفضيلة هي الاتحاد مع خالقنا، أما الثانية فهي الاتحاد مع زملائنا. الأولى سميت ديانة والثانية سميت رحمة أو شفقة ، وهي فضيلة يتسم بها الأبرار ومن يعبدون الله. ويعتبر الكتابان الخامس والسادس إلى حد بعيد أفضل جزء في العمل كله من ناحية المضمون والأسلوب. والكتاب الأخير عنوانه: "عن الحياة السعيدة" يقدم نوعًا من الأخرويات المتعلقة بالحكم الألفي. مع وصف تفصيلي للجزاء الذي ينتظر أولئك الذين عبدوا الإله الواحد، وكذلك تعرض لموضوع دمارالعالم، ومجيء المسيح لدينونة الأشرار.

بدأ لاكتانتيوس في كتابة "القوانين الإلهية" نحو سنة ٣٠٤م، أي بعد وقت قصير من الانتهاء من كتابه " De opificio dei " حيث يشير إليه الكاتب على أنه كتبه حديثًا. ولابد أن الكتاب السادس قد انتهى منه قبل صدور مرسوم جاليريوس (Galerius) الخاص بالتسامح الديني الذي صدر في سنة ٣١١م. أما الإهداء إلى قسطنطين في الكتاب السابع فيفرضه مرسوم ميلان الصادر في سنة ٣١٣م.

الكتاب زاخر بالاقتباسات من المؤلفين الكلاسيكيين، لاسيما شيشيرون وڤيرچيل. كما يقتبس من الأقوال السابيسليانية، وغيرها ونادرًا ما يستخدم الكتاب المقدس، ومعظم اقتباساته الكتابية مأخوذة عن كتاب كبريانوس "Ad Quirinum" حيث يتكلم عن أوائل المدافعين عن الديانة المسيحية. وهو يشير إليهم على أنهم المعروفين له وهم مينوكيوس فيلكس وترتليانوس وكبريانوس، دون أن يشير إلى أي من الكاتبين المسيحيين من اليونانيين. ومما يثير الدهشة حقًا أنه لم يذكر شيئًا عن معلمه أرنوبيوس . ويرى كواستن أنه ربما لأن لاكتانتيوس كان بعيداً جداً في بيثينية بنيقوميديا فإنه ربما لم يسمع بكتاب معلمه "ضد الوثنيين".

٣- الخلاصة

نجد في كثير من المخطوطات "خلاصة" ملحقة بكتاب "القوانين الإلهية" التي أعدها لاكتانتيوس لأحد الإخوة ويدعى "بنتاديوس" (Pentadius). واستنادًا إلي محتوياتها لا نجد أنها مقتطفات من العمل الأصلي بل طبعة معادة موجزة. وكما نجد بها حذفًا، نجد بها أيضًا إضافات وتنقيحات. ويرجح أن لاكتانتيوس كتبها بعد سنة ٣١٤م. ولم يُكتشف النص كاملاً إلا مع بداية القرن الثامن عشر، حيث وُجد في مخطوطة "تورين" (Turin) التي يرجع تاريخها إلى القرن السابع. أما النسخ الأخرى فلا تتضمن سوى نسخة مبتورة كما أشار

إليها القديس چيروم.

٤- غضب من الله

كرَّس لاكتانتيوس رسالته غضب من الله "De ira dei" في الرد على الأفكار الأبيقورية التي تقول بعزلة الله، حيث تتطلب سعادته أن يكون في عزلة عن العالم، دون غضب أو شفقة لأن مثل هذه العواطف لا تتناغم مع طبيعته. ويؤكد لاكتانتيوس على أن تلك النظرية تتضمن إنكاراً للعناية الإلهية، بل وحتى وجود الله. لأنه إذا كان الله موجوداً فلا يمكنه أن يكون بلا عمل، فأن تعيش معناه أن تعمل. ولكن ماذا يكون عمل الله هذا، سوى إدارة العالم؟ بل وما كان بالإمكان قبول مفهوم الرواقيين عن الألوهية، القائل بأن الله طيب ولكنه لا يغضب. فإذا كان الله لا يغضب فلن تكون ثمة عناية إلهية لأن عناية الله بالإنسان تتطلب أن يتحرك بغضب ضد الذين يعملون الشر. وفي الأمور المتعارضة، من الضروري التحرك إلى كلا الجانبين، أو عدم التحرك إلى أي منهما. وعلى هذا فإن من يحب الذين يعملون الخير، يكره أيضًا الذين يعملون الشر. ومرجع ذلك أن حب الخير ينبع من كراهية الشر، وكراهية الشر تأتي من محبة الخير. وهذان الأمران مرتبطان معًا بالطبيعة ذلك أن أحدهما لا يمكن أن يوجد دون الآخر. وإذا نزع العطف والغضب من الله، معنى ذلك أنه يجب إقصاء الديانة أيضًا، ما دام الخوف النافع قد اختفى. وبهذا تدمر أعظم كرامة للإنسان، بل وهدفه في الحياة. ويشير الكاتب في مناسبات عديدة إلى كتاب القوانين الإلهية. وقد كتب لاكتانتيوس هذه الرسالة إلى شخص اسمه دوناتيوس نحو سنة ٣١٣م أو ٣١٤م.

٥- موت المضطَهِدين

يوضح كتاب "موت المضطَهِدين" (De mortibus persecutorum) النتائج الرهيبة لغضب الله ومعاقبة المضطَهِدين الأشرار. وكتبه لاكتانتيوس بعد عودة السلام إلى الكنيسة. وغاية الكتاب إثبات أن كل معارضي الكنيسة لاقوا نهاية فظيعة. وحيث أنه وصف ليسينيوس Licinius مع قسطنطين بأنه حامي الإيمان، فلابد وأن يكون قد كُتب قبل بداية هجمته عليها، وعلى الأقل قبل عام ٣٢١م.

تعالج المقدمة نشأة المسيحية، ومصير نيرون الطاغية Nero ودوميتيانوس، وڤاليريان، ودسيوس، وأورليانوس (٢-٦). وبعد ذلك يتكلم الكاتب عن الاضطهادات التي شهدتها حياته، فيتكلم عن اضطهادات دقلديانوس ومكسيميانوس، وجاليريوس، وساويرس، ومكسيمينوس، وجرائمهم ضد الكنائس، ودمارهم حتى انتصار ليسينيوس في سنة ٣١٣م.

وإذ وجهت الرسالة إلى دوناتس Donatus الذي "عرض للبشرية نموذجًا من الشهامة التي لا تقهر

إبان المحنة" (١٦، ٣٥)، فإنها تفيض بالفرح لأن المسيح كان منتصرًا وقد أُبيد أعداؤه. وتظل للرسالة أهمية بالغة- على الرغم من بعض المبالغات (كواستن)- كمصدر يؤرخ لاضطهاد دقلديانوس. فالكاتب شاهد عَيَان، كما أنه استقى معلوماته من مصادرها الأولية. وأصالة الكتاب موضع شك، إلا أنه ليس ثمة شيء في المادة والصياغة أو في الملابسات التاريخية تحول دون نسبة الكتاب إلى لاكتانتيوس. وأقوى حجة لصالحه هي شهادة القديس چيروم. والنص موجود في مخطوطة واحدة ترجع إلى القرن الحادي عشر. وهي مخطوطة باريس.

٦- طائر العنقاء

إن قصيدة "طائر العنقاء" (De ave phoenice) وتقع في خمسة وثمانين بيتًا مزدوجًا من الشعر، وتحكي قصة العنقاء الشهيرة، التي كان هيرودوت (Herodotus) أول من رواها، وكان كليمندس الروماني أول كاتب مسيحي يتخذها رمزًا للقيامة. وكذلك نجدها أيضًا في كتاب ترتليانوس (De resurectione carnis 13) كما تناولها كُتَّاب لاحقون، ونجدها من بين الأدبيات التي ذكرت في الكنيسة الأولى.

ملخص الموضوع

توجد بلدة سعيدة في الشرق الأقصى، حيث تفتح السماء بابها العظيم وترسل الشمس نورها الساطع، وهي تشرق فوق أعلى الجبال. وقد زرعت هناك غابة دائمة الخضرة. ولم يدخلها إطلاقًا، لا مرض ولا شيخوخة ولا موت قاس، ولا جريمة شنعاء، ولا خوف ولا حزن. وفي وسطها يتدفق ينبوع اسمه "الحي"، وثمة شجرة عجيبة تحمل ثمارًا يانعة لا تسقط على الأرض. وهذه الشجرة يسكنها طائر واحد فريد وأبدي، هو العنقاء- وحين يتحول اللون الأصفر البرتقالي عند بداية شروقها إلى اللون الأحمر. نراها تجلس على قمة الشجرة الشامخة. وتبدأ في ترديد ألحان أغنيتها المقدسة. وتحيي النور الجديد بصوت رخيم. وتسجد للشمس حاملة النار، برفرفات من جناحيها. وبعد ألف عام انقضت من حياتها، تحدوها الرغبة في أن تولد من جديد. فهي تترك الضاحية المقدسة وتسعى إلى ذلك العالم الذي يحكمه الموت. ووجهت طيرانها السريع صوب سوريا (فينيقية). وتختار نخلة سامقة، تصل قمتها إلى السماء، وقد اتخذت اسمها اللطيف عنقاء من هذا الطير. حيث تبني هناك لنفسها عشًا أو مقبرة. لأنها تهلك لكي تحيا. لقد استودعت نفسها (بيت رقم ٩٣) وتبددت في النار. وقيل إنه من الرماد قام حيوان بدون أطراف، دودة لبنية اللون، ثم انتقلت إلى حالة الشرنقة. ثم خرجت منها عنقاء جديدة كانت مثل الفراشة وشرعت في الطيران لكي تعود إلى مقرها الأصلي. وقد حملت كل بقايا جسمها القديم إلى مذبح الشمس في هليوبوليس في مصر، وقدمت

نفسها لتنال تقدير الناظرين إليها. وقد رحب جمهور مصر بفرح بهذا الطائر العجيب. وعادت إلى بلادها في الشرق". وتختتم القصيدة بمديح: "أيها الطائر ذو النصيب والمصير السعيد، الذي وهب له الله بنفسه أن يولد من نفسه.. والذي مسرته الوحيدة أن يولد لكي يموت.. حيث أنه سبق أن رغب في أن يموت.. إذ حصلت على الحياة الأبدية ببركة الموت". (١٦٥-١٧٠).

كتب لاكتانتيوس قصيدته مستغلاً معرفته بالأسطورة القديمة وأضاف إليها كثيرًا من الأفكار المسيحية. فالرموز كلها تشير إلى "المسيح" الذي يأتي من بلد في المشرق (الفردوس)، إلى بلدة يسودها الموت، ويموت هناك، غير أنه بعد قيامته يعود إلي موطنه. والعبارة التي ذكرها وتقول "لقد استودعت نفسها" تذكرنا بما قاله السيد المسيح "في يديك أستودع روحي" (لوقا ٢٣:٤٦). وهكذا يرمز هذا الطائر إلي المخلص المجد المقام. وفكرة الموت كولادة ثانية، وبداية حياة جديدة معروفة تمامًا في المسيحية الأولى.

يقول البعض عن هذه القصيدة إنها قصيدة وثنية. أما غريغوريوس الذي من تورس Tours فيقول إن كاتبها هو لاكتانتيوس، ويرى في العنقاء رمزًا للقيامة. وإن كان هذا الرأي لم يقبل على نطاق واسع. إلا أن التشابه في اللغة والأسلوب بين القصيدة وأعمال لاكتانتيوس الحقيقية تؤيد نسبة هذه القصيدة إليه.

جـ- كتابات مفقودة

١- الوليمة: أول أعمال لاكتانتيوس وهو كتاب "The Banauet" وكتبه وهو شاب قبل مغادرته لأفريقيا.

٢- يوميات رحلة: "The Hodoeporicum" وفيها يصف رحلته من أفريقيا إلى نيقوميديا وصفًا شعريًا، وقد ذكره چيروم.

٣- رسالة بعنوان "Grammaticus" ولا نعرف عنها سوى أن چيروم ذكرها في مناسبة ذكر الكتاب السابق الإشارة إليه.

٤- يخبرنا چيروم أيضًا عن كتابين إلى أسكلبيادس (Asclepiades) وأربعة كتب وهي عبارة عن "رسائل إلى بروبوس Probus، وكتابين من رسائل إلى ساويرس (Severus)، وكتابين من رسائل إلى تلميذه ديمتريانوس (Demetrianus)، وهو نفسه التلميذ الذي وجه إليه كتابه (De opifi cio dei).

٥- مخطوطة في ميلانو: لا تحتوي إلّا على سطور قليلة، تتناول عواطف النفس البشرية، وتشرح مصدرها. وقد أوجدها الله لكي تساعد الإنسان على ممارسة الفضيلة. وإذا ما حفظت في إطار معين فإنها تؤدي إلى البر والحياة الأبدية، وإلا فإنها ستؤدي إلى الرذيلة واللعن الأبدي.

والصيغة والمضمون يظهران أنه من المحتمل أن تكون فعلاً من أعمال لاكتانتيوس.

ملامح من فكره اللاهوتي

لاكتانتيوس أحد الكتَّاب الكنسيين. وعلى الرغم من أنه كان أول كاتب لاتيني يحاول أن يقدم فكرًا لاهوتيًا نظاميًا للإيمان المسيحي، إلا أنه ليس مفكراً لاهوتيًا أصيلاً، فتنقصه المعرفة والإمكانية، حتى في عمله الرئيسي المعروف: Divine institutes أي القوانين الإلهية، فقد عرَّف المسيحية على أنها ضرب من الأخلاقيات العامة. (كواستن: مرجع سابق). كان متحمسًا بدرجة شديدة للاستشهاد، وتميز بمحبته لله والناس، وكان يتحلى بفضائل التواضع والعفة. كان يتكلم عن العمل المغير الذي يحدثه الإيمان المسيحي بدون أن يذكر بوضوح فداء الجنس البشري الذي قام به المخلص السماوي. وقد أقام المطالب الأخلاقية على أساس الفلسفة بأكثر منها على أساس ديني. كان يؤمن بالتفوق المطلق للإيمان. وكان متميزاً في نقده الشديد للوثنية بأكثر منه في تقديم المسيحية. وقد عَبَّر چيروم عن ذلك في رسالته (الرسالة ٥٨: ١٠). والفكرة المحورية التي تدور حولها كل أعماله هي "العناية الإلهية"، والتي كثيراً ما يكررها.

١- الثنائية

توجد في بعض المخطوطات فقرات عن الثنائية، إلا أنها أسقطت في مخطوطات أخرى، فهو يرى أنه قبل خلق العالم أوجد الله روحًا، ابنه، على مثاله، وخلع عليه الكمال الإلهي. ثم أوجد كائنًا آخر، صالحًا، إلا أنه لم يظل مخلصًا لأصله الإلهي، فقد حسد الابن، وبإرادته الحرة الخاصة تحول من الخير إلى الشر، وأصبح اسمه "الشرير" (Div. inst. 2,8). ومنذ ذلك الحين أصبح مصدر الخطأ وعداوة الله، وفي الحقيقة ضد الله (antitheus 2,9,13). ووجدت العداوة بينهما طريقها إلى العالم، في مخلوقاته، لأنها تتكون من عنصرين متناقضين، السموات والأرض. فالسموات هي مسكن الله، ومكان النور، والأرض هي مسكن الإنسان، المكان المظلم وحيث الموت ووضع الله الإنسان في هذا العالم، على مثال العالم Cosmos لأنه مخلوق من نفس وجسد، وهما عنصران يعادي أحدهما الآخر. وفي حرب مستمرة فيما بينهما : فالنفس سماوية وتنتمي إلى الله، والجسد من الأرض وينتمي إلى الشرير (Div. inst. 2,12,10). النفس يلازمها الخير، والجسد يلازمه الشر. وتكون الغلبة في الصراع الدائر طوال فترة الحياة إما للروح أو الجسد، للصواب أو الخطأ، فالإنسان إما يتلقى جائزة أبدية أو عقاب أبدي (Div. inst. 2,12,7). ويبدو أن هذه الثنائية تنبع من الرواقية ويرى لاكتانتيوس أن الله في قدرته، يمكن أن يقصي الشر لكنه لا يريد أن يفعل ذلك. فالله يقصد أنه لابد أن يكون ثمة تمييز عظيم بين الخير

والشر، حتى أنه من الشر يمكن أن نفهم طبيعة الخير (Div. inst.5,7,15) كما أنه لا يمكن أن يكون ثمة نور بدون ظلام، أو حرب بلا أعداء، وهكذا فلا يمكن أن يكون للفضيلة معنى،ما لم يكن للرذيلة وجود (Div. inst. 3,29,16) لأنه إذا كانت الرذيلة شر لأنها ضد الفضيلة، والفضيلة خير لأنها تنتصر على الرذيلة، إذن فكلاهما لازم للآخر. فاستبعاد الشر يعني أن تستبعد الفضيلة أيضًا.

٢- الروح القدس

حيث أن الكائن الثاني الذي أوجده الله الآب أصبح عدوًا لله. فيصبح السؤال التالي حتميًا.. أي مكان يشغله الروح القدس في الفكر اللاهوتي للاكتانتيوس. ويجيب چيروم على ذلك في رسالته (Epist. 84,7, comm. in Gal. ad 4,6) إذ يشهد أن لاكتانتيوس كتب لاسيما في كتابه المفقود الآن (Letters to De Metrianus) منكرًا وجود الأقنوم الثالث في الثالوث أو الشخصية الإلهية للروح القدس، فهو في مرات يوَحِّد بينه والآب، وفي مرات أخرى يوحد بينه والروح القدس.

٣- خلق النفس

يختلف لاكتانتيوس في الرأي مع معلمه أرنوبيوس فيما يتعلق بالخلق- الذي يرى أن خلق الله للعالم يتم من خلال قوى تابعة، أما لاكتانتيوس فهو على النقيض من ذلك، يعتقد أن "الله الذي خلق العالم هو نفسه الذي خلق الإنسان منذ البدء" (القوانين الإلهية ٢:٥:١٣). وهو الله الذي شكَّل الجسد والروح وجعل كلاً منهما للآخر. وبذلك أصبح الناتج بالكامل له. ويعارض لاكتانتيوس مذهب الانتقالية الذي يرى أن الوليد يرث من الأبوين النفس والجسد معًا. فهو يرى أن النفس تولد لا نتيجة مجهودات الأب أو الأم أو جهودهما معًا فيقول: "لأن الجسد قد ينتج من الجسد، لأن كلاً منهما يسهم بشيء، لكن النفس لا يمكن أن تنتج من نفسين لأنه لا شيء يمكن أن ينتج من شيء ضئيل غير مدرَك. ولذلك فإن طريقة خلق النفوس ينفرد بها الله وحده تمامًا. لأنه لا يمكن أن يتولد عن الميت إلا الموت.. إن النفوس لا تعطى من قِبَل الوالدين. بل من قِبَل الإله الواحد نفسه، الذي هو أبو الجميع. والذي وحده لديه سلطة ولادتها، لأنه هو وحده الذي يخلقها (عن عمل الله ١:١٩ وما بعدها).

وهكذا فإن لاكتانتيوس يؤمن بعملية خلق النفس. أما عن لحظة الخلق على وجه الدقة فيقول: "لا تنتج في الجسد بعد الميلاد، كما يبدو هذا لبعض الفلاسفة، ولكن بعد الحمل مباشرة، بعد أن تكون الإرادة الإلهية قد شكَّلت الذرية في الرحم".

كذلك فإن تعليمه يختلف عن تعليم أرنوبيوس فيما يتعلق بالخلود، ففي حين أن معلمه يتبنى

الرأي القائل إن النفس لم تُعطَ في ذاتها الخلود، إلا أنها تستطيع الحصول على ذلك من خلال حياة مسيحية، ذلك أن لاكتانتيوس يقول بكل وضوح إنها تمتلك هذه الخاصية بالطبيعة. وكما أن الله يعيش دومًا، هكذا جُبِلَ روح الإنسان. وثمة دليل آخر يسوقه الكاتب يؤكد وجهة نظره، فهو يرى أن الأشرار لا يبادون بل يخضعون لعقوبة أبدية. وحيث أن الحكمة، التي أُعطيت للإنسان فحسب، إن هي إلا معرفة الله. فإنه من الجلي أن النفس لا تموت ولا تفنى، بل بالأحرى تبقى إلى الأبد، لأنها تطلب وتحب الله الذي هو أبدي. وهكذا فإن الإنسان خالد في جوهره. ولكنه لا يختبر النتائج الكاملة لهذه العطية والهدف منها إلاَّ بالممارسة المخلصة للديانة الحقيقية، وحين يصل إلى السماء ويحصل على حياة لا تنتهي في سعادة مع الله.

٤- الأخرويات

الفصول من (١٤- ٢٦) من الكتاب السابع بعنوان Divine institutes أي القوانين الإلهية تقدم فكر لاكتانتيوس في الأخرويات، فكان يرى أنه يتبقى ألفا عام من الآلاف الستة وبعدها يأتي الابن ليدين الأحياء والأموات. وكان يؤمن بالملك الألفي. أي حكم المسيح على الأرض لمدة ألف سنة، والتي يقيَّد الشيطان خلالها، ثم بعد اكتمالها تحدث القيامة العامة، حيث يدان الأشرار وينالون عقابهم الأبدي. (كواستن: مرجع سابق).

أهم المراجع الخاصة بالجزء الثانى من موسوعة آباء الكنيسة

نستهلها بالمراجع في العربية ثم نتبعها بالمراجع فى الإنجليزية

١- أحمد أفندى نجيب

الأثر الجليل لقدماء وادي النيل
الناشر: مكتبة مدبولى
الطبعة: الأولى ، القاهرة ١٩٩١م .

٢- ميخائيل مكسي اسكندر ، دكتور

تاريخ كنيسة بنتابوليس
مراجعة وتقديم نيافة الأنبا باخوميوس
مطرانية البحيرة والتحرير ومطروح وبنتابوليس ،
بدون تاريخ .

٣- يوسابيوس القيصرى، المؤرخ

تاريخ الكنيسة. ترجم مرقس داود ، القمص
مكتبة المحبة، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٩م.

٤- شنودة ماهر اسحق ، القس

تاريخ اللغة القبطية والتحدث بها
طبعة أولى ، القاهرة ١٩٩٨م.

٥- نيقولا جريمال

تاريخ مصر القديمة .
ترجمة: ماهر جويجاتى. مراجعة : زكية طبوزادة ، دكتورة
دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع
بالتعاون مع البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون - قسم الترجمة بالقاهرة
طبعة أولى ، القاهرة ١٩٩١م.

٦- جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي.
ترجمة: حسن كمال ، دكتور
مكتبة مدبولى .. القاهرة

٧- عباس محمود العقاد
الله- كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية
القاهرة: دار المعارف ،
الطبعة: الثامنة ، القاهرة .

٨- متاؤوس ، الأنبا، الأسقف العام
الأنبا باخوميوس.

٩- غريغوريوس ، الأنبا
الدير المحرق- تاريخه ووصفه ، وكل مشتملاته .
بدون دار نشر- بدون تاريخ .

١٠- متى المسكين ، الأب
الرهبنة القبطية . دير القديس الأنبا مقار

١١- جمال حمدان ، دكتور
شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان،
في جزءين . القاهرة. دار الهلال ، بدون تاريخ نشر .

١٢- ثروت عكاشة ، دكتور
المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية، إنجليزي - فرنسي- عربي .
مكتبة لبنان ، الشركة المصرية العالمية للنشر - كونجمان .
طبع فى مصر ١٩٩٠م .

١٣-المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية ،
فى جزءين . الطبعة الثانية .

١٤- نبيل راغب ، دكتور
عصر الإسكندرية الذهبى- رؤية مصرية علمية .
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣

١٥- أحمد فخرى ، دكتور
مصر الفرعونية .
الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٦.

١٦- ألن جاردنر ، سير
مصر الفراعنة. ترجمة دكتور نجيب ميخائيل إبراهيم .
الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٨٧.

١٧- نجيب بلدى ، دكتور
تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها .
مكتبة الدراسات الفلسفية ،
القاهرة : دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .

١٨- أثناسيوس اسحق ، القس
مصر فى فكر الآباء .
مكتبة أسقفية الشباب ،
القاهرة : طبعة أولى مارس ١٩٩٦.

١٩- شنودة الثالث، البابا
ناظر الإله الإنجيلي مرقس الرسول القديس والشهيد .
القاهرة : الطبعة السادسة أكتوبر ١٩٩٦م .

٢٠- أنطون ذكرى
النيل فى عهد الفراعنة والعرب .
الناشر: مكتبة مدبولى بالقاهرة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م .

٢١- أنطونيوس الأنطونى : الراهب القمص
وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها- منذ عام ١٥٠ م إلى عام ١٩٨١ م.
القاهرة ١٩٩٦ . دون ناشر .

٢٢- عبد المنعم حفنى ، دكتور
الموسوعة الفلسفية - القاهرة مكتبة مدبولي ،
لبنان : دار ابن زيدون . الطبعة الأولى : بدون تاريخ نشر .

٢٣- وديع أبو الليف ، الأب الدكتور
محاضرات غير منشورة عن مدرسة الإسكندرية وآبائها وكتابها.

٢٤- كريستيان ڤان نسبن ، الأب الدكتور
محاضرات غير منشورة عن مدرسة الآباء .

25) Atiya Aziz S., Ed . in chief .
The Coptic Encyclopedia .
Macmillan Publishing Company ,
New York

26) Atiya Aziz S.,
A History Of Eastern Christianity ,
Metnuen & Co LTD . London , 1968

27) BROWN LESLEY , Ed .
Shorter Oxford
English Dictionary
2 - Volumes
Clarendon - Press - Oxford 1993

28) David and Alexander Pat .
The Lion Handbook to the Bible .
The Lion Publishing House, Special
Edition . Lckield way , Tring, Herts,
England 1986

29) DI BERNDINO , ANGLO . Ed .
Trans . by Wolford, Adrin:
Encyclopedia of the Early Church ,
2 volume set, James
CLarke & Co.
CAMBRI DGE , First Published,in
GREAT BRITAIN in 1992 .

30) Douglas J. D.
The Illustrated Bible Dictionary,
V 1-111
inter Varsity press , 1980

31) Eliade Mircea, Ed .
The Encyclopedia of Religion ,
Macmillan Publishing Company
New York 1986 .

32) El WELL, WALTER A ., G . Ed.,
Baker Encyclopedia of The Bible ,
2 volume , Set ,Baker book Honse.
Grand Rapids , Second Printing 1989.

33) Griggs, C . Wilfred . Early Egyptian
Christianity (from it's origins to 451 C.E),
Third Edition , Leiden,
The Netherlands , 1993.

34) Merril C. Tenney . G. Ed .,
Pictorrial Encyclopedia of The Bible,
5 volume set,
Zondervan publishing House,

35) Murray Chambers -
Latin - English Dictionary,
Cambridge, 1996

36) PEEIFFER CHARLES , Howard
F . vos John Rea ,Eds.
Wycliffe Bible Encyclopedia,
2 volume Set . Moody Press,
Chicago , 1987

37) UNGER , MERRILL F .
The New Unger's Bible Dictionary,
Mood Press Chicago , 1988

38) W - Philip , Ed. in chief.
The New Encyclopedia, Britannica ,
Volume 13 Maropaedia
15 th Edition .

39) KELLY , J. N.D. Early Christian
Doctorine, Fifth Edition,
A & C Black, LONDON, 1989

40) Martin Ralph P.
Worship in the Early Church,
LONDON : EERDMANS , March 1992

41) Questen , Johannes.
PATROLOGY , Christian
Classics , inc. 1992

42) RICHARDSON , ALAN:
Creeds in The Making,
The Publisher , SCM press , 1982 .

43) Shaff , Philip. History of
the Christian Church . 8 volume set
WM. B. EERDMANS Publishing Company , Grand Rapids ,
Michigan , Fifth Edition
reprinted Septmber, 1989

44) SHELDON , HENRY C. History
of the Christian Church,
Hendrickson Publishers,
April , 1988

45) RANSON K. ANNE
LEXICON UNIVERSAL , Encyclopedia
The first Volume ,
LEXICON Publications , inc.,
New York , N. Y. 1985

46) THOMPSON J.A
Hand Book of Life in Bible Times,
inter- Varsity Press .
First Published in 1986

47) WAKE FIELD GORDON S. , Editor,
A Dictionary of Christian
Spirtuality, GREAT BRITAIN
SCM , 1993

48) WLKER WILLISTON: A History
of the Christian Church,
4 th Edition, 1986

49) WOND J . W. :History of
The Early Church to A.D.500, 1974 .